دكتور/ عبد الحميد صالح حمدان

آراء وأصداء

الناشر



٩ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر الشريف ٥١٢٠٨٤٧

الطبعة الأولى: ٢٠٠٥

رقم الإيداع ٢٠٠٥/١٧٣٥٠



تقديم

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنتهدى لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على نبيه الكريم سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه وسلم وبعد.

فإن هذا الكتاب الذى بين أيدينا إنما يخرج إلى الناس وإلى القراء الكرام، وقد جاوزت السبعين من عمرى..!

وهو يضم مجموعة المقالات والأبحاث التى نشرتها فى الصحف والمجلات المصرية، والتى كنت قد بدأتها فى مطلع شبابى عندما كنت طالبًا بالمدرسة الثانوية ثم فى الجامعة، واضطررت بعد ذلك للتوقف عن الكتابة بعد أن اكتسحتنى المشاغل الحياتية والوظيفية وبعد أن كثرت تنقلاتى وأسفارى فى جميع أنحاء العالم.

ولكننى عاودت الكتابة بعد أن استقرت بى الحال، وتهيأت لى الظروف ونضجت الأفكار فى الثمانينيات من القرن الماضى، وحتى يومنا هذا.

ولقد ترددت كثيرًا فى جمع هذه المقالات والأبحاث فى كتاب مستقل، ولكننى حسمت أمرى ورأيت بعد أن استخرت الله سبحانه وتعالى، أن أضعها فى متناول القراء الكرام، لعل وعسى أن تساعدهم على الاطلاع على بعض مجريات الأمور فى هذه الحقبة من التاريخ.

وأحمد الله على ما وهب من حياة، وأفاء من فضل، وأدعوه أن يجعل عملنا دومًا خالصًا لوجهه تعالى.

والله الموفق والحمد لله رب العالمين

د. عبد الحميد صالح حمدان

دكتوراه الدولة فى الآداب والعلوم الإنسانية

❖❖❖

الفصل الأول

عن الحياة السياسية والاجتماعـــية

أ- فى مصر

مصر والديمقراطية الحديثة*

يتشدق الغربيون فى أحاديثهم وكتاباتهم بالديمقراطية ويتفاخرون بأنها جاءت نتاج تفكيرهم، وبأنها نبعت من ثقافتهم وإرثهم الذى توارثوه عن أجدادهم وعن تفاعلهم مع الحضارات والثقافات الأخرى. غير أنهم أحسوا أخيرًا بأن مفهوم الديمقراطية فى عصرنا الحاضر قد بدأ فى الانحسار والتضاؤل، وبأن الحاجة تمس إلى ديمقراطية حديثة أكثر تفاعلاً مع النضج السياسى والثقافى والرقى الاجتماعى والاقتصادى لعدد كبير من المجتمعات فى أوروبا والأمريكتين. بل وفى آسيا وأفريقيا.

والواقع أن الممارسة الديمقراطية فى الوقت الراهن تفتقر إلى عدة عوامل أساسية لكى تفى بالغرض الذى وضعت من أجله، وهو إسعاد البشر، بحفظ حقهم فى الحياة وفى التفكير وحرية الاختيار وفى سلامة أجسادهم وإماطة الأذى عنه. ومن ثم فلن تكتمل للديمقراطية الحديثة أركانها ما لم تأخذ فى حسبانها عدة معايير جديدة منها على سبيل المثال لا الحصر: أبعاد التنمية الروحية والأخلاقية، واستيعاب علوم العصر والتكنولوجيا والاستفادة من المعلوماتية وتطبيقاتها والأخذ بأسبابها واستخدامها بشكل سليم فى تشكيل وجدان فئات الشعب وتثقيفها وتوعيتها.

غير أن هذه المعايير وتلك المعارف وحدها لن تستطيع أن تجنبنا أزمات الحاضر والمستقبل ما لم تقترن بالحكمة والفضيلة والمنفعة العامة، وكلها أمور تشكل قاعدة لمنظومة من القيم والأخلاقيات التى تؤثر على حياة الفرد فى المجتمع، وتجعله يحس بأن هذا العالم من حوله لم يخلق عبثًا، فالديمقراطية الحديثة ينبغى لها أن تقترب فى روحها من المفاهيم والأبعاد الجديدة وأن تنبذ الشعارات الجوفاء والأيديولوجيات المتهافتة.

ويقينى أن مصر رغم اختلاف مسارات التفكير والاجتهاد لدى قادتها ومثقفيها، قد وعت هذه الحقائق وأدركت تلك الخلفيات وبدأت تتخذ العدة لازدهار الإنسان المصرى ونهضته بتحقيق نوع من التوازن المادى والروحى اتسمت به منذ القدم، وكان سببًا فى عراقتها وأصالتها.

---

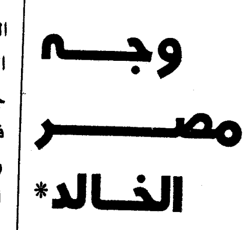
* جريدة الأهرام، ١٢/١/١٩٩٧.

ومما يبشر بالأمل أن مصر بإنجازاتها الحديثة وأمجادها الضاربة فى أعماق التاريخ، هى المؤهلة لتحمل أعباء النهوض بهذه الديمقراطية الحديثة.

فمنذ القدم والشعب المصرى معروف باعتداله فى كل تصرفاته، فما هو بالشعب المتعصب أو المتحيز أو المنتقم، بل اتسم دائمًا بالتسامح والمحبة وطول الأناة. وتلك مزاياه وخصائصه التى عرف بها واشتهر. وهى التى أهلته لحمل مشعل الحضارة عبر القرون، وهى قمينة أيضًا بأن تحمله أمانة الديمقراطية الحديثة، ونشر رسالتها المتمثلة فى الاعتدال والتسامح والثقة والمعرفة والمشاركة، وكل الظواهر تشى بأن هذه النقلة لن تتأخر طويلاً وأن العام الجديد سيشهد انعكاسًا جوهريًا للديمقراطية الحديثة ولحقوق الإنسان الجديدة النابعة من إدراكه لمعنى حضارته وتراثه واستيعابه لمقتضيات عصره ومتطلباته، وتفاعله مع تحولاته ومتغيراته السريعة.

ولعل هذا ما يصبو إليه كل مصرى غيور على مصلحة بلده ومستقبله، ولعل هذا هو أمنيته فى بداية هذا العام الجديد الذى نرجو أن يكون عامًا سعيدًا على الجميع.

❖❖❖



كتب القائد عمرو بن العاص، بعد ما استقر به الحال فى مصر، رسالة مطولة إلى الخليفة عمر ابن الخطاب جاء فيها: «إن إمارة مصر يا أمير المؤمنين جامعة تعدل الخلافة»! وهذا قول حق جاء على لسان قائد حصيف حنكته التجارب والمعارك، فمصر بنيلها وأرضها وأهلها حقيقة تاريخية وجغرافية خالدة منذ القدم، لها سماتها وقسماتها التى جعلت منها كيانًا فريدًا فذا، وحملتها رسالتها الأزلية القائمة على الحكمة والاعتدال وعلى كل أنواع المتناقضات والأضداد. فقد حباها الله بيئة طبيعية متفردة هى سر بقائها وحيويتها على مر العصور، ووهب أهلها نبراس الحكمة وأتحفهم بروح الظرف والصبر على الشدائد والاعتزاز بالكرامة وبآداب السماحة والإخاء، وهى الخامات الحضارية لتقدمها ودوام أوجهها الخالد.

ودون اللجوء إلى التنظير أو السفسطة، فإن الحفاظ على هذا الوجه الخالد يقتضى منا تعمير الأرض والاهتمام بأحوال الناس، فالأرض والناس هما ذهب مصر وفضتها، وهما عماد تقدمها ونهضتها، هذه النهضة التى قامت على التمسك بتقاليدنا وقيمنا المصرية الأصيلة وعدم التفريط فى أى من مفرداتها ومعاييرها. ولاشك أننا اليوم فى أشد الحاجة إلى دعم هذه التقاليد وتلك القيم بدءًا من تعزيز مقام الأسرة والحيلولة دون تفككها؛ فالأسرة الصالحة القوية كانت دائمًا وسيلة المجتمع المصرى ودرعه فى مواجهة الأنواء والعواصف التى كانت- ومازالت- تهب عليه من كل جانب، والتى ازدادت وتفاقمت فى العقود الأخيرة من جراء التيارات العاتية للحداثة والعولمة بعد أن بدأت تكتسح حياتنا المعاصرة. فالعالم اليوم غيره بالأمس، ولم يعد الحاضر هو ثمرة الماضى ولا المستقبل ثمرة الحاضر، فقد تغيرت الأمور وتبدلت الأحوال بشكل جذرى، الأمر الذى يدعونا إلى إعادة النظر فى دور مؤسسات المجتمع المدنى، وحثها على المشاركة الفعالة فى شتى مناحى الحياة العامة للوصول إلى المزيد من الديمقراطية الحقيقية، والمزيد من التنمية الاجتماعية والبشرية والفكرية تأسيسًا على منظومة أخلاقياتنا وسلوكياتنا.

وهذا يدعونا أيضًا- إلى مضاعفة اليقظة والتصدى لمثالب المادية الصارخة التى طغت ووصلت إلى درجة لم يسبق لها مثيل من قبل. ولن يكون سلاحنا فى ذلك سوى سلاح العلم،فهو أنفع كنز لنا، وهو الكفيل بأن يهدينا إلى طريق الرفعة والرقى، وأن يجنبنا عثرات العبور إلى القرن الحادى والعشرين الذى أصبح على الأعتاب..

---

* الأهرام الدولى ١٥/١/١٩٩٨.

معركة «السلام» بين السفراء القدامى*

من الظواهر الصحية التى تطالعنا من آن لآخر تلك الظاهرة المتمثلة فى المعركة الكلامية التى دارت بين السفراء المصريين القدامى حول السلام مع إسرائيل بعد ظهور دعاة لهذا السلام فى مصر بشكل رسمى عقب إشهار «جمعية القاهرة للسلام» وهو ما يدعو إلى التفاؤل ويبشر بالخير، وقد بشر إشهار هذه الجمعية بأنها قد حصلت على «مباركة» الجهات الرسمية، ولكنه فى نظرنا لايوحى بأنها قد حازت على المباركة الأهم وهى المباركة الشعبية. فهذه الجمعية ترتكز أهدافها على إعلان كوبنهاجن الذى يقوم بدوره على أسس التحالف الدولى من أجل السلام بين العرب وإسرائيل، وقد نال هذا الإعلان حظه من المعارضة والتأييد دون نتائج ملموسة تذكر. أما وقد حدث إشهار لجمعية تؤمن بما جاء فى هذا الإعلان وتدعو إليه صراحة، فإن هذا الواقع الجديد يقتضى «وقفة» لإلقاء الضوء على هذا الموضوع بطريقة علمية هادئة. فلاشك أن السلام أمر مطلوب، ولكنه بطبيعة الحال ليس مطلوبًا بأى ثمن، وهو لن يتحقق بالأقاويل المرسلة أو الادعاءات المغلوطة التى زينتها لنا الدعاية الصهيونية. ويشعر المرء أن الأساس المنطقى لإفشاء هذه الجمعية إنما ينطلق من المقولة التى شاعت بين العرب، والتى أصبح السلام بمقتضاها الخيار الاستراتيجى لنا، مع ما فى ذلك من خطأ فادح، فالمفهوم الصحيح للسلام ينبغى أن يكون خيارًا تكتيكيًا لا استراتيجيًا، بمعنى أنه ينبغى أن يصبح أداة فعالة عند الاقتضاء لإعادة حقوق الشعب الفلسطينى ووقف اغتصاب أراضيه .

ومهما قيل عن رغبة العرب فى السلام، فإنه من الصعب تمامًا أن نتدارك العنصرية التى تتسم بها دولة إسرائيل، وأن نعى مدى تغلغل هذه العنصرية فى المجتمع الإسرائيلى الذى يعانى فى داخله من نعرة عنصرية تهدد تركيبته الأساسية. وهذه النعرة العنصرية هى نفسها النعرة التى نقلتها إسرائيل إلى أرض فلسطين بعد أن ذاقت شرورها على يد النازية، وهى تحاول الآن عكس كل تاريخ اليهود فى التوراة على العرب بطردهم من أراضيهم وتشريدهم فى «شتات» جديد، بل وإبادة جنسهم إن أمكن.

وهذه العقلية مازالت مسيطرة على غالبية المجتمع الإسرائيلى، بل وهى المهيمنة كذلك على كل أفعال إسرائيل وتصرفاتها حيال عملية السلام، فالحق ليس وحده فى

* جريدة الأهرام، ١/٦/١٩٩٨.

صفنا ولكن الحقيقة أيضًا، ومع ذلك تتمادى إسرائيل فى غيّها سواء كان ذلك على يد الليكود أو العمال، ومن ثم، فإذا ما نجحت هذه الجمعية الجديدة فى قلب هذه الحقائق الإسرائيلية ومواجهة الدعاية الأخطبوطية للصهيونية، وفى الغرب خاصة، فإنها تكون قد حققت هدفًا ساميًا وغاية نبيلة طال عليها الزمن. أما إذا كان هدفها تنحية نتنياهو والليكود عن الحكم ليحل محله إيهود باراك والعمال، فكأنك يابوزيد ما غزيت كما يقول المثل الدارج، فشهاب الدين.. من أخيه وكل الأخوين.. (واللبيب بالإشارة يفهم!).

أما ما نحتاج إليه الآن، فهو دراسة قضيتنا واستيعاب كل دقائقها ودخائلها ومخارجها الفكرية، الإيجابية منها والسلبية على حد سواء، وعرض هذه القضية على الجماهير الغربية بلسانها ومنطقها وعقليتها من أجل إثارة نوع من الحوار العميق مع الضمير الغربى المنحاز كلية إلى إسرائيل، واطلاعه على الصورة الحقيقية بأبعادها الصحيحة بعيدًا عن تزييف الصهيونية وتشويهها. ولكن ينبغى ألا يصبح هذا العرض بمثابة «عقيدة» نتلهف ونتهافت عليها كما لو كان فيها الحل الحقيقى لتحرير فلسطين، ويجدر بالجمعية الجديدة أن تراعى ذلك فى أفعالها وأقوالها، وألا تشعر بأنها قد منحت جواز المرور إلى السلام دون غيرها، فما أخذ بالقوة وحدّ السيف لن يعود بمجرد تفاهم أو تعاطف المثقفين والمتحررين، فمصير فلسطين لن يحدده سوى أبناء فلسطين أنفسهم ومهما طال الزمن، وهو سيتحدد على أرض فلسطين بالذات، وليس فى العواصم العربية أو الأجنبية. ولن ينفعنا أن نستجدى حقنا أو نتسوله، وعلينا الآن أن نحدد موقفنا وهدفنا، وأن نعرف اتجاه خطواتنا فى المستقبل دون رعونة أو إشهار لجمعيات السلام! فلن يتحقق لنا السلام طالما أن هناك من يحمى إسرائيل علانية وبكل الطرق، المكشوفة والملتوية، وينحاز إليها ويمدها بالسلاح التقليدى والنووى حتى تظل هى الأقوى.

وهكذا فإن الخطر الإسرائيلى يمثل بفداحته وشروره وأهواله أعظم تحد للعرب، وهو تحد يفرض علينا التروى عند اتخاذ المبادرات التى قد تبدو على السطح كمبادرات حسنة النية، وهى تخفى فى الواقع مخاطرة غير محسوبة إذا ما انطلقت من رؤية مضللة تستند إلى مايمر به المجتمع الإسرائيلى، من متغيرات جذرية وما يعانيه من انقسامات سياسية ودينية وعرقية ومن خلافات حول نتنياهو وسياسته المتغطرسة. فواقع الحال يقول إن مايحدث إنما هو مجرد اختلافات فى وجهات النظر لاتمس

أسس قيام إسرائيل، كما أنها تحقق «الديمقراطية» التى تتشدق بها فى المحافل الدولية. واستغلال هذه الثغرات أو الخلافات المرحلية والمؤقتة لتحقيق السلام واختراق التعنت الإسرائيلى، إنما يعد ضربًا من ضروب التفكير الطوباوى. فالأمر ليس بهذه السهولة التى صورها لنا بيان الجمعية، وهو البيان الذى لم يأت بجديد، فنحن نحتاج الآن إلى رؤية موضوعية مجردة من العواطف والنوايا الطيبة حيال هذا الموضوع الشائك الذى أخفقت حكومات عديدة فى إيجاد حل عادل له منذ نصف قرن.. وهذه الرؤية هى فى نهاية المطاف ما تنادى به أولويات علم السياسة..

❖❖❖

لماذا يبايعون مبارك؟*

لقد ألح على خاطرى هذا التساؤل إثر سماع أخبار مبايعة الشعب المصرى بمختلف فئاته لرئيسه الحالى من أجل ولاية رابعة. ودعانى ذلك إلى التفكير وإمعان النظر فى الأسباب التى حملت الناس على هذه المبايعة بهذه العفوية والتلقائية. فالمبايعة هنا هى تكليف لاتشريف، فهذا المنصب، ورغم ما قد يحيطه من مظاهر الفخامة والأبهة، هو مهمة مرهقة ومسئولية خطيرة لايعلمها إلا الله ومن اختارهم ليكابدوا هذا العمل ليل نهار، والمبايعة- كما هو معروف- مشتقة من البيعة التى تنعقد عند أهل السنة لبعض أهل الحل والعقد من الذين حنكتهم التجارب وعُرفوا بالصفات المرعية، ومن ثم عقدت هذه البيعة للأشجع وقت الحرب، وللأعلم المتأهل وقت السلم. كما أن المبايعة فى اللغة هى الطاعة لمن وقع عليه الاختيار بالإجماع، أى معاقدته ومعاهدته على مافيه خير الأمة وصلاحها.

والواقع أن الشعب المصرى انحصرت معضلته دائمًا فى علاقته بحاكمه أولاً ثم بحكومته ثانيًا. وقد عرف هذا الشعب، وبحسه المرهف كيفية التعامل مع حكامه الذين تعاقبوا على حكمه طوال تاريخه المفعم بالأحداث الجسام. فقد كان لهذا الشعب الذى انتقل من «عبيد فرعون» إلى «عبيد السلطان» ثم إلى «رعايا الملك» وأخيرًا إلى «مواطنى الجمهورية» ، فلسفته التى لا تخلو من الذكاء والفطنة حيال معاملة حكامه. فهى فلسفة النفاق مع الحاكم الطاغى والمستبد، وفلسفة التزلف أو السلبية مع الحاكم المطلق. فالدور الشخصى للحاكم كان هو الدور المحورى للسياسة المصرية سواء على الصعيد الداخلى أو الخارجى.

هذا عن الحاكم ، أما عن الحكومة فكانت- ومازالت- بالنسبة للشعب المصرى جهازًا بيروقراطيًا متضخمًا ومترهلاً، وهى السلطة التنفيذية الطاغية والمتحكمة فى أقدار الناس والمجتمع بأكمله. فهى التى تملك وتتحكم فى كل شىء، ووحدها هى التى تمسك بزمام الحكمة وسداد الرأى..

وظلت هذه المعادلة المنقوصة تعكس التركيبة الاجتماعية السياسية لمصر وشعبها طوال قرون، وهى تركيبة مازالت حتى الآن ماثلة أمام الأعين. فحياتنا الحزبية والمؤسسية قائمة من حيث المظهر فقط، أما من الناحية الفعلية فهى تفتقر إلى

---

* الأهرام الدولى ٢٠/١٢/١٩٩٨

المصداقية، وكذلك حياتنا الاجتماعية فهى تحبو نحو الأفضل رغم تغير الأوضاع الاقتصادية، كما أن حياتنا الثقافية فمازالت حبرًا على ورق.

ولكن دعنا الآن من هذه الصورة التى قد تبدو غير متفائلة، فمصر المعاصرة قد حققت خلال العقدين الماضيين قفزة نوعية غيرت معالم حضارتها بدرجات متفاوتة، فقد اتسمت حياتنا العملية -والحق يقال- بشىء كثير من الواقعية وحرية الحركة والموضوعية، وهى سمات كانت قد غابت عن جموع المصريين لفترة طويلة. وحاولت مصر أن تجارى التغييرات الجذرية والتحولات الهيكلة والمصيرية التى طرأت على العالم من حولنا، والتى سادتها الهيمنة الدولية (ولا أقول الشرعية الدولية..) والعولمة والقطبية الآحادية وما أشبه. فالشعب المصرى يسمع ويرى ويبغى تحقيق ما نجح فى تحقيقه ،الآخرون بطريقته الخاصة النابعة من تقاليده الأصيلة وعقائده المتينة. وهو يود أن يرى فعالية مؤسسات مجتمعه المدنى وقد تطور دورها لكسر الجمود المخيم عليها حاليًا؛ وأن يرى أحزابه ومجالسه النيابية ونقاباته وقد نهضت من عثرتها وسباتها لتؤدى مهمتها الحاسمة فى الحياة السياسية؛ وأن يرى صحافته وإعلامه ينعمان بالحرية فى التعبير عن تطلعات الشعب وبالقدرة على الصمود أمام المنافسة الخارجية؛ وأن يرى شبابه وقد تحمل نصيبه الطبيعى من المسئولية فى مجال صنع مستقبله الذى هو مستقبل مصر، وذلك دون حجر أو إعاقة. وتلك بعض أمنياته التى تداعب مخيلته والتى يرمى إلى إنجازها وهو على أعتاب ألفية جديدة تشير إلى إرهاصات واختلالات فى حياة الناس من جراء ارتفاع مستوى المعيشة فى البلدان المتقدمة وانتشار الفقر فى البلدان النامية، مع تسارع الثورة التكنولوجية التى زحزحت أنشطة المجتمع المدنى عن مواضعها وزعزعت مؤسسات الدولة من برلمانات ومدارس وجامعات، وأفرزت قيمًا جديدة تشابكت فيها السياسة بالاقتصاد والثقافة بالبيئة، بل وحاصرتنا حتى فى عقر دارنا، وأورثتنا نوعًا من الشك والشعور بالسخيمة على هذه الظواهر التى تباغتنا من آن لآخر دون أن نستطيع لها دفعًا أو نجد إلى الخلاص منها سبيلاً.

والمواطن فى مصر لايبتغى فى حياته سوى الستر والحرية الحقيقية التى تصون كرامته كإنسان، وأن يشعر فى قرارة نفسه بنوع من الرضا والسعادة والطمأنينة فى عمله وبيته، وأن يتسنى له بقدر الإمكان المشاركة فى شئون مجتمعه بمفهوم المساواة والعدالة. وهذا المواطن الصادق قد أيقن أن زمن النفاق والتزلف والسلبية قد ولى؛ وأبصر بثاقب نظره أن الزعامة فى مصر تملك الآن- وهذا هو بيت القصيد- من

الاتساق والانسجام النفسى والبدنى ما يؤهلها لحمل شعلة الإصلاح الذى يصبو إليه؛ وهو يشعر بأن هذا الاتساق والانسجام النفسى ينعكس إيجابيًا عليه وعلى أفراد الشعب، ويبث فيهم الثقة بمستقبل أفضل لهم ولأبنائهم، فينامون ملء الجفون، ولا يستيقظون- كما كان حالهم فى السابق- ليفاجأوا بقرارات وتصرفات هوجاء تؤرق حياتهم وتنغص عليهم معيشتهم وتدخلهم فى متاهات كانوا فى غنى عنها. وتلك لعمرى نعمة ومنة يمن بها الله عز وجل على من اصطفى من عباده. فمن شاء فليتأمل التاريخ وسير الملوك والحكام العادلين منهم والظالمين، وأى الدولتين أكثر طمأنينة وثقة بالنفس. ويقينى أن هذا هو الدافع الحقيقى وراء مبايعة المواطن المصرى لرئيسه الذى أتاح له أن يستعيد ثقته وإيمانه ببلده ووطنه بفضل رجاحة العقل وتدبير أمور الدولة بالشورى وبالرجال الذين أحسن اختيارهم، والذين عرفوا بالحنكة والواقعية السياسية، مما حال دون وقوع البلاد فى المآزق أو العثرات. وتلك خصلة المصرى الطيب المحتد الذى لايعرف الرعونة أو الغطرسة، وفى الخبر عن سيد البشر: «كما تكونوا، يولّى عليكم».

❖❖❖

شهادتان على العصر*

من عجائب المصادفات ومحاسنها أننى ما كدت أفرغ من قراءة ما كتبه د. عصمت عبدالمجيد فى كتابه القيم «زمن الانكسار والانتصار» حتى وجدت نفسى منكبًا مرة أخرى على مذكرات الأستاذ حلمى السعيد فى رائعته «شهادتى للأجيال» ولقد أحسن كل منهما صنعًا بإخراج مذكراته إلى النور ونشرها على الناس لكى يقفوا على ما جاء فيها من شهادات وأحداث شملت فترة من أهم فترات تاريخنا المعاصر بل وأخطرها وأشدها جدلا ومماراة، وغير خاف أن المذكرات الشخصية لرجال الدولة فى أنحاء العالم لعبت دورًا حاسمًا فى حفظ ذاكرة تاريخ الأمم والشعوب، فمذكرات تشرشل وديجول ونيكسون على سبيل المثال قد أصبحت مصدرًا أصيلاً من مصادر التاريخ المعاصر.

نحن فى مصر فى أشد الحاجة وأمسها إلى مثل هذه لمذكرات التى تظل رافدًا أساسيًا من روافد المراجع التاريخية التى تعاون الباحثين والمؤرخين والمفكرين، وتبصر الناس بحقائق الأمور وتداعياتها، والمذكرات التى كتبها كل من عصمت عبد المجيد، الدبلوماسى المخضرم، وحلمى السعيد، المهندس الضليع، وابتعادا عن الغوغائية والمهاترات السياسية فهى نابعة من شعور صادق بتوخى الحقيقة فى القول والعمل. فقد تبوأ كل منهما مناصب رفيعة، وعهد إليهما بمهمات حساسة فى زمن صعب كثرت حوله التكهنات والأقاويل. وعمل كل منهما فى صمت العلماء النابهين المدركين للمسئوليات التى كلفوا بها. وبكثير من التفانى وإنكار الذات وبعيدًا عن بهرج الحياة الصاخبة. ولم تقتصر مذكرات كل منهما، ومع اختلاف الموضوعات والسياقات العامة، على مجرد سرد وقائع أو أحداث أثرت على حياتنا ومستقبلنا، بل جاءت غنية بالتعليقات والاستنتاجات. ولمن عرف الرجلين وخبرهما عن كثب، يزداد ثقة فى أقوالهما وكتاباتهما، ولقد عايشت مع د. عصمت عبد المجيد فى باريس، وبحكم منصبى فى مكتب جامعة الدول العربية بباريس، والذى انتدبت إليه من وزارة الخارجية المصرية آنذاك، أحداث المعمعة الدعائية التى كنا مجندين لها منذ الساعات الأولى لقيام هذه الحرب التى أورثتنا الشعور بالانكسار والقهر. ويرى د. عبد المجيد أن هذا كان نتيجة سوء تقدير للقوى المعادية لمصر. غير أن الحقيقة المرة تقول إن الرئيس عبد الناصر قد

* جريدة الأهرام، ١٩٩٩/٥/٢٣.

خدع من الداخل (ولأسباب يطول شرحها) كما خذل من الخارج عندما سحب يوثانت الأمين العام للأمم المتحدة فى ذلك الوقت، القوات الدولية بكاملها من مضايق تيران، مما أفسح المجال أمام تحقيق مؤامرة الغرب ضده، وأتاح الفرصة للضربة العسكرية، وتحضرنى فى هذا المقام مقولة الكاتب الشهير «مايلزكوبلاند» فى كتابه المعروف «لعبة الأمم» من أنه يتعين علينا ألا ننظر إلى مواقف وقرارات زعيم كعبد الناصر بنفس نظرتنا إليه، فهو لم يكن بالزعيم العادى، ولم يكن شعب مصر بالشعب العادى كذلك..»

ولايسمح المجال فى هذه العجالة بمناقشة ماجاء فى هاتين الشهادتين، وإنما نترك ذلك لفطنة القارئ الكريم وطريقته فى التفكير الحر والحكم على الأمور. غير أننا قد لاحظنا عند قراءة هاتين الشهادتين أننا نقرأ لرجلين من أهل العلم والثقة معًا، وذلك بفضل ما أوتيا به من فكر سليم وشخصية قويمة.

إن متعة قراءة هاتين الشهادتين لا تعادلها متعة أخرى سوى التأمل فى تفاصيلها وقراءة ما بين سطورها واستشراف مقاصدها ورؤاها. ولاشك عندى أنه مازال فى جعبة كل منهما الكثير والكثير فى هذا المضمار وما خفى كان أعظم! وإننى أبتهل إلى الله عز وجل أن يمد فى عمرهما ويمتعهما بالصحة لكى ينهضا باستكمال هذه المهمة كنموذج وكمثال يحتذى لأجيالنا المعاصرة والقادمة من شباب مصر الناهض.



جمعيات أهلية أم منظمات غير حكومية..؟*

وسـواء علينا أن أطلقنا على هذه الكيـانات الطوعية هذا المسمى أو ذاك، فقد أسدل الستار مؤخرًا على هذا الموضوع وعلى التساؤلات التى أثيرت حول أهداف هذه المنظمات وطرق تمويلها وإدارتها، وذلك بفضل الجهود المشكورة والجادة التى بذلتها أجهزة الدولة طوال عامين لحل هذه المسألة المعقدة والتى تعتبر حديثة عهد بمجتمعنا. وبصدور قانون الجمعيات الأهلية غير الحكومية، فإن مصر تدخل عصرًا جديدًا من العمل الطوعى الديمقراطى الذى يتيح الفرصة أمام المجتمع المدنى للقيام بدور رئيسى فى المشاكل الإنمائية وإعمار البلاد على أسس من التعاون والتكافل والمشاركة. وتعتبر المنظمات غير الحكومية من أهم الآليات الحديثة لتنفيذ المشاريع والبرامج المدروسة على مستوى القاعدة للنهوض بمستويات معيشة المواطن فى المجتمعات المحلية وخاصة المحرومة منها. ويتوقف التعريف القانونى للمنظمات غير الحكومية على مفاهيم طبيعتها وأنشطتها، وهى بطبيعة الحال تختلف من بلد إلى آخر. وقد نشأت هذه المنظمات غير الحكومية وتطورت فى العالم الغربى بعد الحرب العالمية الثانية بغرض المساعدة على إزالة آثارها والمشاركة فى جهود التعمير من جديد. وتمثلت طبيعتها- ومازالت- فى العمل الطوعى الذى لايهدف إلى الربح أو التربح. وأصبحت ميزتها النسبية تتبلور فى اقترابها المباشر من الجماهير ومعرفتها الجيدة باحتياجاتها ومتطلباتها دون تعقيدات روتينية، ولذلك فقد تمتعت بدعم هيئة الأمم المتحدة ومنظماتها التى كثيرًا ما تعتمد على تعاونها ومشاركتها فى إنجاز أنشطتها فى البلدان المعنية. كما أنها تحظى فى جميع أنحاء العالم بالاهتمام لتحقيقها ذلك النوع من الفهم المشترك لتحسين أحوال الناس وصون مواردهم الطبيعية والبشرية. ولاشك أن دور هذه المنظمات غير الحكومية هو دور مطلوب ومستصوب فى مصر من أجل مشاركتها فى مسيرة التقدم والتنمية التى بدأتها بلادنا بخطوات واثقة. والرأى عندى أن هذه المنظمات غير الحكومية سترحب بالقانون الجديد الذى يساندها ويساعدها على تحقيق أهدافها ومراميها فى الإطار المرسوم لها والمتعارف عليه عالميًا، وطبقًا للقواعد والقيم السائدة عندنا، ووفقًا لأساليب الشفافية والمساءلة. وهذا كله يتطلب بدوره أن تتسلح هذه المنظمات بالفعاليات الإدارية والفنية، وأن تضم أفضل

* جريدة الأهرام ١٩٩٩/٦/٨.

الكفاءات والمهارات المشهود لها بالخبرة والدراية والنزاهة كيما تتمكن من توظيف المعارف توظيفًا سليمًا من أجل وضع مؤشرات واضحة لواقعنا الاجتماعى والاقتصادى والثقافى.

ولقد كان هذا هو هدفنا الذى وضعناه نصب أعيننا عند التفكير منذ خمس سنوات فى إنشاء المنظمة غير الحكومية «النهوض الاجتماعى- مصر»، والذى دخل حيز التنفيذ بعد دراسات مطولة ومراجعات مستفيضة ومتعمقة محليًا ودوليًا. وحفلت هذ المنظمة بعدد كبير من الشخصيات العامة العاملة فى حقل النهوض الاجتماعى، كما دعيت من طرف الأمم المتحدة للمشاركة فى عدد من المؤتمرات الدولية التى تعنى بالتنمية الاجتماعية وبصحة المرأة والطفل ومحو الأمية والسكان وغيرها من المؤتمرات ذات الصلة، بصفة مراقب، لحين تسجيلها رسميًا فى مصر، وهو الأمر الذى استعصى علينا، وحال دون قيامنا بتنفيذ خطة العمل المتواضعة التى وضعناها- وبعد جهد جهيد- بالاتفاق مع المنظمات غير الحكومية الدولية الشقيقة، واضطرنا إلى تجميد نشاط هذه المنظمة الوليد انتظارا للفرج!

والآن وقد وصلنا إلى حل مستنير لتكييف الأوضاع القانونية لهذه المنظمات غير الحكومية، فإننا نأمل فى استئناف نشاط منظمتنا بروح جديدة وبمؤازرة كل مصرى يرى فى نفسه الاستعداد الطبيعى والقدرة على الإسهام فى هذا العمل التطوعى النبيل الذى لايرمى إلى الربح فى حد ذاته وإنما يتوخى تحقيق أهداف سامية تتسم بالجدية والجرأة والتنزه عن الأغراض، وتعود بالنفع فى نهاية المطاف على جمع أبناء شعبنا الأبى بمختلف شرائحه وطوائفه، كى لا نتخلف عن الركب المتسارع الذى يسود عالم اليوم..



مصر ورهان العولمة*

لاشك أن المناخ الصحى الذى تعيش مصر فى ظله حاليًا، يتيح لنا إمكان طرح مشاكلنا مع العولمة، إن وجدت، بكل شجاعة وحرية، وهى فرصة ذهبية للانفتاح على العالم دون التفريط فى هويتنا أو تقاليدنا أو عقائدنا الثابتة، ومن المستحيل فى خضم هذه العولمة أن نطالب الدولة بتصحيح ما فات دون مساندة حقيقية من جموع المواطنين، فالدولة تقوى بقوة المواطن كما أن المواطن يقوى بقوة الدولة، وذلك عندما ينجحان معًا فى المحافظة على وحدة الأمة التى لا خوف عليها حينئذ من أى صراع للمصالح أو الطبقات مادامت روح المواطنة هى السائدة.

ولقد نجح الغرب فى التصدى للعولمة ولهجومها، ولاسيما بعد سقوط حائط برلين منذ عشر سنوات، بفضل إنشاء التكتلات والاتحادات السياسية والاقتصادية والعسكرية، مع التنسيق الوثيق لسياسات الدول الكبرى، ومع العمل المتواصل على استعادة المجتمع المدنى ومؤسساته لدوره البارز، ومع سن التشريعات الملائمة للتأقلم مع آثار العولمة، وقد أسفر كل ذلك عن نتائج ملموسة بالنسبة لأرقام التجارة المالية التى ارتفعت منذ عام ١٩٩٠ بمعدل ثلاثة أضعاف الناتج الإجمالى العالمى، ووصلت المعاملات منذ ذلك إلى رقم مذهل قدره ١٨٠٠ مليار دولار أمريكى يتداول يوميًا على مستوى كرتنا الأرضية!.

وهذا التقدم الهائل الذى يجرى من حولنا يحتم علينا الإسراع بإعادة بيتنا المصرى من الداخل، فى جميع المناحى السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية .

فمن الناحية السياسية، يأتى فى الصدارة تفعيل دور الأحزاب والنقابات ومنظمات المجتمع المدنى، وإرساء قواعدها على أسس الشرعية والكرامة الإنسانية والحقوق والواجبات. ويلى ذلك فى الأهمية عملية محاربة البيروقراطية بشكل جذرى حتى لا تشكل عائقًا سلبيًا أمام التصحيح الهيكلى لمؤسسات الدولة. وإنما تزدهر البيروقراطية وتعيث فى الأرض فسادًا عندما تضعف السلطات السياسية وتنحسر قوتها أمام جبروت هذه البيروقراطية وسطوتها، مما يجعل الحياة السياسية مجرد واجهة للتمويه على الواقع الحقيقى الذى يعيشه المواطن.

وأما على الصعيد الاقتصادى، فالأمل معقود على قيام السوق العربية المشتركة، فهى ملاذنا الوحيد أمام ضراوة الأسواق العالمية. وإلى أن يتم ذلك بالمصارحة والمصالحة،

---

* الأهرام الدولى ١٩٩٩/٧/٩.

فإننا فى مصر مطالبون بممارسة الضوابط المالية والتجارية كإجراءات فورية لإيقاف أى نزيف مالى أو اختلالات تجارية، وهو الأمر الذى عانت منه فى السابق بلدان آسيوية كثيرة كنا نطلق عليها من فرط نجاحها الاقتصادى «النمور الآسيوية» والشىء الوحيد الذى قد تتحطم العولمة على صخرته فى مصر- بل وفى العالم العربى بأجمعه- هو ثقافتنا العربية التى نبعت وتطورت نتيجة تفاعلها مع الثقافات والحضارات الأخرى، والتى تأسست على قيم أخلاقية ودينية لاتتزعزع. ويصدق ذلك صراحة على مصر التى كانت دائمًا بوتقة انصهرت فيها الحضارات والثقافات والأديان، ومما لاشك فيه أن هذا سيلقى على مثقفينا ومفكرينا ورجال إعلامنا بخاصة عبء مهمة مزدوجة. فعليهم أولا التعريف بثقافتنا وحضارتنا وعرضها عرضًا سليمًا- وبكل حقائقها وثوابتها- فى الداخل والخارج. وأن يثقوا ثانيًا فى جميع الثقافات الأخرى دون تقوقع أو اعتزال. فالاختلافات بين الثقافات هى التى تسمح بتوسيع نطاق المفاهيم وإثرائه، وهى تفتح الباب لتطورالإنسانية الثقافى مرحلة فمرحلة، وينبغى لثقافتنا العربية الإسلامية أن تبقى حية، أى أن تكون قادرة على التطور بواسطة الاحتكاك بالثقافات الأخرى دون تمييز أو تحفظات أو أفكار مسبقة، والأهم دون خضوع أو خنوع.

ويقودنا هذا إلى الناحية الاجتماعية التى فطن العالم إلى أهميتها بوصفها المدخل إلى التنمية الشاملة القائمة على منظومة متناسقة من التكافل والمساواة وتقاسم المسئوليات والخيارات، ومع حماية البيئة وصون الموارد الطبيعية.

ولايمكن فصل هذه الجوانب عن بعضها البعض، فكلها تصب فى خانة التوازن بين علاقات البشر، ونشر مفاهيم المصالح والمثل العليا التى تشدد على إتقان العمل والإحساس بقيمة الوقت والكفاءة والتميز، وهنا يصبح التعليم -بمختلف مراحله- الحجاب الحاجز والدرع الواقية لنا من الاختراقات أو التشوهات، وهو الذى سيحقق لنا الانطلاق نحو آفاق جديدة من العلم والمعرفة، وسينمى فينا ملكة الابتكار والإبداع، وسيدفعنا إلى تجديد حيوية لغتنا العربية وحسن توظيفها فى قضايانا الحياتية المعاصرة، مما يكفل تعزيز تمسكنا بهويتنا الخاصة لاسيما ونحن أمة فطرت على الإيمان والقيم الأخلاقية الرفيعة.

وأخيرًا وليس آخرا، أريد أن أشدد هنا على بديهية من البديهيات التى قد تغيب عن بالنا وهى أن هذه التحديات التى تواجهنا فى هذا العصر، ليست بالضرورة من إفرازات العولمة وحدها، ولكنه أيضًا نتيجة طبيعية لعملية التطور الحتمية التى هى سنة الله فى خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلا..

بناء الإنسان المصرى*

بعد أيام قلائل سنكون قد احتفلنا بالمبايعة المباركة الجديدة، وسنكون بذلك قد انتقلنا من نشوة الفرحة إلى عزيمة العمل من أجل مستقبل جديد. فبعد أن قمنا ببناء المشروعات الكبرى- أو العملاقة كما يحلو للبعض أن يصفها- والتى ينتظر أن تؤتى أكلها بإذن ربها بعد عقد أو عقدين من الزمان، فإن قضية بناء الإنسان المصرى المعاصر تعد فى الوقت الراهن من القضايا الملحة التى تكتسى أهمية بالغة نظرًا لتعدد أبعادها وتنوع جوانبها، فضلاً عن أنها تعتبر قضية القضايا بالنسبة للإنسان المصرى. فقد جمع الله سبحانه وتعالى فى هذا الإنسان المصرى كل القوى والخصائص: قوى بسائط العالم ومركباته، وروحانياته، وجسمانياته ومبدعاته ومكوناته، وهو فى ذلك لايختلف عن أى إنسان آخر على ظهر البسيطة، وإن كان يفوقه بتاريخه العريق وجغرافيته الفريدة. ولذا وجب علينا إيلاء هذا الإنسان المصرى مايستحقه من رعاية واهتمام للمحافظة على تفرده وأصالته.

ونود فى البداية أن نشدد على أن القصد هنا لايرمى إلى إجراء فحص نقدى ارتجاعى لمجتمع الإنسان المصرى وطرائق تشغيله سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا واجتماعيًا، فهذا موضوع طويل ومتشعب. كما أننا لا نسعى إلى إصدار أحكام تقييمية أو الدعوة إلى ظهور «المدينة الفاضلة» مرة أخرى. وكل ما نهدف إليه هو لفت النظر إلى ضرورة بناء الإنسان المصرى لكى يحيا عصره بكل ما فيه من جمال وجلال، ومن حلو ومر، وبكل ما يعج به من أفكار ونظريات. فالعالم أصبح اليوم لايلوى على أحد ممن فاته القطار، ولايقيم وزنًا إلا لمن كان مسلحًا بنظرة أخرى نحو حياته، وبمفاهيم جديدة نحو مجتمعه ووطنه وعالمه.

ولا أشك لحظة فى أن ولاة الأمور عندنا هم على علم تام وإدراك سليم بما يحتاجه الإنسان المصرى، فمصر والحمد لله غنية برجالاتها ومفكريها فى جميع المجالات والميادين، ويكفينا اكتشاف مواهبهم وكفاءاتهم كيما تستقيم الأمور وتسير فى مجراها الطبيعى. ولذا فإن الحديث هنا سينصب على الإشارة إلى ركيزتين أساسيتين من ركائز هذا البناء للإنسان المصرى وهما:

---

* الأهرام الدولى ١٩٩٩/٧/٢٤.

حالة التعليم، والواقع السياسى- الاجتماعى. فمنظومة التعليم: المعلم والمدرسة والبرامج، والتى قطعت شوطًا لابأس به، تحتاج إلى مراجعة شاملة لإعلاء شأن لغتنا العربية وتاريخنا وحضارتنا. ولن يتأتى ذلك إلا بحسن اختيار المعلم وتأهيله للقيام بهذه العملية الحيوية. فالمعلم هو الهادى والناصح والمرشد فى مراحل الصغر والشباب، وعليه يتوقف - وفى كثير من الأحيان- مستقبل الإنسان المصرى، بل وربما نجاحه أو فشله فى الحياة.

أما الحالة السياسية- الاجتماعية، فحدث عنها ولا حرج! فهى بمثابة حجر الزاوية فى بناء الإنسان المصرى، كما أنها المعيار الذى ستتحدد على أساسه قدرته على الانطلاق والخلق والابداع، والحالة السياسية- الاجتماعية فى مصر تستدعى نوعًا من «الانقلاب» الحقيقى كيما تنجح فى استحداث جو مناسب من الديمقراطية غير المزيفة، القائمة على حرية التعبير والتعددية وتعزيز النقابات المهنية وغيرها من مؤسسات المجتمع المدنى وإفساح المجال أمام الأجيال الشابة، واحترام الآخر.. إلخ.

ولا غرو أن كل هذا سيتطلب بدوره الكثير من الإجراءات الجسورة والحكيمة، ويحتاج إلى تغيير نوعية الرسالات والمنهجيات والاستراتيجيات بحيث تتماشى مع أهداف الولاية الجديدة التى ستعبر بنا إلى القرن القادم، وبحيث تكون على مستوى تطلعات المبايعين وآمالهم فى العيش فى مصر الديمقراطية والحرية والإخاء«وما ذلك على الله بعزيز». فمصر الكنانة قد حباها الله عز وجل بكل مقومات القوة والعزة: الأرض والناس والمناخ والنيل العظيم. ولا نغالى إذا ما قلنا إن موضوع بناء الإنسان المصرى يحتاج إلى عدة مجلدات لكى نفيه حقه، ولكننا نكتفى بهذا القدر عملا بالمثل القديم: خير الكلام ما قلّ وجلّ ودلّ ولم يُمل ، أى لم يبعث على الملل..!



استدعاء السفراء في الأعراف الدبلوماسية*

جرى العُرف فى العلاقات الدبلوماسية بين الدول على اعتبار قرار استدعاء السفراء عند حدوث الأزمات أو وقوع مناوشات عدائية تضر أحد الطرفين، بمثابة خطوة أولى تتلوها خطوات أخطر وأهم، مثل سحب السفراء وقطع العلاقات الدبلوماسية بالكامل. وقد اتخذت مصر قرارها الحر باستدعاء سفيرها من إسرائيل بعد صبر طويل والتحلى بالحكمة المحمودة، وذلك احتجاجًا على الاعتداءات الإسرائيلية الوحشية ضد شعبنا العربى فى فلسطين، معلنة بذلك رفضها القاطع للتصعيد العسكرى الغاشم، ومصر لم تتخذ هذه الخطوة إلا بعد أن طال الصبر ونادت الحكمة- بل والمصلحة- بضرورة اتخاذها كرسالة واضحة إلى العدو الصهيونى لعله أن يزدجر. فمصر التى وقعت معاهدة سلام مع إسرائيل منذ أكثر من عقدين، لم تلجأ إلى هذا القرار منذ عام ١٩٨٢، إلا بعد أن زاد الطغيان الأعمى وتجاوزه لجميع الحدود والخطوط الحمراء. فللصبر حدود- كما يقولون- فقد انتظرت مصر طويلاً لعل إسرائيل أن ترعوى عن اقتراف أعمالها العدوانية وأن توقف ارتكاب الجرائم الآثمة والبشعة ضد الشعب الأعزل فى فلسطين. وقامت مصر طوال هذه الأزمة التى افتعلتها إسرائيل فى سبتمبر الماضى، بدور دولي وإقليمى اتسم بالإيجابية والفعالية، ولم تتوان لحظة واحدة عن بذل الجهود المضنية وتحمل المسئوليات الضخام لوقف نزيف دماء شهدائنا الأبرار فى فلسطين، وردع الغطرسة العسكرية الإسرائيلية، انطلاقًا من مركزها القيادى الذى تحتله فى معركة تحرير فلسطين، وإيمانها بضرورة توطيد أركان السلم والأمن العالميين، ولم تقف أبدًا مكتوفة الأيدى أمام تصعيد العدوان الإسرائيلى السافر، وحشدت كل قواها ووظفت كل صداقاتها مع شعوب العالم كافة للحيلولة دون تفاقم الأوضاع واندلاع الحروب التى ذاقت مرارتها والتى لم تخلف سوى الدمار والخسائر البشرية الباهظة.

ورغم ذلك لم تحاول إسرائيل التقاط هذا الخيط الرفيع من الأمل والتعاون مع أيادى السلام فى سبيل خروجها من هذه الورطة، ولقد صرح حكام إسرائيل عقب صدور الأمر باستدعاء سفيرنا من تل أبيب، بأن هذا القرار يعتبر أمرًا جللاً وخطيرًا، وأعربوا عن أسفهم لاتخاذه. ولا تعليق لنا ولا تعقيب على هذه الأقوال المعسولة

---

* الأهرام الدولى ٢٨/١١/٢٠٠١.

والتصريحات الجوفاء، فإسرائيل وحدها تعى تمامًا خطورة هذا القرار وفداحته وتداعياته على مجريات الأمور فى المنطقة، ربما عاجلاً أو آجلاً، ولكننا نأسف أشد الأسف لأن العقلية الإسرائيلية مازالت على ماهى عليه ولم تتغير أو تتبدل، ويبدو أنها لم تتعلم من تجارب التاريخ وحقائقه، فهى قد ضربت عرض الحائط بكل الاتفاقيات التى وقعتها، وظلت تتمادى فى غيّها وغرورها من منطلق قوتها العسكرية الصاروخية والنووية التى تحاول بها ترويع شعوبنا العربية والإسلامية لتحقيق حلمها بإقامة دولة إسرائيل على أرض لاتملكها! وهى كذلك تعلم تمام العلم بأن قوتها لن تنجح فى إخضاع الشعب الفلسطينى الأبى وإخراجه من أرضه.

لقد فاض الكيل بمصر، ولكن أم الحضارات لم ينفد صبرها بعد، وهى مازالت وبعد استدعاء سفيرها من إسرائيل- تحافظ على «شعرة معاوية» مع الكيان الصهيونى لعل وعسى أن تعود إسرائيل إلى صوابها ورشدها وأن تفهم هذه الرسالة جيدًا قبل فوات الأوان وانفلات الزمام.



متطلبات العولمة*

لقد أصبح الحديث عن العولمة من الناحية النظرية أمرًا يبعث على الملل، وهو لا يثير فى المشاعر ما يثيره الحديث عنها من الناحية العملية، أى كيفية الوصول إلى حلول ملموسة للتعامل مع هذه الظاهرة، ولذا فإننا سنحاول فى هذه العجالة استكشاف أفضل الطرائق وأمثل السبل لمواكبة تداعيات العولمة وإرهاصاتها. وسنسعى إلى رسم خريطة مبسطة لما ينبغى عمله فى مصر لاستيعاب تحولات العولمة، وإعداد العدة لمواجهة هذه التحولات، فالتحوط للعولمة ومنها ليس ببدعة، بل هو مطلوب ومستصوب ولتنظر إلى الغرب نفسه (أوروبا وأمريكا)، وهو مصدر هذه العولمة ومصدِّرها، فقد ارتفعت فيه الأصوات المضادة للعولمة ولآثارها السلبية على الحياة الاقتصادية والثقافية، خاصة لدى الشرائح المتوسطة التى تشكل العمود الفقرى لهذه المجتمعات الغربية، وذلك بعد أن فطنت إلى طمس هويتها ووقوعها فى قبضة اقتصاد السوق المتعولم، مما بات يهدد حقوق المواطن العادى، ولقد شرعت أمم شتى فى مراجعة تشريعاتها ونظمها الداخلية لمواكبة العولمة واللحاق بركبها المتسارع، ونحن فى مصر ليس أمامنا سوى خيار واحد يقتضى منا العمل فورًا على ترتيب البيت من الداخل بنظرة جديدة تأخذ بعين الاعتبار كل المتغيرات والمستجدات، فجغرافيتنا وتاريخنا يفرضان علينا اليقظة والفطنة وأخذ مثل هذه الأمور مأخذ الجد، وهذا يستوجب اتخاذ إجراءات فورية تتناول مختلف جوانب حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

وفى رأيى أن أول هذه الإجراءات على المستوى السياسى يتمثل فى: تطبيق اللامركزية تطبيقًا سليمًا، فتفويض السلطة إلى الحكومات المحلية يعتبر من الأولويات لتحسين كفاءة الخدمات العامة وتوفيرها لجموع المواطنين بسهولة ويسر، والقضاء على البيروقراطية البغيضة، وكل هذا فى نهاية المطاف سيعزز عملية الديمقراطية القائمة على سيادة الشعب وعلى دعم المجتمع المدنى ومنظماته، وهو ما يشكل فى يومنا هذا عنصرًا مهمًا فى بناء الدولة الحديثة، أما من الناحية الاقتصادية -وهى الأكثر تعقيدًا وحساسية- فيتعين علينا ضبط وتنظيم اقتصادنا الخاص بنا دون التقيد بأى تعليمات تفرض علينا من الخارج، فأهل مكة أدرى بشعابها، ولابد من ممارسة الضوابط المالية ككوابح فورية لإيقاف النزيف المالى والاختلالات الاقتصادية الكلية، وقد أرجع مؤرخنا

* الأهرام الدولى ٢٠٠٠/١٢/٨.

المقريزى فى كتابه الفريد (إغاثة الأمة بكشف الغمة) هذه الاختلالات الجارية فى مصر فى عهده إلى ثلاثة أسباب لارابع لها على حد قوله نلخصها هنا على الوجه التالى: «فالسبب الأول هو الرشوة فهى أس الفساد والخلل، مما زاد من غباوة أهل الدولة والإعراض عن مصالح العباد.. والانهماك فى اللذات لتحق عليهم كلمة العذاب. أما السبب الثانى فهو غلاء الأطيان (أى الأراضى الزراعية) فخربت بذلك معظم القرى وتعطلت أكثر الأراضى عن الزراعة: وكان السبب الثالث فى نظره هو رواج الفلوس وكثرتها فى الأيدى لشراء الأمور الحقيرة -يقصد الكماليات طبعًا- فقط دون شراء أى شىء جليل البتة، وإنه تبين أن الحال فى فساد الأمور إنما هو سوء التدبير لإغلاء الأسعار، وأن هذا يرجع إلى فساد نظر من أسند إليهم النظر فى ذلك وجهلهم بسياسة الأمور، وهو الأكثر فى الغالب، وتليه الحوائج التى تصيب الأشياء، انتهى كلام المقريزى... وأنا أدعو الجميع إلى التفكير فيما أورده مؤرخنا العظيم فى القرن الخامس عشر الميلادى من أسباب لم تفقد مصداقيتها حتى يومنا هذا!

أما على الصعيد الاجتماعى فهو فى نظرى أهم الجوانب التى لو نهضنا بأسبابه لاستطاع الشعب المصرى أن يستقبل العولمة بروح جديدة وعقلية متفتحة، وأول هذه الأسباب: العمل على محو الأمية الوظيفية والثقافية، ولن يتأتى ذلك إلا بفضل منظومة من المعايير والقيم التى تقوم على التكافل والمساواة وتقاسم المسئولية، وإتقان العمل، والإحساس بقيمة الوقت والكفاءة والامتياز والنزاهة.. وهذه تبدأ كلها من المدرسة!

أما من الناحية الثقافية، فإن نظرية العولمة لن تتحطم فى نظرى إلا على صخرة تعدد الثقافات والتقاء الحضارات، لاتصادمها أو تضاربها، فليس فى استطاعة أى إنسان أن يتبرع بتقسيم العالم وتاريخه إلى حضارات متضاربة وإلى حلبة للصراعات، متجاهلاً بذلك أوجه التفاعل بين هذه الحضارات. ومصر بصورة خاصة لاتعرف صدام الحضارات، فهى كانت ومازالت البوتقة التى انصهرت فيها الحضارات والثقافات والأديان، وهنا يبرز دور المثقفين فى التعريف بثقافتنا وحضارتنا العربية الإسلامية، وتوصيلها إلى العالم الخارجى بكل حقائقها وثوابتها، فقد أصبحت الهيمنة (أى العولمة) فى عصرنا الحاضر ليست هيمنة جغرافية أو عسكرية فحسب، بل وثقافية وعلمية وتكنولوجية كذلك، وكلها أمور تحتاج إلى الانطلاق نحو آفاق جديدة هى آفاق التقدم والعلم والمعرفة، دون تهوين أو مغالاة، ودون فصل لهذه الجوانب عن بعضها البعض، فكلها تصب فى خانة التوازن بين الواجبات والحقوق، وأى إخلال بهذا التوازن قد يوقعنا فريسة سهلة للعولمة.

مصر وأصولها العربية*

عرف العرب «مصر» ورسخت فى أذهانهم منذ نزول القرآن الكريم على رسولنا النبى المصطفى ﷺ فقد جاء فى هذا الكتاب المكنون عدة آيات فى أخبار مصر أوردها المؤرخون كابن زولاق وابن إياس وغيرهما فى مؤلفاتهم، فقد قال ابن زولاق فى كتابه «فضائل مصر وأخبارها» إن الله سبحانه وتعالى ذكر مصر فى ثمانية وعشرين موضعًا، وقيل بل أكثر من ثلاثين موضعًا، كناية وتصريحًا، أما ابن عباس رضى الله عنهما، فقد قال: سميت مصر بأرض فى عشرة مواضع من القرآن العظيم، وقيل ذكرت فى اثنى عشر موضعًا من القرآن. فمن ذلك قوله تعالى: **﴿اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم﴾** وقوله تعالى: **﴿وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته، أكرمى مثواه﴾** وقوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: **﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾** وقال الله عز وجل حكاية عن فرعون **﴿أليس لى ملك مصر، وهذه الأنهار تجرى من تحتى، أفلا تبصرون﴾**..

وقد أكدت الأحاديث الشريفة فضائل مصر، ومنها ما أخرجه عبد الرحمن بن عبد الحكم فى «فتوح مصر وأخبارها» أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها خيرًا، فإن لكم منهم صهرًا وذمة»**، فى رواية: **«فإن لهم نسبًا وصهرًا»**، وكان المقوقس عظيم القبط فى مصر، أحد الملوك الذين بعث الرسول عليه السلام برسائله إليهم لكى يدعوهم إلى الإسلام، وما كان من المقوقس إلا أن رد على رسول الله بكتاب جاء فيه: «من المقوقس، عظيم القبط، إلى محمد بن عبد الله، السلام، أما بعد، فإنى قد قرأت كتابك، وفهمت ما فيه، مما قد تدعوننا إليه من الإسلام، وقد علمت أنك نبى مرسل، وأنت خاتم الأنبياء، وقد أكرمت رسولك غاية الإكرام، وبعثت إليك على يده هدية».

وعندما أذن سيدنا عمر بن الخطاب فى سنة ١٨ هـ (٦٣٩م) وفى نهاية المطاف لعمرو بن العاص بفتح مصر، وهو الذى كان قد دخلها فى الجاهلية وعرف طيب تربتها وخصوبة أرضها ومقدار ثروتها وخيرها، فقد تحقق له حلمه بأن يرى مصر ولاية عربية إسلامية، ومن هنا بدأت موجة الهجرة العربية إلى مصر، واستحضر كل حاكم عربى معه أو استدعى إليه أهله وعشيرته، وكان سكان مصر وقت الفتح العربى كما هو

* الأهرام ٢٠٠١/٢/٢٧.

معروف أخلاطًا من مختلف الأجناس من أقباط وروم وأكراد وأحباش وديلم، ورغم قلة عدد العرب الفاتحين بالنسبة لأهل البلاد، إلا أنهم قد عملوا على إقامة مدنية عربية إسلامية وسط هذا المحيط المصرى القائم، وعدلوا عن اتخاذ الإسكندرية -حاضرة مصر زمن الرومان- عاصمة لهم، وأسسوا مدينة الفسطاط التى أصبحت حاضرة لمصر العربية واتخذت كل قبيلة من القبائل التى دخلت مصر خطة لنفسها، وعرفت كل خطة باسم القبيلة التى نزلت بها، وبطبيعة الحال فقد سكن مع هؤلاء العرب أقوام من أصل فارسى أو رومى أو يهودى ولكن هؤلاء كانوا أقلية، أما الأكثرية التى سكنت تلك الخطط فكانت من العرب، وخاصة عرب الجنوب أو اليمنية، وظل العرب يحتفظون بسنبهم لقبائلهم حوالى قرنين من الزمان، ولكن خلال القرن الثالث الهجرى حل اسم الجهة أو الإقليم الذى ينتمى إليه الشخص محل اسم القبيلة، ومنذ عهد المعتصم العباسى فقد العرب مركزهم فى الدولة الإسلامية على أثر ازدياد نفوذ الأتراك، وإسقاط المعتصم للجندى العربى من ديوان الجيش، فانتشر العرب فى ريف مصر واختلطوا بالمصريين، بل واشتغلوا بالزراعة والتجارة والصناعة وغيرها من الأعمال التى كانوا يترفعون عنها من قبل، وكان ذلك عاملاً جوهريًا فى الاتجاه التدريجى نحو الاستقرار والتحول من الرعى إلى الزراعة، وتم تشجيع القبائل على هذا الاستقرار بواسطة سياسة «العطاء» وهى المساعدات والمنح المالية المباشرة.

وفى أواخر المرحلة العربية فى مصر، انزوى العنصر العربى على هامش السلطة وضعف مد القبائل الوافدة، ولكن الدولة الفاطمية، وهى أصلاً من العرب والبدو، جاءتهم بعصر ذهبى جديد، فكثرت القبائل الداخلة واتسعت أملاكها وزادت ثرواتها، ثم كانت الدولة الأيوبية بمثابة مرحلة انتقال لينة لوضع القبائل العربية بمصر، حيث عامل صلاح الدين الأيوبى البدو العرب بحزم وقوة بقصد تحييدهم فى الصراع ضد الصليبيين، على أن نقطة التحول الحقيقية فى وضع وحال القبائل العربية كانت بلا ريب بداية العصر المملوكى فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، فقد رفض العرب حكم المماليك باعتبارهم عبيدًا لا أحرارًا، واعتبروا أنفسهم أصحاب مصر الحقيقيين، وأنهم أولى بالحكم، بينما نظر المماليك بدورهم إلى هؤلاء العرب باعتبارهم أجانب وجسمًا غريبًا عن مصر مثلهم لا أكثر، كما يقول مؤرخنا المقريزى، وهكذا انكسرت شوكة العرب فى عصر المماليك وانحطت هيبتهم وقلت أعدادهم إلى أدنى حد، بل وترك بعضهم مصر نهائيًا إلى الجزيرة العربية أو السودان أو المغرب، وانسحب البعض

الآخر من وادى النيل إلى أعماق الصحراء، والبعض الآخر تحول إلى الزراعة واستقر نهائيًا، فقد كان الخيار في النهاية هو إما بين بداوة مضطهدة أو استقرار مقبول. هذه وبإيجاز شديد هي المراحل التى مرت بها الموجة العربية فى مصر، ويمكن القول إذا ما أردنا تقييمًا شاملاً لدور هذه الموجة ووزنها فى تكوين مصر البشرى، أنه إذا كان العرب قد عربوا مصر ثقافيًا وأسلموها دينيًا، فإن مصر قد مصرتهم جنسيًا، وتحول التعريب إلى تمصير، أى تمصير العرب، غير أننا ينبغى لنا أن ننظر إلى الفتح العربى والهجرة العربية إلى مصر كعمل نادر خارق، لأن العرب إذا كانوا قد عربوا مصر لغويًا ودينيًا. فقد مصرتهم مصر حضاريًا وماديًا مع استمرار الإسلام واللغة العربية لغة القرآن الكريم. وهما يشكلان القوة الجاذبة المركزية لأهل مصر بعامة.

❖❖❖

ب- فى العالم العربى

جامعة الدول العربية وآليات التطوير*

تبدلت الحال وأصبحت الدنيا غير التى شهدت بزوغ الجامعة العربية عام ١٩٤٥، وظهرت عدة أمو جديدة لم تكن فى الحسبان نذكر منها :

على المستوى العالمى: محاولة إيجاد نظام عالمى جديد، انحسار المعسكر الشيوعى، وما نتج عن ذلك من ظهور نزعات التعصب والقبلية فى أبشع صورها والمتمثلة فى التطهير العرقى، ونذكر أيضًا علو نبرة صراع الحضارات التى تستهدف الحضارة العربية الإسلامية.

وعلى المستوى العربى نذكر:

- انتقال فلسطين من وضع «الانتفاضة» إلى وضع «التنمية الشاملة» والصعوبات التى تعترض ذلك.
- المناداة بسوق شرق أوسطية.
- تشكيل التجمعات الإقليمية العربية التى كادت تسحب البساط من تحت أقدام الجامعة العربية.
- وفوق كل هذه الأمور وذاك، حالة التشرذم والفرقة التى يعانيها عالمنا العربى بعد حرب الخليج.

كل هذه الأمور تؤكد صدق حتمية تطوير الجامعة العربية وتدعو إلى تزويدها بالإصلاحات الجذرية لكى تتصدى للمتغيرات الدولية ولكى تصبح ندًا للتكتلات الجديدة بل وشريكة لها فى دفع عجلة التقدم فى العالم العربى خاصة، والعالم الكونى الجديد عامة. وأول ما تدعو إليه هذه الحتمية ضرورة اعتماد الجامعة العربية على شعوبها وعلى قواعد هذه الشعوب العريضة، وعدم الركون إلى الحكومات وإلى القرارات الصادرة من أعلى. وهذا يستدعى بدوره تعديل الهياكل وتغيير أساليب العمل، واستحداث آليات جديدة نقترح منها على سبيل المثال:

---

* الأهرام الدولى ١/ ١٩٩٥/٣.

١- مجلس شورى القرارات، والغرض منه تمثيل شعوب الدول العربية بالانتخاب المباشر، على أن تغطى صلاحياته جميع المجالات المتصلة بأنشطة الجامعة، وإصدار القرارات والمقررات الإجرائية والسهر على تنفيذها طبقًا لنظامه الأساسى.

٢- مجلس المندوبين المفوضين: وهو يتكون من مندوبى الدول العربية الرسميين الذين سيشكلون الجهاز الرئاسى للجامعة، وسيتولون رئاسة مختلف القطاعات مثل قطاع السياسات أو القطاع الاقتصادى أو الثقافى أو الاجتماعى إلخ، بحيث يصبح «العقل المفكر» للأمين العام.

٣- مجلس الحكماء: وهو يتكون من عدد من قدامى رجال القضاء والمحاماة المشهود لهم بالكفاءة والنزاهة فى بلادهم. ويجتمع بتكليف من الأمين العام لفض المنازعات بالطرق السلمية التى قد تنشب بين أعضاء الجامعة العربية، والقيام بالمساعى الحميدة لهذا الغرض.

وهذه الاقتراحات هى بعض من كل، وهى دون شك مجرد أفكار تحتاج إلى المزيد من الدراسة المطولة والمتعمقة للوصول إلى صيغة عصرية مقبولة للعمل الجماعى العربى فى إطار جامعتنا العربية التى نعتز ونفخر بها. ولن يتأتى ذلك إلا إذا خلصت النوايا وتوافرت الإرادة السياسية.

❖❖❖

بؤس الثقافة السياسية*

تكتسب قضية النخب العربية أهميتها من حقيقة تعرضها لصميم ما عانته الأمة العربية من انتكاسات طوال عدة عقود فضلاً عن أنها تعالج بذكاء شديد جوهر الإشكاليات العربية التى مازالت تطفو على السطح.

وقد ثارت هذه القضية فى الأيام الأخيرة وتناول الحديث عنها مقولات المدارس العربية السياسية والفكرية وغيرها من المقولات الأخرى التى أوردتها مقالات «الحوار القومى».

ولن تسمح هذه العجالة بالإسهاب فى هذه القضية المتشعبة الأطراف والجوانب، ولذا فإننا سنقتنع فى هذا المقال بتناول جانب واحد منها هو الثقافة السياسية لهذه النخب. وقبل الخوض فى تفاصيل هذه الثقافة السياسية، سنحاول إيراد تعريف موجز لها تفاديًا لأى خلط أو بلبلة. فالثقافة السياسية باختصار شديد هى البوتقة التى تجمع بين مزيج من الإرث التاريخى للشعوب من جهة وبين التيارات الحديثة للتاريخ من جهة أخرى ولا يتسنى تقصى عناصرها وترسباتها إلا بالرجوع إلى هذين الرافدين:

أما بالنسبة للرافد الأول: أى الإرث التاريخى للشعوب العربية، فمن نافلة القول التحدث عن حضارتنا العربية الإسلامية فى أوج مجدها وهى حضارة كانت ومازالت منبع فكرنا وتقاليدنا، والواضح أن النخب العربية قد تجاهلت -عن عمد- أو عن غير عمد - خصائص هذه الحضارة ومقوماتها لبعدها عن أذهانها بسبب ما تواتر على عالمنا العربى من أحداث ومجريات دمغتها بالحضارة السلفية. وتشبثت هذه النخبة عن قصد بالمأثورات السياسية العثمانية التى سادت التاريخ الحديث حيث كانت السلطة محصورة بين يدى سلطان مستبد يحكم بمساعدة جهاز بيروقراطى عسكرى ضخم، يشكل أفراده الطبقة الحاكمة، ولم يكن لسائر المجتمع من «رعايا» مسلمين أو غير مسلمين أى دور فى الحكم. وهذا النظام هو الذى أفضى إلي السقوط التدريجى للامبراطورية العثمانية، بالإضافة إلي عوامل أخري كثيرة منها اشتداد الصراع بين أفراد النخب الحاكمة ذاتها رغم سيطرة نخبة الدولة بلا منازع. ولم تتخلص النخب العربية فى تاريخنا الحديث المعاصر من الميول والآراء التسلطية التى ورثتها عن النظام العثمانى رغم التحولات والتغييرات المذهلة التى طرأت على العالم من حولها.

واستطرادا من هذا التفكير نصل إلى الرافد الثانى من الثقافة السياسية والمتمثل فى التيارات الحديثة للتاريخ، وبالتحديد فى التيار الديمقراطى، وقد تقاعست النخب العرية

* الأهرام الدولى ٢٦/ ٤/ ١٩٩٥.

عن مسايرة هذا التيار أو التكيف معه والاستفادة منه فى بلداننا العربية، وتحللت بذلك من أى التزام ديمقراطى أو بالأحرى لم تلتمس ذلك لسبب بسيط يرجع فى أساسه إلى أن معتقداتها ومواقفها وقيمها «إن وجدت» لم تكن تساعدها على فهم الديمقراطية واستيعاب غاياتها ودروسها حيث لا مصلحة لها فى انتشار التعاليم الديمقراطية بأى حال من الأحوال لتنافيها مع أطماعها وتطلعاتها الشخصية، وإن كانت هذه النخب قد حاولت استلهام التيارات الحديثة للتاريخ، فإنها مالت بطبيعة الحال إلى تيار النظام الشمولى الذى ساد المعسكر الشرقى وذلك لقربه وتطابقه مع توجهاتها وطرق تفكيرها.

وعلى هذا فإن الثقافة السياسية هى التى عليها المعول وهى بيت القصيد بالنسبة لتداعيات الأمور ومجرياتها فى العالم العربى المعاصر، وأن انعدامها إنما يعنى انتفاء الاعتدال والتسامح والثقة والمعرفة والمشاركة، وكلها أمور تشكل فى حد ذاتها القيم والتوجهات السيسية التى تتطلبها الديمقراطية، وقد كان هذا هو التحدى الحقيقى الذى واجه النخب العربية منذ مطلع هذا القرن. وعلى الرغم من النهضة التى شهدها العالم العربى فى بدايات القرن العشرين، فإن وصول هذه النهضة المفترضة إلى جمهور الناس لم يتم عن طريق الثقافة السياسية وروافدها بل تم عن طريق الحركات القومية التى أفرزت لنا ثقافة جماهيرية لم تلعب بالتأكيد أى دور لنشر الثقافة السياسية الأصيلة، زد على ذلك أن هذه الثقافة الجماهيرية قد اتخذت الشعارات الجوفاء غذاء لها وانزلقت إلى تمجيد السلطة السياسية القائمة وسارت فى ركبانها اقتناعًا منها بالدور الأبوى للدولة وبمسئوليتها المطلقة عن كل مستلزمات أفراد المجتمع وإشباع متطلباتهم المعيشية فانخفض بذلك شأن المؤسسات وانعدمت أنشطتها تمامًا وتعرضت الهياكل شبه الديمقراطية التى كانت قائمة للإساءة عن طرف سلطة الدولة من قبل الأنظمة البيروقراطية، بل وسمعنا فى بعض الأقطارالعربية من نبرة تفضيل لأهل الثقة على أهل الخبرة والدراية. ولعل المرء فى المحصلة الأخيرة. قد لا يجاوز الحقيقة ولا الواقع عندما يخلص إلى أن افتقار هذه النخب العربية إلى الثقافة السياسية إنما هو الأمر الذى يفسر لنا فشلها الذريع فى تحقيق أى إنطلاق ذى بال فى مجالات حياتنا سواء فى المجالات الاستراتيجية أو الاقتصادية ناهيك عن المحاولات السياسية والثقافية، وهو ما نلمس نتائجه ونكتوى بناره اليوم. ومع هذا فإن التجارب قد أثبتت على مر التاريخ أن هذه الأزمات هى بمثابة مراحل ضرورية فى عملية المخاض التى غالبًا ما تشى بعصور أفضل وأزهى، وهو ما نأمله لشعوبنا وهى على مشارف القرن الحادى والعشرين الذى أخذت بشائره تترى علينا حاملة معها تغييرات جوهرية متسارعة فى كل نواحى الحياة.

ضمانات المحاكمة العادلة*

لقد طالبنا فى السابق بأن تتولى محكمة ليبية عليا محاكمة المتهمين الليبيين فى قضية لوكيربى، استنادًا إلى ما هو متعارف عليه، بل ومعمول به ومنصوص عليه فى القانون الدولى المنظم للعلاقات الدولية، وبما أن الأطراف المعنية قد وافقت على إجراء هذه المحاكمة فى بلد محايد هو هولندا، وأمام محكمة مشكلة من قضاة اسكتلنديين، نود هنا أن نشدد على بعض النقاط التى تتعلق بحق ليبيا-بل بواجبها- فى تأمين سلامة المشتبه فيهما قبل وأثناء وبعد المحاكمة التى تعد الأولى من نوعها فى هذا المجال، ودون التعرض لذكر مساوئ هذا الاتفاق أو محاسنه، أو الدخول فى الملابسات القانونية له، والتى يجرى بحثها فى الوقت الراهن.

● فقبل المحاكمة، يتعين أن تبرم الأطراف المعنية عدة صكوك قانونية لضمان عملية نقل وتسليم المشتبه فيهما، وطريقة معاملتهما، ووضعهما القانونى طوال هذه المحاكمة، باعتبار أن المتهم برىء حتى تثبت إدانته.

● أما فى أثناء المحاكمة فيتعين، وفى جملة أمور أخرى إجراء المحاكمة باللغتين العربية والإنجليزية، وأن توافق ليبيا على تعيين المترجمين الشفهيين الذين ستعهد إليهم مهمة الترجمة الفورية من وإلى اللغة العربية، ومن وإلى اللغة الإنجليزية، وأن تكون للغتين نفس الحجية.. كما يتعين توجيه الدعوة إلى عدد من المراقبين المحايدين من الهيئات والمنظمات الدولية والإقليمية، ومنظمات حقوق الإنسان لحضور جلسات هذه المحكمة العلنية، تجنبا لأى مناورات أو تشهير بالقول أو الفعل بالمشتبه فيهما.

● وبعد المحاكمة، ونظرًا لأن المشتبه فيهما من رعايا دولة الجماهيرية العربية الليبية، فإن الأمر يتطلب النص قانونًا على أن يكون تنفيذ أى أحكام قد تصدر فى حق المشتبه فيهما، وهو أمر مشكوك فيه لإنعدام الحجج والأدلة الملموسة والمقنعة.. من اختصاص السلطات الليبية ذات الصلة، وأن يكون هذا التنفيذ على أراضيها وطبقا لقوانينها المعمول بها فى مثل هذه الحالات.. وفى الحالة المرجحة وهى عدم ثبوت التهمة، فإنه يتعين تحديد التعويضات العائدة على ليبيا نظير ما تحملته من خسائر مادية وأدبية فادحة طوال عشر سنوات، وما تعرضت له من عقوبات ومحاصرات مجحفة من جانب أمريكا وبريطانيا..

ولا بأس أن تستغرق هذه الترتيبات بعض الوقت، ولابد من التأنى فى اتخاذ ما يلزم من خطوات، ففى العجلة الندامة.

---

* الأهرام الدولى ٥/ ٩/ ١٩٩٨.

المدينة المقدسة ومشاعرنا الروحية...*

تزداد المنزلة الروحية التى تحتلها القدس فى وجدان كل مسلم قوة ورسوخًا كلما ازدادت أفاعيل اليهود ومناوراتهم ضدها. ولقد خذلهم الله سبحانه وتعالى فى الأسبوع الماضى خذلانا مبينا بعد أن باءت خرافتهم بالفشل واندحرت نبوءتهم بعد أن تبين لهم ظهور الشعر الأبيض على بقرتهم الشقراء التى كانوا يعتقدون أنها علامة من الرب لهدم المسجد الأقصى وإعادة بناء هيكلهم المزعوم! فالله سبحانه وتعالى من ورائهم وهو خير حافظ لأماكننا المقدسة مهما توهم المنافقون.

فالقدس هى المدينة التى باركها الله وبارك ما حولها. والمسجد الأقصى هو أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وهو المسجد الذى تهفو إليه نفوس المسلمين وتشد إليه رحالهم. روى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى قال، قال رسول الله ﷺ **«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدى والمسجد الأقصى»**. وروى أبو ذر رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله! أخبرنا عن بيت المقدس؟ قال: **«أرض المحشر والمنشر، ايتوه فصلوا فيه»**. والصلاة فى بيت المقدس بخمسمائة صلاة، وقيل أكثر. وقال رسول الله ﷺ: **«صليت ليلة أسرى بى إلى بيت المقدس شمالى الصخرة»**. وعن كعب الأحبار أن النبى ﷺ قال: **«ليلة أسرى بى وقف البُراق فى الموقف الذى كان يقف فيه الأنبياء من قبل»**. وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: إن مكة الحرام لحرام الله فى السموات السبع بمقداره من الأرض، وأن بيت المقدس لمقدسة فى السموات السبع بمقداره فى الأرض». وكان الأنبياء عليهم السلام يقربون القربان ببيت المقدس، وتهبط الملائكة كل ليلة إلى بيت المقدس، وأوتيت فيه مريم عليها السلام فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء، وأيد الله تعالى سيدنا عيسى عليه السلام بروح القدس فى بيت المقدس، وكان يصنع العجائب ويحيى الموتى فى بيت المقدس، وفيه يحشر الأنبياء، وفيه ينفخ فى الصور النفخة الثانية، وينادى المنادى على صخرة بيت المقدس. ولقد حثنا رسولنا الكريم على السكن فى القدس وضواحيها، وكانت دعوته لنا صريحة إلى ضرورة العض بالنواجذ على قدسنا الشريف، فكل أحاديثه الشريفة تدل على مكانة بيت المقدس عند الله عز وجل أولاً، وعند المسلمين والعرب أجمعين ثانيًا. ومن هنا جاءت المنزلة والقيمة الروحية لمدينتنا المقدسة التى ستظل عالقة بنفوسنا إلى

* الأهرام الدولى ٢٦/ ٩/ ١٩٩٨.

أن يرث الله الأرض ومن عليها، ففيها من المقدسات ما يزيدنا تصميمًا على عدم التفريط فى شبر واحد من أرضها الطاهرة، أو التخلى عن حقنا فى الذود عنها وعن أصالتها وعروبته، والتصدى لما تواجهها من حملة ضارية لطمس معالمها وشخصيتها العربية والإسلامية.

ولا شك أن أصحاب الضمائر الواعية فى عالمنا العربى والإسلامى يدركون ما تتعرض له القدس من مؤامرات التهويد ودعاوى «العاصمة الأبدية الموحدة»، والخطط الخبيثة القائمة على الخرافات لهدم مسجدنا الأقصى لبناء الهيكل اليهودى. فهناك جماعات يهودية متطرفة تجاهر - وبلا هوادة - بالدعوة إلى هدم المسجد الأقصى لبناء الهيكل الثالث، وهى تنظم فى كل سنة وفى عيد الغفران اليهودى - وكما حدث فى الأسبوع الماضى، مسيرة نحو المسجد الأقصى كمحاولة رمزية لإعادة بناء الهيكل، وذلك وفقًا لمراسيم خاصة بها تتحرش فيها بالمسلمين. فهناك - وعلى سبيل المثال - حركة «أمناء الهيكل» التى تحتفظ بحجر كبير قرب الحرم القدسى وتدعى أنه حجر الأساس لهيكل سليمان. وقد تعددت محاولاتها منذ عام ١٩٨٤ لتفجير المسجد الأقصى والانقضاض عليه و«تطهيره» وإعادة بناء الهيكل!!

إن القدس، زهرة المدائن، ومدينة السلام، تمر بفترة تاريخية حاسمة، وتدعونا إلى اليقظة والحذر، والعمل دون كلل لإنقاذها وانتشالها من براثن المخططات الصهيونية، حتى لا يدخل الدجال بيت المقدس، كما قال الرسول الكريم، وقبل أن يسبق السيف العزل...

و ﴿إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب﴾.

❖❖❖

القدس والحلول المطروحة*

منذ أن استولت إسرائيل على قدسنا الشريف عام ١٩٦٧، ووقوعه فى القبضة الغاشمة الصهيونية والعمل يجرى بطريقة محمومة لتهويد ومحو هويتها العربية. وقد تفاقم الوضع ابتداءً من عام ١٩٩٣، بعد أن وضعت إسرائيل الخطة، المتعلقة بالقدس الكبرى العاصمة الأبدية لإسرائيل!

واستمر تنفيذ هذه الخطة يسير بصورة خبيثة ومتسارعة لخنق المدن والقرى الفلسطينية، وقطع القدس الشرقية من الجهة الشمالية عن الضفة الغربية نهائيًا. وبدأت الحملة الإسرائيلية الضارية للإستيلاء على الأراضى الفلسطينية وبناء أحياء يهودية ضمت ما يزيد على ٥٠٠٠٠ وحدة سكنية جديدة للإسرائيليين، مع مطاردة الفلسطينيين وهدم بيوتهم. وقد تم كل ذلك لتحقيق المطامع الإسرائيلية فى القدس وتجسيد حلمهم المنشود فى جعل القدس «العاصمة الأبدية» لإسرائيل. وكل هذا يجرى والعالم كله يسمع ويبصر ولا يحرك ساكنا أمام طمس الحقائق التاريخية وتزييفها.

وقد طرحت فى الآونة الأخيرة عدة سيناريوهات لمعالجة موضوع القدس، وهى فى إيجاز على النحو التالى:

١- تدويل القدس.

٢- تقاسم السيادة على المدينة.

٣- المراقبة المشتركة بإنشاء العديد من المجالس البلدية العربية الإسرائيلية لاتخاذ قرارات مشتركة. وكل هذه السناريوهات يطول شرحها، وهى فى واقع الأمر لا تعدو كونها سيناريوهات نظرية تثير العديد من التساؤلات ولا تشفى غليلا، والسيناريو الوحيد المقبول لم يطرح، وهو الحل الشافى الذى قررته الشرعية الدولية، والذى يقضى بتحرير القدس الشرقية من الاحتلال الإسرائيلى، وإعادة الحقوق إلى أصحابها الحقيقيين. ونحن مطالبون الآن – وإلى جانب إيلاء هذه القضية الأولوية العليا –

* الأهرام الدولى ٣٠/ ٨/ ٢٠٠٠.

بالصمود، ونبذ الاعتبارات الآنية والمصالح الدنيوية، وألا تحول فكرة قيام دولة فلسطين دون تأكيد أن عاصمتها القدس الشرقية، ولابد من التصدى لأى محاولات عرقوبية تهدف إلى القفز على الحقائق والحقوق الثابتة، ولابد من بذل الجهود لإقناع العالم بأن تحرير القدس الشريف هو مفتاح الحل لكل مشكلات الشرق الأوسط التى خلقها زرع إسرائيل فى قلب هذه المنطقة المسالمة.

ويبدو أن الغطرسة اليهودية ونزعة التعصب الصهيونى قد أعمتا القلوب والبصائر، واستفحل نمط التفكير الإسرائيلى المغرق فى العقائدية الدينية على يد غلاة اليهود ودعاة الصهيونية، بل واستحوذ على كل مجريات الأمور فى إسرائيل.

❖❖❖

حقوق الإنسان فى عراق ما بعد الحرب*

هل من قبيل العبث أو هل من السابق لأوانه التحدث عن حقوق الإنسان فى عراق ما بعد الحرب؟ وهل يحق للمرء أن يخوض فى موضوع حقوق الإنسان فى بلد يرزخ تحت الاحتلال الأجنبى الذى مازال يعيث فسادًا فى أرضه ومقدساته، غير أن هذا الأمر هو الذى يدعونا نحن العرب إلى التفكير الجدى فى كيفية تقديم العون لهذا الشعب المقهور الذى يعانى محنة قاسية، والأخذ بيده لكى يبنى دولته الجديدة وإعادة إعمار بلده بمحض إرادته وبسواعد أبنائه، وعلينا كذلك أولاً، أن نتوقف عن المهاترات السياسية وتوجيه عبارات الشجب والقذف، فالشعب العراقى يحتاج إلينا الآن أكثر من أى وقت مضى، وهو ينظر إلى شعوبنا العربية بكل أمل لكى تقوم بواجباتها حيال تأمين مستقبله وحمايته من الضغوط المفروضة عليه، وما يحاك ضده من مؤامرات بدعوى إرساء الديمقراطية.

إننا مطالبون بألا نقف موقف المتفرجين أو المعلقين دون أن نتحرك لضمان حق الشعب العراقى فى دولته المستقلة، وحقه فى الغذاء والدواء، وحقه فى حماية ثرواته وثقافته وحضارته، وحقه فى تشكيل حكومته الشرعية.

وإن دور المنظمات الأهلية العربية فى هذا المجال يعتبر المحك الحقيقى لمصداقية هذه المنظمات وفاعليتها. وهناك منظمات أهلية دولية قامت بدورها وسارعت بإرسال وفود إلى العراق لهذا الغرض.

وإننى أهيب بالمنظمة العربية لحقوق الإنسان بأن تسارع هى الأخرى بأخذ زمام المبادرة وإرسال بعثة لتقصى الحقائق تشكل بموجب المواثيق والأعراف الولية لكى تتوجه إلى العراق لمحاولة التعرف على سبل الأعمال الفعلى لحقوق الإنسان فيه خاصة فى هذه المرحلة التى سيتقرر فيها مصيره، وتقديم المشورة والخبرة لجميع الأطراف،و تنسيق الجهود مع المنظمات الدولية الأخرى لإخراج العراق من هذا المأزق الخطير وانتشاله من هذا المستنقع بأقل قدر من الخسائر المادية والمعنوية، وذلك حرصًا منا على وحدته الجغرافية والوطنية.

---

* الأهرم الدولى ٦/ ٥/ ٢٠٠٣.

الطريق إلى خريطة فلسطين!*

هل ستؤدى خريطة الطريق المطروحة حاليًا إلى قيام دولة فلسطين الحرة والمستقلة وعاصمتها القدس الشريف؟ أم أن هذه الخريطة قد وضعت لتكون مجرد ورقة من أوراق اللعب -لا أكثر ولا أقل- فى يد إسرائيل للمساومة والمقامرة وقطع الطريق أمام الفصائل الفلسطينية المدافعة عن كرامة شعب فلسطين المحاصر والمحتل منذ ما يزيد على نصف قرن؟

وهل ستكون خريطة الطريق هذه هى خريطة موضوعة لبث الشقاق والفرقة بين الفلسطينيين وإثارة التناحر فيما بينهم، وتخليهم عن كفاحهم المرير من أجل الحياة والبقاء أمام الهجمة الصهيونية الشرسة التى رسمت خريطة الطريق إلى دولة إسرائيل منذ قرن مضى؟ ويبدو أن هذا هو الأمر الذى تراهن عليه إسرائيل، وتحاول به إرضاء ربيبتها أمريكا بعد سقوط بغداد وانحسار الدعم العربى للقضية الفلسطينية.

ولقد كانت فلسطين حقيقة جغرافية وتاريخية واقعة قبل ظهور إسرائيل وحتى أمريكا، لكنها الآن أضحت تحت الاحتلال. وإسرائيل تعرف هذه الحقيقة تمامًا، وهى تعتقد دائمًا أن أى حل سلمى مع الفلسطينيين إذا ما تحقق فإن هذا سيكون بالنسبة لها نهاية المطاف أى نهاية إسرائيل كما يزعمون. ولذا فهى ترى فى الترانسفير، وفى إشعال الصراع الفلسطينى - الفلسطينى، وفى إحداث التنافر والتناحر الفلسطينى - العربى الوسيلة المثلى لتحقيق أهدافها وأطماعها فى المنطقة.

هذا وإن النظرة التشاؤمية إلى خريطة الطريق الرباعية هذه قد ولدتها الأحداث التى عشناها طوال نصف قرن والوعود البراقة التى ذهبت مع الريح بفضل ألاعيب إسرائيل العرقوبية وأساليب اللوبى الصهيونى الأمريكى.

غير أن هذه النظرية التشاؤمية ينبغى ألا تحول بيننا وبين التفكير فى المستقبل وتحمل المسئولية التاريخية بنوع من البرجماتية والمنطق السليم. فالواقعية السياسية تحتم علينا الوقوف مع النفس ومسايرة المواقف إلى نهايتها دون المساس بالثوابت أو الركائز الوطنية ولابد من الحفاظ على إمكانات الشعب الفلسطينى المتواضعة والمتمثلة فى فصائله التى تناضل ضد الاحتلال الصهيونى.

* الأهرام ٢٢/ ٦/ ٢٠٠٣.

فالأمر فى نظرى لا يتطلب عقد «هدنة» مع هذه الفصائل، التى تعتبر بمثابة الملجأ الأخير للفلسطينيين، وإنما إجراء نوع من «المهادنة» لإفساح الطريق أمام كل المحاولات التى تبذل لحل هذه القضية المعقدة، ورفع المعاناة عن الشعب الفلسطينى، وهناك طرائق عديدة استخدمت للمهادنة على طول التاريخ، ومنها ما أسفر فى نهاية المطاف عن انفراج للأزمات بصورة لم تكن متوقعة، فالمهادنة لا تعنى التفكيك أو التقويض، وإنما لملمة الشمل والتحدث بصوت واحد، مع الاستعداد فى الوقت نفسه لما قد تخبئه الأقدار فنحن أمام عدو - بل عدة أعداء - يخططون ويهندسون ويتشاورون فى الأمر قبل اتخاذ أى قرارات لذا فالمهادنة مطلوبة لأن مصير فلسطين لن يحدده سوى أبناء فلسطين المخلصين - ومهما طال الزمن - كما أن هذا المصير سيتحدد على أرض فلسطين بالذات وليس فى العواصم العربية أو الأجنبية. ومن ثم فعلى جميع الأخوة الفلسطينيين اليوم أن يحددوا موقفهم وهدفهم، وأن يعرفوا اتجاه خطواتهم دون رعونة أو مزايدات من أى طرف، مع التروى عند اتخاذ المبادرات لتفادى الوقوع فى المتاهات السابقة، وضرورة تنحية الأكاذيب المعسولة أو الأقاويل المرسلة.

إن هذا الأمر يتطلب من شعب فلسطين وحكومته التحاور للخروج بخطة طريق فلسطينية واعية تأخذ فى اعتبارها المفهوم الصحيح للسلام المنشود الذى يعيد إلى الشعب الفلسطينى حقوقه المهضومة ويوقف اغتصاب أراضيه ويخرجه من ظلمات الاحتلال والعدوان إلى نور الاستقلال والحرية..

❖❖❖

محاربة الإرهاب ومقاومة الاحتلال*

اتخذ مصطلح «الإرهاب» أشكالاً عديدة فى عصرنا الحاضر، وأصبح هو الدافع الرئيسى والمسوغ الأول لمحاربة النظم العربية بحجة القضاء على هذا الإرهاب. ولقد اكتسى هذا الإرهاب أبعادًا غير معقولة بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١. والتقط اليمين المتطرف فى أمريكا هذه الفرصة واستغلها لتحقيق مآربه التى كان يجاهر بها قبل هذه الأحداث، وهى محاربة الإسلام بوصفه بوتقة للإرهاب، ومحاربة المسلمين بوصفهم إرهابيين، وشن حملة صليبية جديدة على الشعوب العربية الإسلامية من أجل التوصل فى نهاية المطاف إلى فرض السيطرة والهيمنة على ثروات هذه الشعوب ومحو هويتها وقوميتها، وتمكين حلفائهم من الإسرائيليين من تحقيق مآربهم وطموحاتهم المعلنة وغير المعلنة، وبسط نفوذهم الاقتصادى على المنطقة ليكتمل لهم التفوق الكامل.

والواقع أنه كثيرًا ما يصاب المرء فى هذه الأيام بالكثير من الإحباط وهو يرى ويسمع ما يجرى من حوله وما يدور فى دهاليز أهل السياسة، وتساوره الشكوك وتراوده فكرة أن الاستعمار العالمى القديم يحاول العودة من جديد إلى الوجود وبصورة أخطر وأفظع تحت مسمى «محاربة الإرهاب». وقد اتضح ذلك بصورة واضحة عندما اجتاحت جيوش الإمبراطورية الجديدة أفغانستان ثم العراق، تحت أضاليل مكافحة الإرهاب والبحث عن أسلحة الدمار الشامل. واستكان العالم ورضخ وخضع لهذه الادعاءات المضللة، وتأزم الموقف فى الشرق الأوسط بعد الدعاوى الرامية إلى نشر الديمقراطية الأمريكية فيه، وتخليصه من طغيان حكامه العرب! وهكذا لم تتوقف التهديدات المرسلة إلى كل من سوريا وإيران وغيرها من البلدان العربية. وهم الآن يسعون إلى التخلص من ياسر عرفات والإجهاز عليه نهائيًا، لأن هذا الرئيس المنتخب من شعبه هو المحرض على الإرهاب والعائق أمام تحقيق السلام الذى تريده إسرائيل!

لقد كانت الحرب على العراق غير شرعية وغير عادلة وغير أخلاقية، كما أن الهجوم على عرفات، رمز الشعب الفلسطينى، وتقرير طرده أو قتله، هو أمر غير شرعى وغير عادل وغير مقبول، ناهيك عن أنه غير أخلاقى على الإطلاق. ونحن نرى الآن

---

* الأهرام ٣٠/ ٩/ ٢٠٠٣.

ونشاهد ما ألحقه الاحتلال الأجنبى بالعراق، وكيف أن هذا الاحتلال لم يحقق الاستقرار أو الديمقراطية لشعب العراق المقهور، بل العكس صحيح، فقد أصبحت الفوضى العارمة هى السمة السائدة، وأصبحت التدابير الأمنية تشكل الهم الأول للقوات المحتلة التى تبحث الآن عن مخرج لها دون فقدان ماء الوجه بإشراك الأمم المتحدة فى إعمار عراق ما بعد الحرب. والحق يقال إن كل الأقنعة قد سقطت عن السياسات المدمرة التى حاولت الاختباء وراء الشرعية الدولية وحقوق الإنسان والديمقراطية وغيرها من الأساليب المعسولة التى تشدقنا بها طوال القرن الماضى. وقد شكل الشرق الأوسط طيلة تاريخنا الحديث والمعاصر محكا حقيقيًا لاختبار مصداقية هذه الأقاويل بعد أن أصبح مسرحًا لأحداث جسام ترمى إلى إعادة ترسيمه وفق رؤية تسلطية استعمارية توسيعة، مدفوعة بطروحات صراع الحضارات والأديان، وبأن قيم الغرب فى مجال الحداثة والحضارة تمنح هذه الرؤية الحق فى قيادة العالم إن ترغيبًا أو ترهيبًا. وهناك من يعتقد أن الاستفراد بقيادة العالم سيقضى على الإرهاب، غير أنه لم يفكر لحظة فى أن الاحتلال سيولّد لهم العداوة والبغضاء وسيزيد الطين بلّة، وسيدفع إلى المزيد من التطرف وترسيخ روح المقاومة لهذا الاحتلال الجديد.

فالعدوان على العراق أو على غيره من البلدان العربية والإسلامية لن يترك لهذه البلدان خيارًا آخر سوى المقاومة والتصدى لهذه الهيمنة ولقيم هذه الإمبراطورية الجديدة المبنية على العنف والحرب والدمار وعلى تقطيع أوصال هذه البلدان واستعباد شعوبها ومحو ثقافاتها ونهب ثرواتها.

إن محاربة الإرهاب بالسلاح وبالاحتلال ستقابله مقاومة هذا الاحتلال بالإرهاب، بل وبالإرهاب المتشدد، وهو الأمر الذى يجب أن يتفكر فيه عقلاء العالم أجمع وأن يتدبروا أمره قبل أن يفلت الزمام. فمن واجبهم أن يضعوا الحلول العقلانية والرشيدة لهذه المعضلة التى تفشت فى العالم كله (فهى ليست حكرًا على العالم العربى أو الإسلامى وحده)، على أن تقوم هذه الحلول على المعرفة العلمية التامة لأسباب هذه الظاهرة، والعمل على انحسارها بالطرق السلمية، للمحافظة على أمن عالمنا واستقراره، والتفرغ لتعزيز تنمية الإنسان الذى خلقه الله سبحانه وتعالى ليعمّر هذه الأرض لا ليدمرها، وتوفير كل السبل الممكنة لكى يتمتع بخيراتها ويهنأ بالسعادة والرفاه بدلاً من ترهيبه وتشريده وقتله!



فى ذمة الله يا أباالشهداء*

وداعًا يا أبا عمار.. وداعًا يا رئيس الجبارين.. وإن القلب لحزين على وفاتك، ولكن لا راد لإرادة الله عز وجل، فكل نفس ذائقة الموت، وكل من عليها فان.. لقد وقع علينا خبر وفاة الرئيس ياسر عرفات فى هذا الشهر المبارك كالصاعقة، ولم نكن نتوقع فقدانه قبل أن تتحقق آماله ورسالته بإقامة دولة فلسطين وعاصمتها القدس الشريف.. فحياة عرفات لم تكن بالحياة العادية بل عبارة عن تاريخ قائم بذاته، وفارقة إنسانية فذة، ومتحف بطولى خالد.

ولقد عاش عرفات (المهندس محمد عبد الرؤوف، أبو عمار) طوال حياته، وحتى وهو طالب بكلية الهندسة بجامعة القاهرة، يعمل لبلده فلسطين. وكنت ألمحه وهو يحضر الاجتماعات فى «بيت فلسطين» (وكان يقع فى شقة بشارع قصر النيل بالقاهرة) وكان شابًا يافعًا، عامر القلب، رابط الجأش لا تفارقه الابتسامة، وتشعر وكأنه قد استقرأ مستقبله واستشف الرسالة التى كتب عليه أن يحملها وأن يكرس حياته لها، وكانت رسالة حياة أو موت، وكان يعلم ذلك فى قرارة نفسه، فقد وهب حياته للجهاد والكفاح والصبر لاسترداد حقوق الفلسطينيين فى أرضهم المغتصبة. ومر عرفات بمراحل حياتية هى عين البطولة والشجاعة. فقد شاهد بعينيه الموت عدة مرات ويظل ياسر عرفات رمزًا للقائد المكافح ودليلاً ناصعًا على العزة والكرامة والتضحية المتأصلة فى الإنسان العربى.

وإننى لا أملك فى هذه اللحظة سوى الدعاء له بأن يرحمه الله رحمة واسعة وأن يسكنه فسيح جناته، وعزائى لأسرته ولعائلته الكبيرة شعب فلسطين الأبى.

﴿... لا إله إلا هو إليه المصير﴾.

❖❖❖

---

* الأهرام الدولى ١٣/ ١١/ ٢٠٠٤.

جـ - فى بقية العالم

الشيشان: وهل يعيد التاريخ نفسه؟*

طغت الأحداث الجارية فى جمهورية الشيشان على ما سواها من الأخبار، وأبرزت الصحف ووكالات الأنباء مايجرى من قتال على أرض هذه الجمهورية الصغيرة وركزت على كفاح شعبها المسلم الأبى، فى سبيل كرامته وحريته واستقلاله.

ويقطن شعب الشيشان الذى يبلغ تعداده فى الوقت الحالى نحو مليون نسمة فى المنطقة الواقعة شرقى القوقاز الشمالية. ولفظة الشيشان التى عرف بها هى الاسم الذى أطلقه الروس على هذا الشعب الذى يعيش فى الوديان الجنوبية لنهرى سونجا وتيريك فى وسط القوقاز، والذى ينتمى إلى قبائل القبق المعروفة التى انحدر منها عدد كبير من المماليك المصريين، وهى قبائل تتحدث بلغة أقرب إلى اللغة الداغستانية بعد أن دخلها الإسلام فى القرن السابع عشر عن طريق القرم وداغستان، وكان هذا الشعب ومعظمه من رجال الجبال، يخضع للأمراء الشراكسة ويدين بالنصرانية منذ القرن الحادى عشر الميلادى. ولما اشتدت عليهم وطأة هذا الدين رغبوا فى الإسلام، وأرسلوا رسلهم إلى خوارزم، فبعث إليهم حاكمها من يعلمهم شرائع الإسلام فأسلموا، ولكن إسلامهم ظل ضعيفًا وسطحيًا حتى القرن الثامن عشر. وقد وصفهم المؤرخون بأنهم «قوم أقوياء أشداء»، بسالتهم ونجدتهم معروفة، وبأنهم أحرار يملكون أنفسهم ولا يملكون عليهم غيرهم، ولذلك لقبوا أنفسهم بالنبلاء الأشراف.

وقد وطد الإسلام أركانه فى هذه الربوع خلال القرن الثامن عشر الميلادى بفضل الطريقة النقشبندية وانتشارها بشكل كبير فى هذه الربوع. وقد لعبت هذه الطريقة الصوفية- ومازالت- دورًا هامًا فى الحياة الاجتماعية بل والسياسية للبلاد. وتعزز هذا الدور بدخول الطريقة القادرية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر على يد الشيخ كونتا حاجى كيشييف الذى أخذ التصوف وتلقن الذكر عن مؤسس الطريقة الشيخ عبد القادر الجيلانى ببغداد أثناء مروره بها فى طريقه إلى مكة المكرمة للحج، وقد ظلت هذه الطرق الصوفية تعمل - حتى فى عصر هيمنة الشيوعية- كمنظمات سرية مناضلة فى سبيل الاستقلال والحرية. ومن عجائب المفارقات أن هذه الطرق كانت وحتى وقت قريب تضم بين ظهرانيها أعضاء فى الحزب الشيوعى والإدارة.

* الأهرام الدولى ١٩٩٥/١/٩.

الروسية، ولكن يبدو كما ذكر المحللون السياسيون، أن الولاء للطريقة قد فاق الولاء للحزب».

وقد أصبح هذا الشعب منذ دخوله فى الإسلام فريسة للغزو الروسى. وجاءت أولى معاركه مع الروس فى عام ١٧٣٢م. واشتدت هذه المعارك واحتدمت بعد استيلاء الروس على شرقى جورجيا فى ١٨٠١م.

وقد أبدى الشيشان مقاومة عنيفة لهذا الزحف الروسى، وظهرت المقاومة الشعبية بقيادة الشيخ منصور عشرومة فى عام ١٧٨٥ وقد سحقها الروس فى عام ١٧٩١ وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت بلاد الشيشان هى المعقل الرئيسى للإمام «شامل» الذى قاد الجهاد ضد الروس، ولكنه اضطر أمام زحفهم إلى التسليم بعد سلسلة من حركات التمرد والعصيان فى عام ١٨٥٩ وفى أعقاب ذلك هاجرت جماعات كبيرة من الشيشان إلى تركيا.

واحتل المستوطنون الروس، عشية الثورة البلشفية فى عام ١٩١٧، سهول البلاد فى الشمال لاسيما بعد اكتشاف النفط فى منطقة جروزنى، مما جذب عددًا كبيرًا من العمال الروس. وفى عام ١٩٣٦ أصبحت الشيشان جزءًا من الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية.

ولكن صدر فى يونيه ١٩٤٦ مرسوم من مجلس السوفيت الأعلى بإلغاء هذه الجمهورية وبنفى الشيشان وإبعادهم إلى مناطق التعمير الخاصة فى أواسط آسيا، بعد أن اتهمهم ستالين بالتواطؤ مع الألمان عندما غزوا حدودهم فى عام ١٩٤٢ ثم عادوا بمقتضى مرسوم آخر إلى بلادهم فى عام ١٩٥٧ وعام ١٩٦٠، وظلت منطقة جروزنى- الغنية بالنفط- منطقة إدارية روسية تخضع للحكومة المركزية الروسية مباشرة. ولما انحل عقد الاتحادالسوفيتى فى عام ١٩٩١، أعلنت جمهورية الشيشان سيادتها واستقلالها الكامل عن الاتحاد الروسى الجديد، ورفضت التوقيع على المعاهدة الاتحادية فى مارس ١٩٩٢، وأعلن زعيمهم الجنرال السابق جوهر دودايف، والذى يعتبر «بعبع الروس» الثورة الشيشانية ضد ما أسماه بالاستعمار الروسى، وقام بتعبئة رجاله وطرد أعوان الحكومة الروسية، وحال دون إجراء الاستفتاء على المعاهدة الاتحادية الذى كان مقررًا له شهر مارس ١٩٩٣ فقد فشل الروس فى حمله على الإذعان لأوامراهم، فقاموا مؤخرًا بالهجوم الضارى والذى مازال مستمرًا، ضد هذا الشعب المعروف بشجاعته وعزة نفسه وبسالته فى القتال رغم قلة عدده وعتاده.

على هامش الاحتفال بالذكرى الخمسين:

الأمم المتحدة فى مهب الريح*

جاء إنشاء هيئة الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٥ تجسيدًا لرغبة الشعوب التى خرجت من الحرب العالمية الثانية وهى مثخنة بالجراح ومحطمة ماديًا ومعنويًا، والتى هداها تفكيرها فى هذا السياق الهش إلى إيجاد شكل جديد من الأمن الجماعى، ولهذا الغرض فقد أوصى مؤتمر سان فرانسيسكو فى أبريل من عام ١٩٤٥ بإنشاء هيئة الأمم المتحدة، وزودها بميثاق يقوم على أساس مبادئ السلام والقانون والحرية والتعاون، كما أمدها بمؤسسات وآليات إدارية وتنظيمية (الجمعية العامة، ومجلس الأمن المؤلف من ١١ دولة عضوًا من بينها ٥ دول أعضاء دائمين لها حق الفيتو، وأمانة عامة)، وبعدة وكالات متخصصة (صندوق النقد الدولى، ومنظمة الأغذية والزراعة، واليونسكو، والبنك الدولى). ورغم الآمال التى علقت عليها، فإن فعالية الهيئة سرعان ما أعاقتها الخلافات التى ثارت بشأن مستقبل ألمانيا أو مصير الإمبراطوريات الاستعمارية أو الانفساخ الذى حدث بين الكتلتين الغربية والشرقية الذى ولّد الحرب الباردة التى عانت منها هيئة الأمم المتحدة أشد المعاناة حيث اضمحلت المبادئ الكبرى أمام مناورات القوى الثنائية القطب. ومع هذا، فقد نجحت الأمم المتحدة فى التخفيف من حدة هذا الانقسام بما شكلته من محفل هام ومنبر مفتوح لعرض القضايا واحتواء الأزمات العالمية.

وفى خضم تداعى الأحداث وتواترها، توسعت أنشطة الهيئة توسعًا كبيرًا بانضمام العديد من الدول المستقلة حديثًا، ودخول الكثير من الوكالات المتخصصة تحت رايتها، وأصبحت الهيئة منظومة ضخمة تضم نحو ٥١٤٨٤ موظفًا، من بينهم نحو ١٨٣٠٠ موظف دولى، والبقية من موظفى الخدمة العامة، وبدأت البيروقراطية تتسلل إليها حتى نعتتها الصحف بأنها «ديوانية بلا نظام» وأنها لا تعدو أن تكون «مصنعًا كبيرًا للورق». وقد كان ذلك مدعاة لانقطاع مساهمات البلدان فى دعم المنظومة مما حدّ من قدراتها وطاقاتها على العمل المثمر، ولاشك أن هذه النعوت لا تخلو من التحامل والمبالغة، فعدد موظفيها على سبيل المثال لايعد بأى حال من الأحوال كبيرًا إذا ما أخذنا فى الاعتبار أنهم يخدمون شعوب ١٨٤ دولة فى أنحاء العالم. أما أنها مصنع كبير للورق، فهو أمر لا شك فيه، فالأمم المتحدة مطلوب منها إصدار كمية ضخمة من الوثائق بناء على طلب حكومات الدول الأعضاء، وكلها تتناول جوانب الظروف الإنسانية والبيئية والإنمائية.

---

* مجلة شروق (جنيف) ١٩٩٥/٨/١.

فضلاً عن أنها تقوم بإصدار كل وثيقة باللغات الست الرسمية؛ ومع ذلك فإنها لا تستهلك من الورق فى السنة الواحدة ما تستهلكه جريدة مثل الصنداى تايمز فى طبعة واحدة من طبعات يوم الأحد!

ولا خلاف على أن الأمم المتحدة ووكالاتها وأجهزتها المتخصصة فى حاجة ماسة إلى إعادة تنظيم وترشيد. فبعد هذه السنوات الطويلة تقلص دور أمينها العام، وانحصر فى دوره التنسيقى والروتينى والذى ما فتئت الدول الأعضاء تطالب كذلك بتحسينه وهو أمر لن يتأتى ما لم تتوصل هذه الدول إلى نوع من التنسيق بين سياساتها الدولية وطموحاتها العالمية أولاً.

ولا غرو أن يتطلب من الهيئة ذاتها أن تلجأ إلى طائفة واسعة من الإصلاحات الوظيفية، وهى إصلاحات لا تدخل فى عداد الإصلاحات الميكانيكية أو الهيكلية فحسب، بل إنها تتطلب إيجاد خطوط حيوية للاتصال والتنسيق، ولن يتم ذلك إلا بمراعاة العامل البشرى الذى يولّد السياسات الدينامية ويبث روح الفريق والبرمجة فى صفوف الموظفين. ويصدق ذلك بطبيعة الحال على «القادة» الذين تختارهم دولهم لشغل المناصب الرئيسية فى الهيئة. فالمعروف أن اختيار قيادة سيئة لن يفضى إلا إلى سوء التنظيم والتنسيق وما يستتبعه ذلك من انعدام فعالية الهيئة. ومن المطلوب كذلك أن تحسن الهيئة استخدام المعلومات والموارد التحليلية لمؤسساتها من أجل توفير الحلول السليمة للمشكلات العالمية الرئيسية وطرحها فى الوقت المناسب. والأهم من كل ذلك هو أن تولى الهيئة المزيد من عنايتها لأسباب هذه المشكلات ولتحسين قدرتها على معالجة تلك الأسباب قبل أن تتفاقم إلى أزمات وحروب أهلية. وينبغى أن تنجح الأمم المتحدة فى جهودها المبذولة للتوصل إلى الاستخدام الأمثل لمواردها مما سيشجع الدول الأعضاء على زيادة دعمها لها. ولن يتم ذلك إلا باختيار النوعية الجيدة والمتخصصة من الموظفين الدوليين الأكفاء، مع تفادى الازدواجية فى الجهود والتأنى فى تفويض المسؤوليات وتخويلها.

ومن نافلة القول إن ثمة تعديلات أخرى ينبغى أن تطرأ على الميثاق ذاته لكى تتيح للهيئة القيام بدورها المتعاظم على الوجه الأكمل.

وقد تنبهت الأمانة العامة للأمم اتلمحدة إلى أوجه القصور المتعددة التى شابت العمل بالهيئة، فأصدرت فى عام ١٩٩٢ سلسلة من الإصلاحات التى لم تستكمل دورها بعد بحيث تؤتى أكلها حقًا. ولاشك أن الأمر يستدعى سلسلة أخرى من التغييرات الجذرية التى تتعلق برؤية الهيئة للأمور وبآلياتها ومثلها العليا، والتى بدونها ستظل

الأمم المتحدة عاجزة عن مواكبة التطورات العالمية المتسارعة، وعن اللحاق بالركب المنطلق نحو القرن الحادى والعشرين.

ونخلص من ذلك كله إذن إلى أن الأمر يستدعى إدخال عدد من المفاهيم والهياكل الجديدة لكى تستجيب منظمة الأمم المتحدة لمتغيرات العصر وللديمقراطية الحديثة. ونوجز فيما يلى بعض الأفكار بالإصلاحات المنشودة:

- تعديل ميثاق الأمم المتحدة لإعادة النظر فى حقوق التصويت وحق الفيتو.
- تقنين أسس «السياسة الوقائية» وتزويد الأمم المتحدة بالإمكانات العلمية للأخذ بها عند الاقتضاء.
- وضع قواعد ثابتة لقوات الطوارئ لحفظ السلام فى العالم بعد أن اشتد الطلب عليها فى الآونة الأخيرة.
- إضفاء الصفة الإنسانية على عمليات الأمم المتحدة فى مجال فض المنازعات.
- حفظ التوازن بين ماهو سياسى وماهو اقتصادى أو اجتماعى، والاهتمام بشؤون التنمية والبيئة فى إطار هذا التوازن، مع تحرى الموضوعية عند البحث عن شراكات جديدة فى هذه المجالات الحيوية.
- تعزيز حقوق الإنسان والعلم على نشرها بوسائل الاتصال الحديثة.
- الاهتمام بدراسة ظاهرة الاختلافات العرقية والعمل على التخفيف من حدتها.
- إحياء دور محكمة العدل الدولية وتنشيطه بحيث يفى بالغرض منه.
- انتقال الأمم المتحدة من مرحلة (التعميمات النظرية) إلى مرحلة (التخصيصات العملية)، أى التركيز على موضوعات تعود بالنفع المباشر على شعوبها بعينها وعلى مجموعات محددة مستهدفة.
- توخى الوضوح والشفافية عند وضع القواعد للظاهرة الصحية الجديدة المتمثلة فى نشأة المنظمات غير الحكومية التى تعتبر المتنفس الطبيعى الوحيد لشعوب العالم.



د. بطرس غالى والمهمة المستحيلة*

عندما انتخب مجلس الأمن د. بطرس غالى أمينًا عامًا للأمم المتحدة فى ديسمبر ١٩٩١، اغتبط المجتمع الدولى لهذا الاختيار، ورحب به الجميع بعد أن سبقته إلى نيويورك سمعته الطيبة وحنكته الدبلوماسية، وكان التصور الذى انطبع لدى الدول الأعضاء عندما عينته فى هذا المنصب، أنها اختارت شخصًا طيعًا لين العريكة وأنها ستتعامل مع رجل قارب السبعين، وأنه سيظل محتفظًا لها بالعرفان، شاكرًا للجميل، ولكن سرعان ما تبددت هذه الصورة تمامًا بعد أن أمسك بطرس غالى بزمام الأمور بكل حزم وموضوعية، وظهرت صلابته فى الحق وثباته على مبادئه أمام العقبات الضخمة والمشكلات العويصة التى واجهها، مما دعا الكثير إلى وصفه بالاستعلاء والغطرسة، رغم أنهما كانا -فى رأيى- نوعًا من أنواع الدفاع عن النفس وصيغة من صيغ إثبات الذات بعد أن أصبح رئيسًا لهذا البيت الضخم المطل على الايست ريفر.

ففى هذا البيت تتلاقى إرادات الدول وأنانيتها ولاسيما القوى الخمس العظمى، وحيث تتشابك العلاقات والمصالح بل وتتضارب وتتعارض أيضًا.

لقد جاءت ولاية الأمين العام الحالى فى فترة عصيبة اكتنفتها تعقيدات وأزمات عديدة نتيجة سقوط حائط برلين وانهيار الاتحاد السوفيتى وتداعيات حرب الخليج ومأساة الحروب الأهلية فى الصومال ويوجوسلافيا السابقة.

هذا فقط- هو الجزء الظاهر- من كتلة الجليد، ولكن ما خفى كان أعظم، فقد كان على الأمين العام الجديد إصلاح ما أفسده الدهر والتصدى لعملية إعادة هيكلة الأمم المتحدة بعد أن أصابها الترهل وأرهقتها البيروقراطية، خاصة وقد مضى على إنشائها قرابة الخمسين عامًا، وتولى على رياستها خمسة من الأمناء العامين. كان أولهم الدبلوماسى النرويجى تريجفى لى (١٩٤٦- ١٩٥٢) وتلاه داج همرشولد السويدى (٥٣-١٩٦١) الذى لقى حتفه فى منتصف ولايته الثانية وهو يؤدى عمله لحل أزمة الكونغو فى سبتمبر ١٩٦٠، فخلفه يوثانت من بورما (١٩٦١-١٩٧١)، وكان أول أمين عام يحظى بولايتين كاملتين وهو ماحدث كذلك لكورت فالدهايم النمساوى (١٩٧١-١٩٨١) الذى كان يصبو فى قرارة نفسه إلى ولاية ثالثة ولكنه لم يوفق وعاد إلى بلاده حيث انتخب رئيسًا لها بعد عدة سنوات.

---

* الأهرام الدولى ١٩٩٦/٧/٢٣.

وفى عهد بيريز دى كويلار (١٩٨٢-١٩٩١) ، اتخذت الأمم المتحدة وجهًا جديدًا نجم عن انهيار النظام الشيوعى فى أوروبا وانتهاء الحرب الباردة واختفاء المواجهة الصريحة بين الشرق والغرب، وذلك رغم تعدد المنازعات الإقليمية وزيادة الطلب على عمليات تدخل الأمم المتحدة لإحلال السلام. وعند نهاية ولاية دى كويلار الثانية فى عام ١٩٩١، كان الوضع قد تفاقم واتخذ أبعادًا خطيرة وعجل بدفع الأمم المتحدة إلى الوقوع فى براثن أزمة مالية خانقة تسببت فى فقدان المنظمة لمصداقيتها.

وقد ورث د. بطرس غالى هذه التركة المثقلة، وشرع دون تهيب وبأستاذيته المعهودة فى دراسة الأوضاع ووضع الحلول والأولويات، فأصدر «أجندة السلام» التى بسط فيها أشكال عمليات تدخل الأمم المتحدة وطرقها وآلياتها، وانصب الرافد الآخر لاهتماماته على التنمية، فوضع «أجندة التنمية» حدد فيها محاورها ومقتضياتها، لأنه كان يرى- كما جاء فى هذه الأجندة- أن السلام الحقيقى لن يتحقق إلا بالتنمية، لم يتوان فى بذل قصارى جهده لحل منازعات الصومال ويوجوسلافيا حيث خاطر بنفسه، وتولى زمام الأمور وضاعف من مبادراته التى أثارت الجدل وخلقت له المتاعب، فلم يسلم من النقد أو من ألاعيب القوى الفاعلة وسوء نياتها وتضارب مصالحها، ولما كشفت هذه المنازعات عن استحالة قيام الأمم المتحدة بمفردها بإدارة عمليات إحلال السلام، أضحى د. بطرس غالى التجسيد الحى لهذا الضعف والعجز فى حين أنه يعزى أساسًا إلى تخاذل الدول الكبرى وعدم مبالاتها.

ولم يضعف د. غالى أو يتردد وكان أول من جاهر بقناعاته وأفكاره.

وما مشكلة نشر الأمم المتحدة لتقرير مذبحة «قانا» سوى القشة التى قصمت ظهر البعير كما يقولون. فأظهر ماكان يعتمل فى صدور المسئولين فى الولايات المتحدة، إلى الحد الذى أعلنوا فيه صراحة وقوفهم ضد ترشيحه لولاية ثانية، وهى الولاية التى أوقن أنه لايسعى إليها طمعًا فى المنصب أو فى بريقه، بل شعورًا منه بالمسئولية، ورغبة فى إنجاز المهمة المستحيلة المتمثلة فى وضع برنامج إصلاحاته موضع التفنيذ بعد أن تبلور هذا البرنامج ونضج نتيجة تجارب وممارسات دامت خمس سنوات، وذلك من أجل إقالة الأمم المتحدة من عثرتها وإخراجها من دائرة الخطر، وتفعيل أنشطتها وإعادة دورها الحيوى فى خدمة المجتمع الدولى الذى يخطو نحو قرن جديد لاتدعو طلائعه ومقدماته المنطقية إلى التفاؤل كما أنها لا تبشر بالخير.

د. غالى وحفظ السلام الدولى*

فى مقال سابق لنا (الأهرام ١٩٩٦/٧/٢٣) تحدثنا عن رغبة د. بطرس غالى فى إنجاز مهمته المستحيلة المتمثلة فى وضع برنامج إصلاحاته موضع التنفيذ.

ونتحدث فى مقال اليوم عن مهمته فى حفظ السلام فى العالم.

لقد كان التحدى الذى واجه د. بطرس غالى عندما انتخب أمينًا عامًا للأمم المتحدة عام ١٩٩١، هو نوع من التحدى المزدوج، أولاً، الأمانة العامة للمنظمة التى كانت تشبه سفينة غارقة بحمولتها الزائدة، وثانيًا، عمليات حفظ السلام فى العالم، وهى العلميات التى أولاها د. بطرس غالى كل جهد، ولم يتوان ليل نهار فى معالجتها رغم الصعوبات والعراقيل التى اعترضته. وعمليات حفظ السلام هذه قد ولدت فى الأصل بطريق المصادفة المحضة تقريبًا، كانعكاسات للحرب الباردة. ولم ترد إليها إشارة صريحة فى أى مادة من مواد ميثاق الأمم المتحدة الصادر عام ١٩٤٥. ولذلك كان التعامل معها يختلف من جيل إلى آخر ومن عصر إلى آخر، إلا أنها بنيت منذ البداية على عدة مبادئ أساسية، منها موافقة الدولة التى ستنتشر القوات الأممية فى أراضيها، وعدم اللجوء إلى القوة إلا فى حالة الدفاع الشرعى عن النفس، وعدم التدخل فى الشئون الداخلية للدولة المعنية. وقد أصبح مفهومها على مر الأيام هو مفهوم بناء سلام دائم وإحلاله فى عالم كان غارقًا فى دوامة هموم المرحلة الانتقالية بعد أن مات العالم القديم فعلاً دون أن يولد عالم جديد بعد. ولكن هذا المفهوم المتكامل لم ينجح فى كل الحالات لتدخل الدول الأعضاء بشكل سافر فى مسيرة هذه العمليات. وعلى سبيل المثال استخدم الأمريكيون علم الأمم المتحدة أثناء حرب الخليج بأكثر مما خدموه، كما وقعت قوة حماية الأمم المتحدة فى يوجوسلافيا السابقة فى الفخ بحجة العمل الإنسانى. وغابت الإرادة السياسية المشتركة للقوى العظمى، التى بدلا من أن تعمل فى تناغم وتناسق، لجأت بشكل واضح إلى العمل الانتقائى من الباطن، كما فى حالة فرنسا (رواندا- عملية أتيركواز) أو الولايات المتحدة (هايتى- عملية مساندة الديمقراطية) وكان لانتصار

---

* جريدة الأهرام ١٩٩٦/٩/١٩.

الجمهوريين فى الكونجرس الأمريكى عام ١٩٩٤، أن زاد ميل واشنطن للعزلة وتقييد مشاركتها فى عمليات حفظ السلام، والمعروف أن واشنطن هى التى تقوم بتمويل نسبة ٣١,٧٪ من مجموع عمليات حفظ السلام (مقابل نسبة ٣٦٪ للاتحاد الأوربى) علمًا بأن هذه العمليات وصلت ميزانيتها إلى ما يزيد على ٤,١ مليار دولار أمريكى.

موأمام تصاعد هذه العمليات وكثرة الطلب عليها اقترح د. بطرس غالى على مجلس الأمن فى فبراير ١٩٩٥، إنشاء قوة انتشار سريعة استجابة لحالات الطوارئ، ولكن المجلس رفض هذه المقترحات رغم أهميتها البالغة لإحلال السلام على أسس مبادئ الدبلوماسية الوقائية التى نادى بها الأمين العام.،

ووضعًا للأمور فى نصابها نوجز هنا هذه العمليات فالأمم المتحدة تضطلع حاليًا بخمسة عشر عملية من عمليات حفظ السلام فى العالم على النحو التالى:

- منظمة الأمم المتحدة للإشراف على الهدنة فى فلسطين، التى أنشئت عام ١٩٤٨.
- مجموعة المراقبين العسكريين للأمم المتحدة فى الهند، التى أنشئت فى عام ١٩٤٩.
- قوة الأمم المتحدة المكلفة بمراقبة فض الاشتباك بين القوات الإسرائيلية والسورية، التى أنشئت عام ١٩٧٤.
- قوات الأمم المتحدة المؤقتة فى لبنان، التى أنشئت عام ١٩٧٨.
- بعثة مراقبى الأمم المتحدة إلى العراق والكويت، التى أنشئت عام ١٩٩١.
- بعثة مراقبى الأمم المتحدة إلى السلفادور، التى أنشئت عام ١٩٩١.
- قوات الحماية للأمم المتحدة فى يوجوسلافيا السابقة، التى أنشئت عام ١٩٩٢.
- عملية الأمم المتحدة فى موزمبيق، التى أنشئت عام ١٩٩٣.
- بعثة الأمم المتحدة فى الصومال، التى أنشئت عام ١٩٩٣.
- بعثة الأمم المتحدة للمراقبة فى ليبيريا التى أنشئت عام ١٩٩٤.
- بعثة الأمم المتحدة للمراقبة فى جورجيا، التى أنشئت عام ١٩٩٣.
- بعثة الأمم المتحدة للمساعدة فى رواندا، التى أنشئت عام ١٩٩٣.

ومما سبق يتبين أن الأمين العام الحالى قد تحمل العبء الأكبر من هذه العمليات التى قفزت قفزة نوعية وكمية فى آن واحد، تصدى لها وحاول توجيهها بشكل رشيد مع تحديد أهدافها ووسائلها لكى تنجح، ومع ذلك لم تستطع الأمم المتحدة وضع حد

للمشاحنات السياسية والصراعات القبلية فى الصومال. وأرجع مجلس الأمن هذا الفشل إلى عجز الصوماليين عن تنظيم أنفسهم، وقرر وقف العملية. أما فى البوسنة، فلم تتقاعس قوات الأمم المتحدة عن أداء مهمتها. بل كانت الإرادة هى التى تعوز الأوربيين أولا والأمريكيين ثانيًا لوضع حد وفى وقت مبكر لرغبة التوسع العدوانى الصربى بوقفة عسكرية صلبة وحاسمة.

وأخيرًا، فإن الأزمة المالية للمنظمة التى جاءت نتيجة امتناع أمريكا عن دفع حصصها، هى التى أدت إلى صعوبة تمويل عمليات حفظ السلام، وكانت المحصلة النهائية أن المتأخرات التى تقد بنحو ٢ مليار من الدولارات الأمريكية لا تهدد فحسب مواصلة العمليات الجارية، ولكنها تعرض الأمم المتحدة برمتها إلى مصيرها المحتوم من الفشل النهائى واللحاق بتجربة سابقتها عصبة الأمم!



رياح التغيير فى واشنطن*

لقد زلزل نبأ تعيين الآنسة مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الولايات المتحدة الأمريكية، الأوساط السياسية والدبلوماسية فى معظم أنحاء العالم، كما أنه وقع كالصاعقة على العديد من العواصم العربية التى تعى تمامًا معنى هذا التعيين وتداعياته فى المستقبل، فمواقفها المتصلبة ضد المصالح العربية، وتعاطفها مع إسرائيل فى الأمم المتحدة هى أمور لا تخفى على أحد، ناهيك عن موقفها الشرس والمتعنت ضد إعادة تعيين السياسى المحنك والدبلوماسى المهذب د. بطرس بطرس غالى، وذلك لمجرد إفساح الطريق أمام اختيار صديقها الحميم الغانى كوفى أنان، الأمين العام المساعد الحالى المكلف بعمليات حفظ السلام. لهذا المنصب.

ولدت الآنسة مادلين أولبرت منذ ٥٩ عامًا فى مدينة براغ بتشيكوسلوفاكيا سابقًا، وكان والدها دبلوماسيًا بوزارة الخارجية، هاجر هو وعائلته إلى انجلترا بعد ضم ألمانيا النازية لبلاده، ثم استقر فى الولايات المتحدة الأمريكية وكان عمر ابنته فى ذلك الوقت ١١ سنة. وقد عينت مادلين أولبرايت بعد تخرجها فى جامعة جورج واشنطن أستاذة للعلوم السياسية التى تخصصت فيها وشغلت هذا المنصب فى الجامعة نفسها حتى اختارها الرئيس الأمريكى بيل كلينتون مندوبة للولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة. وها هو يقوم بعد انتخابه لولاية ثانية بتعيينها على رأس الدبلوماسية الأمريكية لكى تصبح السيدة الثانية فى الولايات المتحدة الأمريكية.

ولاشك أنها ستجد سندًا قويًا فى الجمهورى وليم كوهين الذى عينه الرئيس الأمريكى على رأس وزارة الدفاع (البنتاجون)، كما أنها ستحظى بدعم أكيد من رئيس الأركان الجديد الجنرال جون شاليكا شفيلى الذى ثبته الرئيس كلينتون مؤخرًا فى هذا المنصب، وهو نفسه قد تربى فى بولندا وهاجر إلى أمريكا، ومن ثم فهو يقاسمها نفس الإرث السياسى ونفس الأفكار المعادية لروح ميونيخ، أى ضد سياسة إيجاد حل وسط للمشاكل بأى ثمن، وغير خاف أن علاقة الآنسة مادلين أولبرايت الوطيدة بسيدة أمريكا الأولى هيلارى كلينتون كانت وراء هذا التعيين وقد ظهر ذلك جليًا عندما اصطحبتها معها فى زيارة مدينة براغ- موطن ميلادها- فى الصيف الماضى- وبطبيعة الحال، فلسنا هنا بصدد مناقشة حسن هذا الاختيار أو حتى المجادلة فى حصافته، فهذه

* جريدة الأهرام ١٩٩٦/١٢/٩.

الأمور تدخل ضمن أعمال السيادة، وهى أيضا من صميم الشئون الداخلية لهذه الدولة العظمى التى تسيطر الآن على مقادير العالم ومقدراته.

ولكن ما لاجدال فيه أن هذه الرياح العاتية ستفرض على العرب كافة، المزيد من اليقظة والحذر حتى لا تطغى الغطرسة على كل القيم الأخرى، وحتى لايكون ذلك إيذانًا باقتراب أشراط الساعة وعلاماتها، ومن بينها «إمارة الصبيان وسلطان النساء ومشورة الإماء» فالعرب الآن فى مفترق الطرق وهم أحوج ما يكونون إلى لم الشمل وتوحيد الصفوف وجمع الكلمة فى هذه الأوقات العصيبة التى تمر بها عملية السلام فى الشرق الأوسط بمرحلة حرجة، ربما كانت هى الفاصلة فى أن نكون أو لا نكون!



أمريكا وسياسة الانتظار*

قد يظن البعض منا نحن العرب أن الإدارة الأمريكية الجديدة برئاسة جورج بوش الابن تحتاج إلى بعض الوقت لترتيب أوراقها فى الداخل والوصول إلى رسم سياستها فى الخارج، وذلك باعتبار أن هذه الإدارة الجديدة- ككل إدارة أمريكية- لايعنيها أولا سوى المصالح الأمريكية وخاصة مصالح شعبها داخليًا كالتعليم والصحة والضرائب وغيرها.. غير أنه من السذاجة الاعتقاد بأن هذه الدولة العظمى وإدارتها الجديدة لا تملك تصورًا واضحًا لخطوط سياساتها الخارجية، فهى تعلم تمام العلم مداخل ومخارج مايجرى من أمور فى جميع أنحاء العالم، ولم تتوقف طائراتها للتجسس لحظة واحدة عن الطواف ليل نهار لالتقاط الصور وتجميع البيانات والمعلومات، كما لم تتوقف مراكز دراساتها عن سبر أغوار السياسات فى مختلف مناطق المعمورة ووضع استنتاجاتها وخلاصاتها أمام صانعى القرارات.

فمن المؤكد أن وزير الخارجية الأمريكى الجديد الجنرال كولين باول، وعندما وصل إلى الشرق الأوسط، كان على إحاطة تامة بخطة عمل الإدارة الجديدة وباستراتيجيتها فى هذه المنطقة، وكان مدركًا تمام الإدراك لما يدور فى أذهان القادة العرب بالنسبة للقضايا الأساسية مثل قضية فلسطين فى المقام الأول، والوضع بالنسبة لحصار الشعب العراقى، فهو لم يكن يجهل بأى حال من الأحوال استياء بعض الشعوب العربية مما وصل إليه الحال فى فلسطين أو فى العراق، ولذا فقد جاء وفى جعبته مقولات للتخفيف من هذا الاستياء العارم.

وترك الوضع على حاله بين الفلسطينيين والإسرائيليين على أمل أن يحين الوقت الذى يكون فيه الطرفان على استعداد للتفاوض فما بينهما، وبعدما تكون إسرائيل قد حققت ما تصبو إليه من وقف الانتفاضة وخنق الشعب الفلسطينى أمنيًا واقتصاديًا.

إن المعادلة السياسية الأمريكية الحالية تتألف على ما يبدو - من عدة نقاط أساسية أهمها:

تعزيز أمن إسرائيل وسلامتها، ومنع إرسال أى قوات دولية لحماية الشعب الفلسطينى، حتى لا يصل الأمر إلى تدويل هذه القضية التى يعتبرها اللوبى الصهيونى الأمريكى بمثابة قضية أمريكا الأولى التى لاينبغى لأحد أن ينافسها فيها. وهذه

* جريدة الأهرام ٢٠٠١/٤/٨.

السياسة أقل ما يقال عنها إنها سياسة قصيرة النظر بل وخطيرة. وللأسف الشديد، فإن الأوروبيين يدركون ذلك. ويتوجسون منه خيفة ويتوقعون منه شرًا جسيمًا، ولكنهم لايجسرون أمام تردد أمريكا وبتمسكها بسياسة الانتظار هذه. على اتخاذ أى خطوة فى الاتجاه الصحيح.

ولاشك أننا فى وطننا العربى، مطالبون بمراجعة شاملة لمواقفنا حيال سياسة الانتظار هذه واتخاذ سياسات واستراتيجيات حاسمة تجاه ما يتعرض له شعب فلسطين من حرب عشوائية مدمرة وشاملة، فالموازنات السياسية العالمية تستلزم منا الآن البحث عن إجابات صحيحة ومحددة على الأسئلة المطروحة، ووضع حسابات دقيقة وواقعية لتحديد خطوط المستقبل وأبعاده واحتمالاته. فلم يعد بإمكاننا انتظار الفعل للقيام برد الفعل، بل علينا أن نتحوط للأمور بسياسة تقوم على المصارحة والمصالحة وعلى الترغيب والترهيب. فقد يرى الساسة الأمريكيون أنهم على حق فى اتباع سياسة الانتظار هذه التى تحقق لهم أهدافهم، وبعد أن وقفوا جيدًا على نقاط ضعف العالم العربى فى الوقت الراهن، ولكنهم على أى حال لايرون بذلك قمة الجليد التى تحجب رؤيتهم وتمنعهم من الوقوف على نقاط قوة هذا العالم العربى التى تكمن فى شعوبه التى حاربت طوال تاريخها ضد القهر والاستعمار، والتى تعلم عن يقين أن الحق دائمًا هو المنتصر، وأنه سيعود فى يوم ما إلى أصحابه ولو طال الانتظار.



عصبة الأمم والجامعة العربية*

جسدت جامعة الدول العربية منذ تأسيسها فى عام ١٩٤٥، آمال الأمة العربية وتطلعاتها إلى جمع كلمتها ولم شملها، حيث تبلورت طموحات الوحدة والاتحاد، ولاشك أن ما قامت به الجامعة العربية من أعمال وما حققته من إنجازات هو أمر لا ينتطح فيه عنزان كما يقال، فسجلها حافل بجلائل الأعمال وبعقد الاتفاقات والمعاهدات الدولية فى مختلف المجالات الثقافية والدفاعية والاقتصادية وغيرها من المجالات الأخرى. ولكن للأسف الشديد، ظلت هذه المعاهدات والمواثيق حبرًا على ورق ولم تأت بنتائجها المرجوة التى كان العرب يطمحون إليها ويبتغون ثمارها. ومن عجائب المفارقات أن نرى النقيض قد تحقق، فالروابط العربية قبل الحرب العالمية الأولى، كانت أقوى بكثير منها الآن، بل وضعفت هذه الروابط بعد قيام الجامعة العربية، وانتفى العالم العربى الذى كان واحة العرب يتنقلون بين أرجائه ويستقرون فى جنباته ويتبادلون إنتاجه الثقافى والعلمى ويتداولون كتبه وصحفه ومجلاته دون حدود أو سدود، ولاغرو فى ذلك، فقد اختلف الوضع منذ ذلك التاريخ بالنسبة للعديد من الدول العربية التى قفزت بعد استقلالها الوطنى قفزات واسعة صوب تحقيق النهوض فى شتى الميادين الحضارية، وتعددت مشاريها واختلفت طرائقها فى تحقيق هذا النهوض، وطغت الخصائص الجغرافية القومية على السمات التاريخية، ولاشك أيضًا فى أن الأوضاع العالمية التى استجدت والمتغيرات الدولية التى طرأت على العالم الغربى من حولنا والتى تجسدت فى التكتلات الإقليمية التى ظهرت فى القارات الأوروبية والأمريكية والآسيوية، ناهيك عن تلك التكتلات التى حدثت فى العالم العربى ذاته، قد قلصت من دور الجامعة العربية وأضعفته، وعلى سبيل المثال، فإن الاتحاد الأوروبى أصبح حقيقة واقعة رغم أنه ليس من فعل الطبيعة ولا من صنع التاريخ أو الجغرافيا، فكما هو معروف ليست أوروبا بالإقليم الطبيعى، بل على العكس فهى أكبر منطقة تكتنفها الحواجز والقواطع والفواصل، ورغم ذلك توصلت بعد جهد جهيد إلى نوع من الاتحاد القائم على الحضارة المشتركة والمصالح المتبادلة.

والحال الذى وصلت إليه الجامعة العربية وهيئاتها الإقليمية المتخصصة، الآن، يشبه إلى حد كبير ما وصل إليه حال عصبة الأمم التى ولدت بعد الحرب العالمية الأولى فى جنيف عام ١٩١٩، وفشلت هى الأخرى فى تحقيق ما رسمه لها الرئيس الأمريكى

---

* جريدة الأهرام ٢٠٠٣/٨/١٦.

ويلسن فى نقاطه الأربع عشرة الشهيرة التى شكلت خطته للسلام بعد الحرب العالمية الأولى. فهذه العصبة لم تحقق آمال الشعوب فى الأمن الاجتماعى المنشود أو فى التحكيم أو فى نزع السلاح، وهى الدعائم الثلاث التى قام عليها ميثاق عصبة الأمم التى انهارت تمامًا وعرفت سقوطها الأخير فى ١٩٣٩ عند قيام الحرب العالمية الثانية. ولكن العقلاء فى أمريكا وانجلترا وروسيا قرروا بعد انتهاء هذه الحرب ضرورة إنشاء منظمة جديدة لبناء مجتمع دولى متكامل ومسالم تجسدت معالمه فى ميثاق الأمم المتحدة الذى دخل حيز النفاذ فى سان فرانسيسكو عام ١٩٤٥.

والرأى عندى أن على حكماء العرب اليوم أن يتدبروا أمورهم بنفس الطريقة ويفكروا بأسلوب رشيد يقوم على الحقائق والثوابت الآنية، من أجل معاودة النظر فى جامعتهم العربية التى تتعثر يومًا بعد يوم بسبب الموجة العاتية من العداء المدفون ضد حضارتنا وثقافتنا وعاداتنا بل وهويتنا ومعتقداتنا، لاسيما بعد انهيار النظام العراقى واحتلاله، وتفاقم العدوان الإسرائيلى على فلسطين، وكلها أمور تدعونا إلى التفكير فى إنشاء هيئة عربية جديدة قد تحمل اسم «منظمة الدول العربية» مع ميثاق لها يجسد آمال العرب وأحلامهم، وينزع عنهم كابوس الفرقة والتشرذم الذى نعانى منه منذ عقود.

وهذه المنظمة الجديدة لابد لها من أن تعتمد على الشعوب وعلى قواعد الشعوب العريضة، وأن تستمد قوتها وعنفوانها من إقامة العدل وإعمال القانون واحترام حقوق الإنسان العربى المدنية والسياسية والاقتصادية والثقافية وحرياته الأساسية، وأن تضع كل ذلك بأيديها لا بأيدى الآخرين الذين يجاهرون كل يوم ولايتورعون تصريحًا وتلميحًا بأنهم سيزرعون ديمقراطيتهم العلمانية الليبرالية فى عالمنا العربى!

ولاشك أن كل ذلك يحتاج إلى المزيد من الدراسة المطولة والمتعمقة للوصول إلى صيغة عصرية للعمل الجماعى العربى، وهو أمر إذا توفرت الإرادة السياسية وخلصت النوايا وتضافرت الجهود لقيام هذه المنظمة التى نتمنى أن تبزغ مع بزوغ عهد عربى جديد تسوده الحرية وروح التآخى والتآزر، وتحكمه معايير تعاليمنا وعاداتنا وأخلاقياتنا.



الفصل الثانى

فى ذكرى العلامة الراحل الدكتور جمال حمدان

في ذكـــراه:

جمال حمدان يتحدث عن حضارة مصر*

لم يكتف صاحب شخصية مصر عندما تناول بالبحث حضارة مصر، باعتبارها إحدى ركائز تلك الشخصية وأحد وجوهها المضيئة، بنقل أو سرد ما قيل أو كتب عن هذه الحضارة شرقًا وغربًا، بل اجتهد بتفكيره العلمى الأصيل، وبمنهجيته الموضوعية المعهودة، فى التغلغل عبر أصول هذه الحضارة وجذورها، وفى سبر أغوار مكوناتها وحقائقها، وفى البحث عن كنوزها ومقوماتها، كل ذلك بأسلوبه السهل الممتنع.

وسنحاول هنا وبإيجاز شديد عرض بعض ما كتبه عن هذه الحضارة. فقد أرجع فى كتاباته ودراساته تاريخ هذه الحضارة أولا إلى النتيجة المتغيرة على مر العصور للشد والجذب بين قوتى العزلة والاحتكاك، أى الموضع والموقع على الترتيب. واتباعًا منه لهذا النهج، قام بتقسيمها إلى أربع مراحل هى: مرحلة صناعة الحضارة، ثم مرحلة تصديرا لحضارة، ثم مرحلة الاكتفاء الذاتى، وأخيرًا مرحلة استيراد الحضارة.

فأما مرحلة صناعة الحضارة فتتفق مع مرحلة التاريخ النهرى حين كانت مصر مشتلاً ممتازًا لتأصيل حضارة مبكرة سباقة مادتها الخام هى فيض النهر. وبذلك كانت مصر مصنعًا لحضارة انبهرت لها الشعوب المجاورة، كما كان لها طابع خاص يتسم بقوة الشخصية والتفرد. وقد كان طبيعيًا مع توسع شبكة الاتصالات فى العلم أن يزداد احتكاك مصر بالخارج بعد خروجها من مرحلة الأنهار إلى مرحلة البحار، وأخذ هذا الاحتكاك شكل «تصدير الحضارة» فأصبح «مصنع» الحضارة «متجرا» لها أيضًا. وتلك حقيقة عرفتها فينيقيا والشام حتى ميديا وأرض الحيثيين، بل وامتدت عناصرها إلى بابل وآشور. فأخذت هذه الشعوب فن الملاحة عن مصر. كما كانت توجد هناك جاليات مصرية من التجار أو الموظفين أو المحاربين فى العصور الفرعونية. كما ظهر نفوذ مصر الحضارى على يهود العهد القديم، والذين كانوا تابعين لمصر سياسيًا أغلب تاريخها سواء كانوا داخل أرضها أو فى أرض فلسطين، فالحضارة المصرية دمغت - كما يؤكد جمال حمدان - كل وجودهم المادى والأدبى بل والدينى نفسه المشبع بتأثيرات مصرية عميقة ابتداء من معمار سليمان إلى مزامير داود. كما أن تشتت اليهود وانتشارهم فيما بعد، فقد كان عامل نشر وتمديد غير مباشر للمؤثرات المصرية على نطاق العالم الأوروبى، وإن كان ذلك بدرجات مخففة أو مختلفة.

وهو يرى، والحال هذه، أن العصر العربى الإسلامى ما هو إلا امتداد لمرحلة تصدير

الحضارة المصرية. فرغم أن مصر تمثلت الثقافة العربية كلية، فإن النهضة الحضارية العربية التى حدثت من تفاعل العرب مع أبناء البلاد التى دخلوها هى نتاج مشترك أساسًا. وكانت اللهجة المصرية دائمًا أقرب لهجة عربية إلى الاستقامة والاعتدال.

بل إن ممارسة الإسلام نفسه فى مصر بلغت على يد هذه الحضارة العربية درجة من الرصانة والاستواء جعلت من أزهرها قلعة الإسلام وكعبة العلوم الإسلامية، وتكونت فيها طليعة سدنة الإسلام وحفظة تراثه والقوامين عليه.

وبعد أن تحولت مصر مع بقية الشرق العربى إلى العزلة مع بداية العصر المحيطى، فكانت مرحلة الاكتفاء الذاتى فى حدود الدائرة الإسلامية. وحين انتقلت قبلة الحضارة العلمية من الشرق إلى الغرب، واقتحمت الحضارة الحديثة أركان الأرض، وراحت تغزو الشرق كله حضاريًا، لم يعد للعزلة مكان، ومن هنا بدأت قصة مرحلة «استيراد الحضارة». غير أن هذه العملية لم تكن عملية إحلال أو ذوبان، بل كانت أساسًا عملية تبادل حضارى خرجت منه الشخصية المصرية، كما كانت دائمًا ذات طابع قوى دفين، ولم تفقد قوامها الأصيل.

ويخلص جمال حمدان من كل ذلك إلى نتيجة أساسية، وهى أن دور مصر الحضارى لم يختف عبر العصور وإن اختلف من عصر إلى عصر، فكانت إما صانعة الحضارة وإما حافظتها. وفى ذلك يقول «من المرجح أن مصر فى النهاية قد أعطت العالم على مدى تاريخه عمومًا أكثر مما أخذت. والعبرة الآن أن مصر تأتى بالضرورة فى وضع وسط على خريطة العالم، ولا ننسى أنها بمقياس الشرق سباقة ومتقدمة، وكانت منذ أوائل القرن الماضى رائدة فى كثير من وجوه التحضر، بل وكادت أن تلاحق الغرب فى بعض إنجازاتها الحضارية الجديدة».

ويعود ليؤكد أن «مصر وإذا لم تكن على عتبة الدولة العصرية بعد، فالثابت أنها لم تعد بعيدة كل البعد. وربما لن تأتى سنة ٢٠٠٠ (كتبت هذه الدراسة فى الثمانينيات وجاءت وفاته المفجعة فى أوائل التسعينيات) إلا وهى كذلك بالفعل. فالموقف كله إنما يذهب ليؤكد توسط موقع مصر بين العالم النامى والمتقدم، قبل البترول كما بعده. إنها قمة، أو على الأقل إحدى قمم العالم النامى، سواء كان عالمًا ثالثًا فقط أو ثالثًا ورابعًا معًا».



«منهجية الأصالة والحداثة» عند جمال حمدان*

أقام جمال حمدان فى ملحمته «شخصية مصر» صرحًا علميًا شامخًا ودرة ثقافية نادرة، تغنَّى فيها بكل ركن من أركان مصر حيث خلد عبقريتها إن مكانًا أو زمانًا. واستخدم فى كل ذلك طرق البحث العلمى الحديثة ومناهج التأصيل الأكاديمى، والدارس المتعمق لكتاباته سرعان ما يفطن إلى هذه المعادلة الصعبة التى طورها جمال حمدان تطويرًا علميًا. فهو يوظف الجغرافيا - وهى تخصصه الدقيق - لغايات أسمى، مازجًا بين فلسفتها وفلسفة التاريخ، وجامعًا بينها وبين علوم وفنون شتى لكى يصل فى نهاية المطاف إلى نوع من المعرفة بأسلوب مبتكر يخرج عن المفهوم التقليدى لهذا العلم أو ذاك. كما اتسمت مؤلفاته بصرامة علمية ومنهجية لا تسمح بأى نوع من الانفلات أو التسيب، مع قدرة خارقة على التحليل العميق وعلى التوليف السليم بين الأصالة والحداثة، بل واستشراق المستقبل. فهو لا يتناول أى موضوع من الموضوعات إلا بعد دراسات مستفيضة والرجوع إلى مصادره ومظانه سعيًا وراء الحقيقة مهما كلفه ذلك من مشقة ونصب. فهو الذى يطرح الأسئلة ويحاول فى الوقت ذاته العثور على إجابات لها، وكان لا يلبث يلح فى البحث ويلح فى التساؤل إلى أن يصل إلى بغيته. وكان - ككل العلماء الجديرين بهذا اللقب - يتفوق على تخصصه بل ويتخطاه لكى يضع معارفه العلمية فى السياق الشامل والطبيعى للتاريخ الكلى، أى التاريخ الذى يجمع بين الحضارة والمعرفة والثقافة والسياسة وغيرها من العلوم الأخرى، فكان بذلك يصل العلم بحياة الناس ومشاكلهم ويعطى المؤشرات السليمة لحلها، كل ذلك بطريقته العلمية الجادة.

يقول جمال حمدان فى مقدمته لعمله الخالد «شخصية مصر»: «اجتمعت فى هذا العمل كل «الثنائيات» المعروفة فى الجغرافيا: الأصولية والإقليمية؛ الطبيعية والبشرية والتاريخية والمعاصرة... وإن عملاً بهذا الحجم والطبيعة قد يبدو موسوعيًا بالضرورة، غير أنه فى الحقيقة أبعد شىء عن أن يكون موسوعة، بل هو بحق النقيض المطلق للموسوعة، قل ضد - موسوعة، وإنما هو ملحمة بكل معنى الكلمة، إلا أنها ملحمة علمية بالدرجة الأولى. وهو أيضًا وبطبيعة الحال بحث علمى أكاديمى ومصنف ضاف

---

* جريدة الأهرام ١٧ / ٤/ ١٩٩٦.

يعتمد على مئات المصادر والمراجع، إلا أنه قبل ذلك وبعده نظام فكرى ونسق منهجى ومعمار بنيوى هدفه الأصالة والخلق والجدة والحداثة والابتكار أساسًا».

ومن الصعب، بل ومن المستحيل أن نأتى هنا فى هذه العجالة على دراسة كل أفكاره ونظرياته، فالأمر يحتاج إلى مجلدات طويلة وقراءة متأنية ومتعمقة لمؤلفاته وأبحاثه، وإلى تأمل الرؤية العميقة التى قدمها عن المصريين بصفة خاصة والعرب بصفة عامة. ففى بحثه عن تاريخ مصر المنسى القديم، على سبيل المثال، بدأ فى طرح أسئلته على النحو التالى: نحن المصريين، من نكون؟ ما الأصل والعرق والنسب؟ ومتى ظهر المصريون كشعب وكشعبة من البشر؟ كيف يبدون اليوم شكلا؟ وأين يقع الإنسان المصرى فى العائلة البشرية؟ أيبدى المصريون من التجانس البشرى الجنسى مثلما تبدى مصر من التجانس الطبيعى والمادى والحضارى وغير ذلك؟... وجاءت ردوده على هذه الأسئلة دراسة جامعة مانعة تدرَّج فيها من عصور ما قبل التاريخ إلى يومنا هذا، موثَّقة بالمراجع ابتداء من المقريزى وابن إياس ومرورًا بالجبرتى وعلى باشا مبارك وانتهاء بعلماء الغرب من أمثال مايرز وفيشر وإليوت سميث وبيترى، ومن علماء الشرق من أمثال محمد عوض محمد وعباس عمار وشفيق غربال وسليمان حزين.

وقد اخترنا أن نورد هنا ما خلص إليه جمال حمدان من استنتاجات تتعلق بالسد العالى، بعد أن درس هذا الموضوع من كل جوانبه وحلل إشكالياته وماله وما عليه. فقد كتب فى الجزء الثانى من موسوعته وتحت عنوان «السد العالى فى الميزان»: «طبيعى أن يكون السد العالى، كأى مشروع من نوعه وحجمه، موضع جدل وخلاف منذ نشأته بل ومن قبل إنشائه ومن بعده. على أن الملاحظ أن معظم ما قيل وما يقال عنه يتطرق عادة إما نحو التهويل وإما نحو التهوين، إيجابًا وسلبًا... أما وبعد أن أصبح السد العالى حقيقة واقعة فإن هناك، مازال، من يتساءل عما إذا كانت مصر قد أصابت أم أخطأت فى بنائه. بل لقد تعرض السد فى السنوات الأخيرة إلى حملة محمومة شككت حتى فى سلامة بنائه فنيًا، بينما صورت نتائجه على أنه «كارثة على مصر»، ونعتته «بكارثة أسوان». «غير أننا يجب أن نتذكر أن هذه الحملة الضارية إنما بدأتها عناصر معادية لمصر، وعناصر صهيونية بصفة أساسية.. والخلاصة الصافية أن السد العالى وإن كان قد تحاشى الموقع خارج الحدود وحقق شرط الموقع الوطنى ضمانًا للأمن القومى سياسيًا، فإنه لم يفلت من أخطار الأمن القومى لا طبيعيًا ولا عسكريًا». وهكذا كانت

طريقته الفذة فى تناول الموضوعات بمنهجية تجمع بين أصالة التفكير وحداثة المنهج دون أن يستخلص مما يكتبه أحكامًا أو أقوالاً مبتسرة غامضة يتأولها كما كان الناس يتأولون أقوال الكهنة، ولكنه كان يتبين بنور عقله ويستشف بقوته المبصرة ما حدث وما يحدث. وكانت هذه الأصالة والحداثة تتجلى فى تقديره للغايات البعيدة وفى حسابه للمقدمات التى تؤدى إليها. فالعلم عنده لم يكن مجرد سرد أو إثبات وقائع أو تقرير حقائق، وإنما ربط الواقع والحقائق بعضها ببعض على نظام متسق ومطرد وشامل يصدق على أوسع مدى، وهذا الاتساق والاطراد والشمول صفات لا يبلغها العالم إلا عند إدراكه لأكبر عدد من الظواهر المتشابهة والمعارف المتكاملة.



فى ذكــــراه الرابعة:

صاحب «شخصية مصر» فى الأدبيات العالمية*

منذ أواخر الثمانينيات وحين انتهى جمال حمدان من إخراج ملحمته العلمية «شخصية مصر - دراسة فى عبقرية المكان»، ظهرت عدة كتابات فى الدوائر الجامعية الأجنبية تناولت بالدرس والتحليل ما جاء فى هذه الموسوعة الفذة من آراء وأفكار، وسلطت الضوء على ما ذخرت به من إنجازات إبداعية استكشف فيها المؤلف عبقرية مصر إن مكانًا أو زمانًا، وناقش على مدى أربعة آلاف صفحة من القطع الكبير هذه العبقرية وخصائصها ومرتكزاتها الحضارية. فصدرت عدة كتابات يذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الدراسة التحليلية النقدية التى كتبها الأستاذ أولريش هارمن، الأستاذ فى جامعة فرانكفورت ونشرها عام ١٩٨٧ فى المجلة التى تصدر فى أمريكا عن رابطة دراسات الشرق الأوسط. كما قام أحد أساتذة جامعة ماكجيل بكندا بنشر دراسة بالفرنسية فى نفس السنة تناول فيها ما كتبه جمال حمدان حول القومية العربية.

وكان لرحيل هذا المفكر العالم صدى كبير فى الدوائر العلمية فى الداخل والخارج وامتلأت الأدبيات بتعليقات ودراسات حول فكره وأعماله بعد وفاته.

وسنقتصر فى هذا العجالة على الدراسة التى صدرت مؤخرًا فى اليابان بقلم الأستاذ ايجى ناجاساوا، الأستاذ بجامعة طوكيو تحت عنوان: مركزية مصر: دراسة حول «شخصية مصر لجمال حمدان». وقبل أن نشرع فى تفصيل ما جاء فى هذه الدراسة القيّمة، تجدر الإشارة هنا إلى أن الدراسات العربية الإسلامية تحظى فى الوقت الراهن بمكانة متميزة فى الجامعات والمراكز البحثية فى طوكيو وفى غيرها من مدن اليابان الكبرى. فجامعة طوكيو على سبيل المثال تضم معهدًا للثقافة الشرقية يعمل به عدد كبير من الأساتذة المتخصصين فى الدراسات العربية والشرق أوسطية. وأنشئت منذ عدة سنوات الرابطة اليابانية لدراسات الشرق الأوسط تحت رئاسة يوزوايتا جاكى. ويبلغ عدد أعضائها نحو ستمائة عضو، وتصدر مجلة دورية تهتم بالبحوث والدراسات المتعلقة بالثقافات والحضارات العربية الإسلامية.

---

* جريدة الأهرام ٢٠/ ٤/ ١٩٩٧.

وقد اهتم الأستاذ ناجاساوا بظاهرة جمال حمدان، وقام بزيارة مصر عدة مرات منقبًا وباحثًا وجامعًا لكل مؤلفاته وما كتب عنه بعد وفاته. فاتصفت دراسته بالجدية والعمق. فبعد مقدمة مطولة عن مصر وأبعاد الحركة الثقافية المعاصرة فيها، ختم المؤلف هذه المقدمة بقوله: «يخيل للمرء وهو أمام مؤلفات وكتابات جمال حمدان أنه يخوض فى لجة محيط متلاطم الأمواج يعج بالمعارف والأفكار والآراء والاستنتاجات، بحيث يصعب عليه أن يستوعبها أو يسبر أغوارها من أول وهلة. ولذا فقد اكتفيت فى هذه المرة بسباحة هادئة على شاطئ هذا المحيط الهادر آملا أن أعود فى القريب للغوص فى أعماقه واستخراج درره بعد زيارتى القادمة لمصر». ثم أورد فى الفصل الأول نبذة عن تاريخ حياة جمال حمدان تحت عنوان «سيرة جغرافى الوطنية المصرية: جمال حمدان». وأتى فى الفصل الثانى بعرض شامل لموسوعة «شخصية مصر» وما جاء بها من دراسات وأبحاث. ثم تطرق فى الفصل الثالث إلى ما كتبه عن التجانس فى البيئة المصرية، كما تحدث فى الفصل الرابع عما كتبه فى هذه الموسوعة عن الوحدة والمركزية والاستبداد الفرعونى.

وقد خلص الأستاذ ناجاساوا فى خاتمة بحثه إلى وجود نوع من التأثير الضمنى لتجربة جمال حمدان الشخصية مع النظام السياسى الذى ساد مصر فى الستينيات والسبعينيات. وأرجع ذلك إلى ما ورد فى الفصل الخاص «بالفرعونية الجديدة» والذى تساءل فيها حمدان عن مدى تغير مصر المعاصرة عن مصر الحديثة، والحديثة عن القديمة فى قضية التركيب الاجتماعى – السياسى، ونظام الحكم والسلطة. ونقل عن جمال حمدان قوله «التغير الجوهرى فى الشكل، أما الجوهر فلم يكد يتغير. وهذا الجوهر هو الطغيان الشرقى، الطغيان الفرعونى، بكل أعمدته التقليدية. فهو الخط المستمر والقاسم المشترك الأعظم الذى يجرى خلال تاريخ مصر كلها من مينا إلى اليوم. والمتغير الوحيد هو الشكل: ملكية أو جمهورية، وراثية أو انتخابية، مدنية أو عسكرية، وذلك بحسب الظرف أو العصر». وقد استشف الدكتور ناجاساوا من ذلك أن المؤلف قد تأثر بالبواعث الشخصية عندما كتب ما كتبه فى هذا الصدد. وربما كان هذا الانطباع مما يدخل فى باب التقديرات الشخصية. فالواقع أن جمال حمدان لم يتقيد فى كتاباته بضغوط البيئة المحلية، ولم يسطر قلمه خطا واحد تحت أى دافع شخصى.

فقد كانت صرامته العلمية لا تسمح له بأن تطغى الأمور الشخصية على الموضوعية والمنهجية التى اتسمت بها كتاباته ومؤلفاته، مما ساعده على التأمل الحر والإبداع المستنير والرؤية العميقة. وقد كان يستخلص ويستقطر أعمق وأخطر النتائج النظرية والعملية، ثم يرسم أهم وأدق الدروس والمؤشرات التطبيقية والمستقبلية المتعلقة بقضايا مصر المصيرية، وذلك اقترابًا من الحقيقة العلمية الخالدة لا بحثًا عن الأمر الواقع الزائل لا محالة، والذى بالمقابل لا مستقبل له. ولقد تجاوز جمال حمدان ذاته فى دراساته وكابد فى ذلك ما كابد دون أن يفقد قطرة واحدة من حسه الوطنى والقومى. وكل ما فعله هو أنه نطق بالحقيقة التى سكت عنها الآخرون.

❖❖❖

جمال حمدان فى ذكراه الخامسة:

مصر من منظور انثروبولوجى*

تحت هذا العنوان ألقى جمال حمدان فى الجزء الثانى من موسوعته «شخصية مصر - دراسة فى عبقرية المكان» «نظرة متفحصة على هذه الشخصية من زاوية الانثروبولوجيا أى علم الإنسان الذى يبحث فى أصل الجنس البشرى وفى تطور أعرافه وعاداته ومعتقداته. وقد تناول هذه الزاوية بموضوعيته المعهودة ولكن دون إطناب، فهو لم يتعرض لها إلا فى أضيق الحدود الضرورية وكمجرد مماس لدائرته الجغرافية والشاملة.

وقد قسّم جمال حمدان هذه النظرة الانثروبولوجية إلى أربع مراحل هى: مرحلة صناعة الحضارة، ثم مرحلة تصدير الحضارة، وتليها مرحلة ثالثة هى مرحلة الاكتفاء الذاتى الحضارى، وأخيرًا مرحلة استيراد الحضارة.

وقال فى معرض حديثه عن المرحلة الأولى وهى مرحلة صناعة الحضارة، إنها كانت مرحلة تتفق مع سياق التاريخ النهرى حينما كانت مصر مشتلاً ممتازًا لتأصيل حضارة مبكرة سباقة، مادتها الخام هى فيض الثروة النهرية، وصوبتها الزجاجية - التى تحمى طفولتها - هى الغلاف الصحراوى. فقد كانت العزلة النسبية لمصر لازمة فى المراحل الأولى لضمان الطمأنينة والاستمرار. وحين بدأت الحضارة الفرعونية تخرج من مشتلها، ظهرت فجأة فى مرحلة نامية متطورة راقية انبهرت لها الشعوب المجاورة، وأصبحت مصر الفرعونية بمثابة النواة والقلب لمنطقة حضارية بمعناها الانثروبولوجى. وقد كان من الطبيعى أن يزداد احتكاك مصر بالخارج نتيجة التوسع فى شبكة الاتصالات فى العالم المعّروف آنذاك، وخروج هذه الشبكة من مرحلة الأنهار إلى البحار، واتخذ هذا الاحتكاك شكل تصدير الحضارة المصرية، وظل الحال على ذلك لحين تعاقب الغزاة والحكم الأجنبى على مصر - منذ نهاية الفرعونية، غير أن قوة حضارتها لم تتراخ وبقيت قائمة مستمرة، وإن غلب عليها صفة الإكتفاء الذاتى الحضارى، وكان ذلك فى المرحلة الثالثة من تاريخها الانثروبولوجى الذى لعبت فيه مصر القبطية دورًا حاسمًا فى تاريخ المسيحية الأولى فى أوروبا وخارجها. فكانت كنيسة الإسكندرية هى أولى وكبرى كنائس المسيحية قاطبة ومركز الأساس للاهوت فى العالم، وكان آباؤها هم نموذج الحياة المسيحية المحتذى. فكانت مصر هى القطب

* جريدة الأهرام ١٦/ ٤/ ١٩٩٨.

الأعظم فى كل حركات ومناقشات ومجامع المسيحية المسكونية فى أوروبا ابتداء من مجمع «نيقيا» حتى مجمع «خالقدونيا»، كما اقتبست الكنيسة الأوروبية الكثير من مراسم وتقاليد الكنيسة القبطية التى خرجت منها الرهبنة والأديرة فى العالم المسيحى بأسره. ولما دخل العرب مصر، تأثرت مصر القبطية بهذا الحدث الجليل، لأنها أدركت على الفور أن العرب قد أتوا بجديد يتمثل فى اللغة والعقيدة، إلى جانب ما أدخلوه من تغيير فى بعض عناصر المركب الحضارى المادى وغير المادى، فمن جهة طعم العرب الاقتصاد الزراعى بعناصر جديدة حين أدخلوا زراعة القصب والأرز والموالح وغيرها، كما أنهم أدخلوا من جهة أخرى الرق للكتابة قبل ظهور الورق، وبذا أصبحت مصر العربية خلية حضارية مضطرمة فى قلب العالم الإسلامى، وارتبطت بجميع أجزائه وبالعالم الخارجى، مما زاد فى عملية الإخصاب الحضارى.

وينتقل جمال حمدان من هذه المرحلة الثالثة ليحدثنا بإسهاب عن مرحلة استيراد الحضارة، فإنها بحسب تحليله قد بدأت مع الفتح العثمانى حيث أصيبت مصر ضمن الشرق العربى «بتصلب شريانى حضارى» حاد. واستمر هذا الحال وتفاقم بعد أن انتقلت قبلة الحضارة العالمية من الشرق إلى الغرب، واقتحمت الحضارة الحديثة والمواصلات العالمية أركان الأرض، وابتليت مصر بالاستعمار واستوعبت علاقته الموضوعية بالحضارة بعد أن جاء دورها المعاصر وهو دور «المعمل الحضارى». فهو يقرر أن مصر «نافورة الحضارة القديمة لم تتحول إلى مجرد بالوعة للحضارة الجديدة، ولكن إلى بوتقة صهرتها لتشكلها بما يتفق وتراثها». وكن على مصر أن ترتفع إلى مستوى التحدى والمسئولية، وأن تتحمل أعباء قدرها.

«ولقد تغيرت مصر الحديثة فى جميع جوانبها المادية والحضارية بدرجات متفاوتة، ولكنها ظلت واسطة العقد ومتوسطة الدنيا، كما ظلت ميزتها النسبية وسمتها الأصلية تتمثل فى سبقها الحضارى طوال تاريخها».

والمتتبع للمسيرة العلمية لعالمنا الراحل، والقارئ لكتاباته ومؤلفاته، سيحس من أول وهلة بدقات قلبه وهى تنبض بحب مصر وشعبها، وبعشق ترابها وأرضها المباركة. ولم يكن هذا الحب يصدر عن نعرة وطنية شعوبية أو إقليمية ضيقة، بل كان ينبع عن صدق وعلم ويقين، وعن قناعة تؤكدها الموهبة الطبيعية لمصر وسر بقائها وحيويتها، وتثبت مقولة أن شعب مصر هو شعب خاص، وأن تاريخ هذا الشعب وجغرافيته قد جعلاها يختلف عن سكان أية أمة من الأمم.

صاحب موسوعة شخصية مصر فى ذكرى رحيله*

لقد كان جمال حمدان من أوائل من استشعروا الخطر الداهم المتمثل فى قيام دولة إسرائيل تأسيسًا على مبادئ الأيدلوجية الصهيونية التى نادت بإسرائيل الكبرى واغتصاب أرض فلسطين، والتى نجحت فى زرع هذا الإسفين الخطير فى قلب العالم العربى والإسلامى.

ولم يأت هذا من فراغ أو عن تعصب وتحيز، بل استنادًا إلى دراسات علمية موضوعية متعمقة تناولت هذه الظاهرة الاستعمارية الجديدة انثروبولوجيا وتاريخيًا وسياسيًا واستراتيجيا. وقد نبه جمال حمدان فى العديد من كتاباته وأبحاثه إلى هذه القضية، فكتب يقول: «من الصعب أن تجد بين المجتمعات البشرية المعاصرة مجتمعًا يقارب المجتمع «القطيعى» الذى حشدته الصهيونية فى إسرائيل.

وذلك فى مدى تمزقه وتهالكه واعوجاجه، وأن اليهود جملة وتفصيلاً ليسوا من بنى إسرائيل، وليس هناك «يهودى تائه» أو متجول، وإنما هناك ببساطة يهودى متحول. فالصهيونية مجتمع دخيل تمامًا على فلسطين، وليس لهم فيها جذور أو أصول سواء بالتاريخ أو الجنس سواء باللسان أو الدين. وإن الصهيونيات اليوم هى أكبر خطر وتحد يواجه العالم العربى وأن تحرير فلسطين «هو» وحدة العالم العربى السياسية.

وأما أن إسرائيل دولة عنصرية فإن أبواق الصهيونية والاستعمار تحاول أن تقلب الحقيقة رأسًا على عقب وتصورها ضحية للعنصرية لا مشتلا لها. والحقيقة أننا لا نعرف جانبًا فى دعاوى الصهيونية يجتمع فيه التضليل بالغفلة كما يجتمعان فى هذا الجانب، فحقًا كانت النازية «دولة جنسية» كما وصفها علماء السياسة، وحقًا كان اضطهاد اليهود هو الوجه الآخر للعنصرية الآرية، لكن أن نسمى هذا «بضد السامية» فهذا هو الخطأ الشائع الذى نجحت الصهيونية فى إدخاله وتمويهه على العالم، وتقبله هذا بلا تفكير، بل ونردده نحن بحسن نية.

ومن هذا كله لا يتبقى من وحدة مشتركة بين اليهود إلا الدين - تمامًا مثلما بدأت. وإذا كان هذا هو الأساس الوحيد لشعورهم المتضخم بأنفسهم ووعيهم الحاد بالذات، فما هو إلا نتيجة للاضطهاد الذى تعرضوا له تقليديا، فقد كان وعى اليهود نوعا من

---

* جريدة الأهرام ٩/ ٤/ ٢٠٠٢.

التحدى إزاء الرفض، ولكنه وعى لا يجعل من صاحبه أمة، بل مجرد طائفة: إما مضطهدة وإما متعصبة.

وليس هناك بعد ذلك سر أو معجزة أو لغز خطير فى بقاء اليهود، فالذى حفظ اليهودى هو الاضطهاد الخارجى، والصهيونية إنما هى رد فعل لضد السامية، أو هى «ضد ضد السامية» أو كما قال ماركس «لقد حافظت اليهودية على نفسها بواسطة التاريخ وليس على الرغم منه»، أو أخيرًا، ما وضح سارتر، أن عدو السامية هو الذى يصنع اليهودى.

وليس هناك إذن شعب أو أمة يهودية، كما قرر بالفعل لينين، وكما عبر ستالين فى كتابه «الماركسية والمسألة اليهوية» حين تكلم عن اليهود «كأمة من الورق».لا، وليس الأمر شبه أمة كما ساوم البعض، وباختصار، فكما اعترف الصهيونى ليون بنسكر شاكيًا «لسنا معدودين كأمة عند سائر الأمم».. وليس ثمة قومية يهودية، والصهيونية ليست آخر مشكلة من مشكلات القومية فى أوروبا كما يوهمون، ولكنها ببساطة آخر موجة استعمارية خرجت من أوروبا وأفرزها القرن الماضى.

لا، وليس ثمة شىء كقومية إسرائيلية – كما يريد البعض أن يساوم بعد إنشاء الدولة اليهودية الغاصبة – أكثر مما هناك قومية يهودية، وتظل إسرائيل دولة «مصطنعة»، أنشأتها حركة صهيونية «يوتوبية»، هى نفسها منبثقة عن شعب يهودى «وهمى» فإن قيل: كيف يمكن لشعب وهمى غير موجود أن ينشئ فى النهاية دولة مصطنعة، بينما أن كليهما قائم واقع، فليس فى هذا تناقض ينقض الحقيقة، وإنما هو ينقلها ببساطة إلى منطق ومنطقة الاستعمار.

وإنما التناقض المثير والمغالطة حين تتهم الصهيونية «القومية العربية» بأنها «قومية سلبية» (كذا!)، بمعنى أنها لم يجمعها ويدفعها إلا عداؤها لإسرائيل، ولكن الحقيقة أن الصهيونية كما هو ملاحظ تحارب بضراوة وعصبية على المستوى الفكرى ضد النظرية التى تعتبرها رد فعل لضد السامية، وذلك لأنها تجردها من أى مضمون ذاتى وتجعلها مجرد رد فعل سلبى بحت.

حق القوة والأمر الواقع:

على أساس من الدين والتاريخ – إذن – قامت ادعاءات الصهيونية فى فلسطين، وكما رأينا فلقد ثبت عقم وخواء هذا الأساس تمامًا، سواء الحق الإلهى المقدس أو حق الوراثة القومى، أو الحق التاريخى كما يمكن أن نسميهما معًا، ولقد أدرك الصهيونيون

أنفسهم أن الحق التاريخى، أو الصلة بين بنى إسرائيل وأرض إسرائيل، «أقل استيحاء للمنطق مما يظن» أى أنها لا تقيم بناء عقليًا مقنعًا أو متماسكًا، ولذا بحثوا عن «العقلانية» كواجهة لدعاواهم ودعاياتهم، تبريرًا للاغتصاب أو ليدفعوا بها تهمة الاغتصاب والاستعمار.

وليس هنا متسع لتحليل هذه المحاولات، ولكنا نكتفى بأنها جميعًا فشلت، واضطرت الصهيونية وإسرائيل إلى أن تكشف عن حقيقة موقفها ومبرر وجودها الحقيقى والأخير، وهو منطق القوة البحتة والأمر الواقع، أى منطق الاستعمار المباشر بلا مواربة. ومن هذا المنطق يقدمون رؤية مزيفة، مغلوطة، مقلوبة إلى حد لا يكاد يتصور لكل الأحداث والصراعات التى وقعت منذ بدأ الاستعمار الصهيونى وعبر حرب فلسطين حتى اليوم الحالى. والرد على هذه الرؤية المكذوبة يحتاج إلى دراسة خاصة، ولكن يمكننا أن نقرر أن تهافت وتداعى كل حججها وزيفها يدفع بهم فى النهاية إلى موقف التبجح الاستعمارى الكالح سافرًا ومعلنًا بلا مواربة، وإلى رفض المنطق تمامًا، وهو ما فتئوا يتهمون به العرب تقليديًا!.

فإذا هم يتحولون عن الحديث عن الحق التاريخى إلى الحديث عن حق الوجود: إسرائيل حقيقة واقعة، وليس هناك اختيار، فالاختيار قد تم بالفعل وقد قامت إسرائيل، وسواء كان معنى هذا حق الغزو والفتح فإن العلاقات الدولية تقوم على صراع القوى والمصالح لا الأخلاق أو المنطق، والحدود مرسومة بحسب قوة الشعوب، واليهود قد اكتسبوا حق الاحتلال فى إسرائيل، ولو كان العرب قد انتصروا لما قامت. فالصراع قانون الحياة والبقاء للأقوى، ونحن لا يمكن أن نأخذ على الإسرائيليين أنهم يواجهون مشكلة ندبوا أنفسهم لحلها»! «وليس على الإسرائيليين أن يبرروا وجودهم تحت الشمس، أى أن يبرروا أنفسهم، ويقدموا حسابات لأى محكمة عربية فى التاريخ»!.

هذا حقيقة هو الموقف النهائى والدفين لإسرائيل، وهو اعتراف صريح متحد بأنها ظاهرة استعمارية بحتة، من الناب والظفر برهانها الوحيد، قامت على قانون الغاب ومبدأ القوة، وكل حديثهم وعروضهم عن السلام بعد ذلك تتبع أصلاً من هذا الموقف الجذرى، ولذلك يمارسونها كمناورة تكتيكية بحتة، فمنذ وايزمان وهم يعرضون الصداقة على العرب، ويطلبون السلام معهم - دائمًا وفقط بشرط واحد: «أن يعترفوا بحقنا فى الوجود كدولة قومية فى فلسطين» وليس من المسموح لأحد بأن يناقش وجود إسرائيل ولا حقها فى البقاء، وبعد ذلك لم تنقطع «حملات» السلام ولا دعوات «الحوار» الحارة، بنفس الشروط: الوجود الإسرائيلى وحده هو الذى لا يقبل الجدل، ومنه يمكن

المناقشة مع العدو فى أى شىء عداه، والعكس صحيح: لا يمكن بناء أى شىء خارج الاعتراف بهذا الأساس الواقع.

ومن هنا نجد أن عرض السلام مقرون دائمًا باستعراض القوة: «عند الحاجة، نحن نملك من القوة والوعى ما يكفى للدفاع عن أنفسنا» إنه إذن «التعايش أو الحرب» (اقرأ: الركوع و الحرب) كما يعبر روبير مزراحى الذى يفلسف الموقف بأسلوب نادر فى التواتيته، الساذجة مع ذلك، فهو إذا يتحدث عن «الحل الجدلى» أى التفاهم السلمى والنضج الفكرى، يفسره على أنه «الاعتراف بالعلاقة المتبادلة بين الوجودين العربى والإسرائيلى، بمعنى تجاوز الأمر الواقع المحض نحو حق ذى أساس تاريخى، أى حق نابع من الوجود الفعلى لكلا الموضوعين المعنيين»، وهو بهذا يضع يدنا على آخر مراحل التبرير الصهيونى، أخفاها وأشدها افتضاحًا فى الوقت نفسه، وهى تحويل الأمر الواقع إلى حق تاريخى (جديد مكتسب) بدلاً من تحويل الحق التاريخى (القديم الساقط) إلى أمر واقع!.

هذا، فى الحقيقة، كل محتوى «السلام الإسرائيلى» (اقرأ: الاستسلام العربى). وليس هناك متطرفون ومعتدلون، حزبيون وإسلاميون، أو صقور وحمائم، فى إسرائيل كما يصور البعض خبثًا أو يتصور البعض جهلاً، فالطرفان يلتقيان فى النهاية على أن الوجود الإسرائيلى خارج المناقشة، «تابو، سياسى لا يمس، وإلا فإنها الحرب، بل حتى إعادة اللاجئين، لا يختلف موقف الطرفين إزاءها كقضية أولية، «فلا لاجئ واحد» هو شعار أقصى اليمين وأقصى اليسار.

وبعد، فالحقيقة أن من يطلع على دعايات العدو وتدبيراته جدير عدا الصدمة المذهلة، أن ينتهى إلى أن الهوة العقلية والفكرية بين الجانبين المتصارعين أعمق من كل خيال، وأننا إزاء عقليتين متناقضتين متصادمتين إلى الحد الذى يشكك فى إحداهما أصلاً، وكل محاولة للحوار والتفاهم عقم بل سفه عريض. ومن الخير للعرب أن يدركوا أن الحل بالقوة لقضية فلسطين حل لا بديل له فى نهاية المطاف، لا حبًا فى الحرب من أجل الحرب، وإنما لأن العدو وحده هو الذى يفرضه فرضًا. وليس هذا «غباء وشوفينية وجهلاً» كما يتهمنا الصهيونيون، ولكنه حق بل واجب للدفاع الشرعى ضد استعمار سكنى، عنصرى، طائفى، إبادى رجعى، بربرى، (حق، وليس «تزويرًا وقحًا للتاريخ وتجديفًا وتزييفًا معيبًا» كما تسبنا الصهيونية مرة أخرى)....



وبعد، فإن ما قدمناه هنا هو غيض من فيض، فقد وهب جمال حمدان حياته للعلم والعمل، وقد «ملكت مصر قلبه واحتوت العروبة وجدانه، فتصدى لكل ذلك بطريقته العلمية الرصينة، وكشف بهتانها وتهافتها بالطريقة العلمية الرصينة. إنا نمر اليوم بمرحلة تاريخية حرجة جدًا، وقد وصلنا نقطة أن نكون أولا نكون، فلا بأس من أن نستكشف مع أجيالنا الحاضرة والصاعدة طبيعة المشروع الفكرى لهذا العالم الكبير والدعوة إلى الرجوع إليها لكى نتبصر رؤيتنا للمستقبل، وأن نواجه هذه الهجمة الصهيونية الشرسة التى نكتوى بنارها فى الوقت الراهن والتى ستأتى - إن استمرت - على الأخضر واليابس.



في ذكراه العاشرة:

كيف تحدث جمال حمدان عن دور العراق الاستراتيجى؟*

لقد بلور جمال حمدان الكثير من آرائه وأفكاره فى إطار منظومته العلمية والسياسية، فهو صاحب موقف له منطلقاته الفكرية التى تنبع من لحظات المعاناة والكشف.

ولقد حاول جمال حمدان فى كل أبحاثه ودراساته الإجابة عن أسئلة تصب كلها فى مشروعه الفكرى المتكامل الذى كان محوره مصر والعالم العربى والإسلامى، وذلك بهدف الوصول إلى الحقيقة والحق، وسبر أغوار الجوهر والصميم، وكان جمال حمدان مؤمنًا بالعروبة وبالوحدة العربية، وعدوا لدودا للصهيونية والتمزق العربى وضعف العالم الإسلامى، وفقدان العدل الاجتماعى، والطغيان السياسى هى ألد أعداء أمتنا العربية.

هذا وإن العدوان الغاشم الذى يتعرض له العراق الشقيق دفعنا إلى التمعن فى قراءة ما كتبه هذا العالم الجليل عن العراق وعن دوره الاستراتيجى، ففى دراسة موضوعية تقويمية كتبها عام ١٩٦٦ ناقش جمال حمدان موقع العراق من خريطة القوة العربية ومستقبله الاستراتيجى فى إطاره وأبعاده التاريخية.

وفى تحليله للدور الاستراتيجى للعراق يقول: «بغير هذا الدور التاريخى قد يمكن أن نخطئ فهم عبقرية المكان فى العراق بالذات، لأنه ما من قطر عربى على مدى الزمن عرف من التقلبات العنيفة فى مقدراته ومصائره وفى أقداره وقواه مثلما عرف العراق، ومن السهل أن نكتشف منذ بداية تاريخ العراق العربى مراحل ثلاثًا تلخص ببلاغة تطور موقعه ودوره الاستراتيجى، فمنذ العروبة والإسلام وفى ظل عصر من التفجر الدينى أكثر منه عصر الوعى القومى، أخذ موقع العراق مغزى خطيرًا ولعب دورًا ممتازًا، فبحكم موقع العراق على تخوم العالم العربى تعرض أكثر من أى جزء آخر منه، بطرقات وطوفانات الرعاة الفرسان وسفاحى الحضارات بكل معنى الكلمة.

وتلك كانت قصة السلاجقة ثم التتار والمغول ابتداء من جنكيز خان وهولاكو فى القرن الـ ١٣، إلى تيمورلنك فى القرن الـ ١٤، ومن هذه التجربة المريرة بدأت تتضح لنا حقيقة دور العراق، فقد تحول من «رأس حربة» فى العالم الإسلامى إلى «درع» للعالم العربى، وأصبح خط الدفاع الأول للعروبة رغم الاستعمار البريطانى الذى حاول أن

---

* الأهرام الدولى ٢٥/ ٤/ ٢٠٠٣.

يحيله إلى عزلة جغرافية وسياسية ليبعده عن ركب العرب، وذلك بضمه إلى ميثاق سعد آباد (مع إيران وأفغانستان) حينا، أو حلف بغداد (مع تركيا وإيران وباكستان) حينا آخر، ويستطرد جمال حمدان: ولسنا بحاجة بطبيعة الحال إلى أن نضيف أن ذلك جميعًا قد فشل وتغلبت قوة الجاذبية العربية المركزية الأصيلة على كل القوى الطاردة التآمرية، وظل العراق عربى الوجه والوجهة، وأصبح على يد زعامته الثورية المؤمنة ركنا ركينا وركيزة كبرى للعروبة، بل أكثر من هذا خرج العراق بدور استراتيجى جديد فى الوطن العربى، والعراق بموقعه هذا أحوج ما يكون إلى قوة العرب من ورائه سندا وعمقًا استراتيجيًا، بمثل ما أن العرب أحوج إلى أن تكون له نافذة وجبهة على العالم الآسيوى.

وفى هذا المقال التحليلى تناول جمال حمدان قوة العراق البشرية، وأنه ليس بعدد السكان وحده تقاس القوة السياسية، ولكن السكان بالتأكيد طرف مهم فى معادلة القوة، فالعراق وحده هو الذى يتاخم الجارتين الكبيرتين إيران وتركيا، وانتقل فى معرض حديثه عن قوة العراق الاقتصادية وجوهرها فقال: «أصبحت القوى السياسية ترتكز اليوم- وفى التحليل الأخير - على القوة الاقتصادية، بدورها إنما هو تلك الموارد الحيوية الحرجة التى تمثل مفاتيح الإنتاج والتى يمكن أن نسميها الموارد الاستراتيجية».

ثم ناقش الأساس الطبيعى لاقتصاديات العراق والأبعاد الاستراتيجية الأصيلة لقاعدته الأرضية، ثم تطرق إلى هيكل الاقتصاد العراقى وتنوعه، وبين كيف أن هذا التنوع هو عنصر آخر من عناصر القوة فى الموارد الطبيعية للعراق. وأن البترول هو الذى قلب حياة العراق الحديث وحوله من حضارة شبه بدوية إلي مجتمع متطور، ومن دولة «لا فقرية» إلى دولة ترتكز على قاعدة مادية راسخة، ومن الوجهة التطورية قال إن البترول قد حول العراق من دولة رى ورعى إلى دولة زراعية وتعدين، وأصبح البناء الاقتصادى متعدد الأبعاد والأعماق، وخلص من ذلك إلى أنه يمكن للعراق حقا أن يتحول بفضل طاقته البترولية وطاقته الهيدرولوجية إلى ترسانة صناعة مرموقة وقلعة للقوة العربية!!

هذا بعض ما كتبه العالم جمال حمدان منذ ما يقرب من نصف قرن عن العراق! وقد عاش وعايش بنفسه تآمر القوى ضد العراق لإضعافه والقضاء على موقعه الاستراتيجى فى العالم العربى، وذلك بتدمير مفاعله النووى، وتحديد ونزع سلاحه

ليقع بالكامل ونهائيًا تحت السيطرة الأمريكية والتبعية الصهيونية التى تستعد الآن لتنفيذ مخططاتها الصهيونية التى بدأت فى فلسطين بسفور تام وبدعم كامل من الحليف الأمريكى الذى يدك العراق بأسلحته المدمرة دون رادع أو وازع من ضمير!

وهو الذى قال أيضًا: «لقد خلق البترول العربى نمطًا جديدًا، وأن يكون ثانويًا ومؤقتًا - من توازن القوى السياسية داخل العالم العربى. وهذا الاحتلال أثار وعرى كل كوامن الحساسية الوطنية بين العرب حتى ليوشك أن يكون عامل تفريق وتمزيق لهم، بعد أن كانت مأساة فلسطين عامل تجميعهم!.



فى ذكراه الحادية عشرة

مع جمال حمدان وعبقرية المكان*

لقد كان كتاب «شخصية مصر» من أحب الكتب إلى نفس جمال حمدان وأقربها إليه، فهو بالنسبة له موضوع وطنى وقومى. وهو فى هذا الكتاب تطرق إلى رسم صورة عريضة ولكن دقيقة لشخصية مصر. ومصر لا شك موضوع مثالى لذلك، نظرًا لما تمتاز به من طبيعة جغرافية واضحة الحدود والتقاطيع ولما تملكه من تاريخ ألفى حافل. فقد جاء منهجه فى هذا العمل الفذ متشابكًا ومتعدد المداخل، وقد جمع فيه بين الجغرافيا والتاريخ وعلم البيئة، بل والاقتصاد والزراعة والسياحة والسياسة فى نهاية المطاف. ومن هنا استناده الأساسى إلى النهج التاريخى باعتبار أن للشخصية المصرية جذورها التاريخية، فأصبحت الجغرافيا التاريخية عنصرًا جوهريًا فى دراسة الشخصية الإقليمية لمصر. والواقع أنه وظف كل مناهج الجغرافيا ولواحقها فى خدمة جغرافية الحياة اليومية والأشياء، كيما تضفى الحيوية والاهتمام على الحقائق الجامدة الصماء وتحيلها حية نابضة ناطقة كما يقول.

وهذه تمامًا هى عبقرية الإقليم فى نظره، عبقرية تتجلى فى خصوصية ثقافته وعملية تكونها وتتمثل فى نسيجها الوظيفى وتجسيدها لشخصية المكان، وظل جمال حمدان يتساءل عما يعطى منطقة تفردها وتميزها بين سائر المناطق، فى محاولة للنفاذ إلى روح المكان ليستشف عبقريته الذاتية التى تحدد شخصيته الكامنة، إلى الهيكل المركب لها أو ما يعرف كاصطلاح عام بعبقرية المكان، التى يتم فيها تشريح كائن عضوى ضخم إلى أعضائه الكامنة الدقيقة، وإعادة تركيبه لصنع عالم صغير نسبيًا فى مكانه الدقيق والصحيح من عالم أعظم. وكان من المنطقى بالنسبة له التعرض بالتقييم لنقاط القوة ومكامن الضعف التى قد تنكشف فيها، وهذا ما يقودنا رأسًا إلى الجغرافيا التطبيقية، جغرافيا التخطيط ورسم السياسات الإقليمية والاستراتيجية القومية، وبهذا الشكل تصبح جغرافيا التخطيط فى واقعها بمثابة جغرافيا المستقبل، توظف الماضى والحاضر، فى كشف الطريق أمام مستقبل أفضل. وهو ما ركز عليه حمدان فى الجزء الأخير من سفره الجليل.

---

* جريدة الأهرام ٢٢/ ٤/ ٢٠٠٤.

ويقرر جمال حمدان أن النظرية العامة التى يفسر بها شخصية مصر إنما تقوم على التفاعل بين بُعدين أساسيين فى كيانها وهما الموضع والموقع. ويعنى الموضع البيئة بخصائصها وحجمها ومواردها فى ذاتها، أما الموقع فهو صفة نسبية تتحدد طبقًا لتوزيعات الأرض والناس والإنتاج حول مصر، وتضبطه العلاقات المكانية التى تربطه بها، أى أن الموضع خاصية محلية داخلية ملموسة، ولكن الموقع فكرة هندسية غير منظورة. وهو يرى مع ذلك أن حجم الموضع لا يتكافأ بالضرورة مع خطورة الموقع. وبينما يدفع الأول إلى قدر من العزلة، يدعو الثانى إلى فيض من الاحتكاك، ولكنه تناقض يفضى إلى التكامل أيضًا، وبصيغة رياضية، فإن معادلة القوة فى شخصية مصر هى الموقع × الموضع، وبمعنى آخر، فإن توظيف إيجابياتها يحول التناقض إلى تناسق، ويفجر مكامن القوة.

واستدل حمدان على ذلك بمتابعة مراحل مصر الحضارية، هذه التى تثبت ذبذباتها بين سموق إلى حد الإمبراطورية، وهبوط إلى حد المستعمرة، حقيقة التكامل بينهما، فحين تزدهر مصر داخليًا (الموضع) يصبح الموقع محميًا... ويصب موارده فى بنيتها، وتطفر مصر كقوة إقليمية، أما إذا ضعفت بنيتها تدافعت القوى إليها، لتسيطر على الموقع، ومن ثم الموضع بعده. وبهذه الفرضية يفسر تاريخها، ويقرر أن كيان مصر ومصيرها هى وظيفة مباشرة للعلاقة المتغيرة بين قوتها كموضع وقيمتها كموقع، ذلك مفتاح الماضى مثلما هو دليل المستقبل، وبالنسبة للموقع تتبدى لنا فى المحصلة العامة أبعادًا أربعة فى توجيه مصر، الآسيوى والإفريقى على مستوى القارات، والنيلى والمتوسطى على المستوى الإقليمى. وهو يرى أن مصر بكل بساطة هى أقدم وأعرق دولة فى الجغرافيا السياسية للعالم، غير قابلة للقسمة على اثنين أو أكثر مهما كانت قوة الضغط والحرارة، فمصر هى «قدس الأقداس» فى السياسة العالمية والجغرافيا السياسية، ومن المتصور تمامًا، وإن بدرجات متفاوتة، أن تنكمش أو تنقسم كل دول العالم بلا استثناء إلا مصر! لماذا مرة أخرى؟ لأن مصر هى ببساطة من خلق الجغرافيا الطبيعية لا التاريخ ولا السياسة ولا الصدفة ولا القوة، إنها نبت طبيعى بحت... وتلك حقيقة لا جدال فيها، وهى تبقى نابضة بالحياة وتظل كمثيلاتها من حقائق واستنباطات جمال حمدان صالحة لكل زمان مهما تغير حال الدنيا أو طال الأمد.



الفصل الثالث

فى الدراسات الإسلامية

الحضارة الإسلامية وخصائصها الإنسانية*

تتجلى خصائص إنسانية الحضارة الإسلامية فى آدابها وعلومها وفنونها. فقد نمت هذه الحضارة وترعرت فى أحضان الإسلام، وهو الدين القيم الذى يحض على التسامى وعلى حسن التفكير والتدبير وعلى مكارم الأخلاق، كما أن سماته تكمن فى أنه دين وأخلاق وحكمة ونظام اجتماعى ومنهاج للحياة الفردية العامة، وهى المكونات الأساسية لأى حضرة إنسانية.

والجدير بالذكر هو أن الحضارة الإسلامية تطورت عن طريق العقل لا عن طريق السيف، وكانت اللغة العربية أداتها فى التعبير عن العلوم المستجدة كالطب والفلك والكيمياء والجغرافيا والرياضيات فضلاً عن الفلسفة والتاريخ والأخلاق والأدب. فهذه الحضارة لم تكتف بالنقل والتقليد بل تعدتها إلى التكييف والتجديد. وقد أدى استيعاب الحضارة الإسلامية للشخصية الثقافية وللعبقرية الخاصة لكل شعب، إلى قيام هذه الشعوب بتنظيم شئونها وتوجيه سلوكها وفق تعاليم عقيدة موحدة، مسترشدة فى ذلك بمثل أعلى فى حياتها وضع الرسول ﷺ أسسه وقواعده، وكانت حياته عبارة عن تجسيد لهذا المثل الأعلى الذى يقوم على المساواة بين البشر جميعًا أمام الشرع وعلى مسئولية كل فرد عن مصير الجماعة، وعلى الإخاء لإقامة دعائم العدالة والتسامح. وقد قدمت الحضارة الإسلامية إسهامات روحية واجتماعية وثقافية، ومازالت رغم ما تعانيه من هجمات شرسة ومغرضة، تنير الطريق لملايين البشر. فقد عاشت هذه الحضارة قرونًا متطاولة متلاحقة متتابعة... وهو الأمر الذى لم يحدث من قبل لأى حضارة أخرى، لا فى القديم ولا فى الحديث. فهى قد طوفت شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا، وعاصرت الرخاء والشدة والسيادة والاستعباد، والتقدم والتخلف. ومع ذلك لم تتوان عن تحسين ظروف حياة المسلمين على وجه الأرض ماديًا ومعنويًا، وعن الكفاح من أجل قيام مجتمع إسلامى على أسس وقواعد التفاهم والتعاون والمحبة. ولم يضع المسلمون سياسة لنشر حضارتهم، بل اهتدوا بما جاء فى القرآن العظيم وساروا فى معراج التقدم بفضل الله ورضوانه، وعلى أسس العقيدة التى تتجدد وتتعاقب الأجيال على حمل رايتها، وبذا ظلت حضارة الإسلام إنسانية وحيّة بفضل سماحة هذا الدين وعفويته وتلقائيته وهى أمور أحس بها العباد وتذوقوها وتجاوبوا معها بسهولة ويسر، فالإسلام دين يسر لا عسر، وعقيدة لا تبلى مادام هناك من يؤمنون بها وبتعاليمها، ويظل الأمر على ذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

---

* الأهرام الدولى، ١٧/ ٦/ ٢٠٠٥.

القرآن الكريم ومعايير ترجمته (٢/١)*

أجمع العلماء والعارفون ببواطن الأمور على أن الترجمة الصحيحة عملية شاقة ومضيئة بصورة عامة، فما بالنا إذا كانت هذه الترجمة تتعلق بصورة خاصة بالقرآن الكريم، كتاب المسلمين المقدس، والمصدر الأول لعقيدتهم وشريعتهم، والذى به تستنير القلوب وتهتدى الأفئدة إلى دين الحق. فقد تميز أسلوب القرآن بالجمال الصوتى، كما أن له أوجهًا كثيرة من الإعجاز تبدأ بفصاحة عباراته، وبديع ألفاظه، وسهولة معانيه. كما اشتملت روحانيته على العلوم الإلهية وقوانين الفضائل والآداب وقواعد التشريع الإسلامى والمدنى والاجتماعى. ومن هنا جاء اهتمام الغرب فى العصور الوسطى بهذا القرآن العظيم بهدف سبر أغوار الديانة الإسلامية، وتعرف على أصول هذه الديانة التى بدأت تنتشر وتتوغل فى أوروبا عن طريق إسبانيا والأندلس التى وصل إليها العرب وبنوا حضارة عربية إسلامية أصيلة غيرت مجرى التاريخ فى هذه البقعة من العالم الغربى.

ومع ظهور حركة الإصلاح الدينى فى أوروبا، تغيرت نظرة الغرب إلى الإسلام، وأقبل الناس هناك على ترجمات القرآن الكريم. وكانت قد ظهرت باللغة اللاتينية، وهى أول ترجمة كاملة للقرآن الكريم وأقدمها والتى دعا إليها ورعاها بطرس الطليطلى وهرمن الدماشى وروبرت كينت، بمعاونة شخص عربى يدعى «محمد» (ولا يعرف له لقب ولا كنية)، وقد راجع هذه الترجمة بيير دى بواتييه. وقد تمت هذه الترجمة فى ١١٤٣م. وطبعت فى بازل (سويسرا) سنة ١٥٤٣م. (وطبعت فى بازل أيضًا سنة ١٥٥٠م). وعن هذه الترجمة اللاتينية تمت أول ترجمة إيطالية فى ١٥٤٧م. وعن هذه الترجمة الإيطالية تمت الترجمة الألمانية التى قام بها سالمون أشفجر فى ١٦١٦م. (وطبعت طبعة ثانية فى نورنبرج ١٦٢٣م). وعن هذه الترجمة الألمانية تمت ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الهولندية فى عام ١٦٤١م. أما من قام بأول ترجمة فرنسية للقرآن الكريم فهو دى ريير الذى كان قنصلاً لفرنسا فى مصر، وكان يتقن اللغتين العربية والتركية، ورغم ذلك فيها مواضع غامضة. وقد حققت هذه الترجمة نجاحًا كبيرًا بدليل أنه عن هذه الترجمة الفرنسية تمت عدة ترجمات إلى الإنجليزية وأخرى إلى الهولندية. وقام سافارى بترجمة القرآن الكريم إلى الفرنسية سنة ١٧٨٣م. أما أقدم ترجمة للقرآن الكريم إلى الإنجليزية عن العربية مباشرة هى تلك التى قام بها جورج سبيل فى لندن

* الأهرام الدولى ٢٨/ ٢/ ٢٠٠٣.

لندن سنة ١٧٣٤م. (وطبعت مرة ثانية فى لندن سنة ١٧٦٤م). وعن هذه التجربة الإنجليزية تمت ترجمتها إلى الألمانية وقام بها تيودور أرنولدز. أما الترجمة الألمانية للقرآن الكريم فعن النص القرآنى العربى المباشر فهى ترجمة دافيد فردريدش ميجرلن، الأستاذ فى جامعة فرانكفورت، وظهرت سنة ١٧٧٢م. وهذه الترجمة هى التى قرأها الشاعر «جوته»، ومنها بدأ إعجابه واهتمامه بالإسلام. وفى السنة التالية ظهرت ترجمة ألمانية أخرى عن الأصل العربى مباشرة قام بها فريدريش أبرهردبويزن، وطبعت طبعة ثانية مصححة، فى هاله بألمانيا سنة ١٧٧٥م. ومازالت تصدر حتى الآن ترجمات بجميع اللغات، منها ما هو جدير بالقراءة ومنها ما انحرف عن السبيل.

ولم يقتصر الأمر على ترجمة القرآن الكريم بل وصل إلى حد الاهتمام بكل كتب الإسلام الأخرى كالسنة النبوية الشريفة وكتب العقائد المتعلقة بالعالم الآخر وبالعبث ويوم الحساب، مما أوعز إلى علماء أسبانيا، وبمبادرة من ملك قشتالة ألفونسو العاشر (١٢٥٢ - ١٢٨٤م) ترجمة كتاب «الإسراء والمعراج» إلى اللغة القشتالية على يد الطبيب اليهودى أبراهام، الذى عثر على مخطوطة كتبها أحد العلماء العرب الأندلسيين، والتى لم تصل للأسف إلينا باللغة العربية الأصلية، ولم نعرفها إلا عن طريق هذه الترجمة والترجمة اللاتينية لها والتى قام بها بعض العلماء اليهود فى طليطلة وقرطبة حيث تعايش المسيحيون واليهود والمسلمون جنبًا إلى جنب لسنوات طويلة. وقد انتشرت هذه الترجمة اللاتينية فى العالم الغربى الذى بدأ يتعرف على بعض المسائل الإسلامية التى كانت مجهولة من قبل بلغتهم الأم إلى جانب قراءتهم للقرآن الكريم وإقامة صلاتهم باللسان العربى المبين، مثلما حدث فى اللغة الفارسية.

ومن المعلوم أن القرآن الكريم دخلته عدة ألفاظ فارسية منها: إبريق، طبق، شراب، سجيل، جرف، سندس، مسك، كافور، خندق، استبرق، كتر، وغيرها. وهناك ترجمات أخرى باللغات الأوردية والألبانية والصينية وغيرها من اللغات المحلية السائدة فى تلك البقاع الإسلامية ومن ثم فمن واجب العلماء المسلمين أن يرعوا الترجمات الأجنبية التى تصدر فى هذا العصر تحت مسمى «القرآن» وأن يتداركوا أخطاءها والتشديد على أنها ترجمة معنوية لكى تؤدى ما هو مطلوب منها، وما يراد لها من العمل على زيادة التقارب والتفاهم بين الحضارات والأديان.



القرآن الكريم ومعايير ترجمته (٢/٢)*

ويقال إن هذه الترجمة اللاتينية لمخطوطة الإسـراء والمعـراج هى التى أوحت إلى دانتى الإيطالى بوضع كتابه المعروف «الكوميديا الإلهية».

ولما كثرت الترجمات الأجنبية للقرآن الكريم وتباينت دقتها ومقاصدها، وضع العلماء المسلمون المعايير الدقيقة لترجمة القرآن الكريم، وأفتوا بأن ترجمة هذا الكتاب العزيز ترجمة حرفية تطابق الأصل أمر متعذر، لذا حرموا هذه الترجمة الحرفية لما قد يترتب عليها من مفاسد كثيرة. كما أن الترجمة المعنوية له (أى معانيه) فهى عبارة عن فهم المترجم للقرآن، ومن ثم لا تكون هذه الترجمة هى القرآن وإنما فهم رجل للقرآن، وقد يخطئ فى فهمه وقد يصيب. فالقرآن الكريم فى ترجمته المعنوية والتى هى عبارة عن تفسير ما يحتاج إلى تفسيره منه بلغة أخرى، فأمر غير محرم، وإنما تتبع فيه المصلحة الشرعية بقدرها.

ولما كان القرآن الكريم هو أساس الدين الإسلامى كله بل هو الدين كله، فقد ذكر بعض العلماء، أن ترجمة آيات الصفات الإلهية غير جائزة لأن من الألفاظ العربية ما لا يوجد لها مقابل فى اللغات الأخرى، فما الذى يفعله المترجم فى مثل هذه الألفاظ، فهو أن يشرحها بحسب فهمه وهو فهم ربما يوقع القارئ فى اعتقاد لم يرده القرآن! فإن اجتهد بالقياس، فيكون ذلك فرع عن النص والترجمة ليست نصًا من الشارع، والإجماع عند الجمهور لابد أن يكون مستندًا والترجمة ليست مستندًا، وربما اخترع المترجم بعض الألفاظ اختراعًا وخلقها خلقًا، وهذا حقه ولكن ليس ثمة حق إلا ويقابله واجب، وواجب المترجم هنا هو معرفة اللغة العربية معرفة تامة وأن يكون ملمًا بما اشتملت عليه من فصاحة وبيان، وأن يتمكن منها كل التمكن، وأن يكون متخصصًا فى العلوم الإسلامية وأن يعرفها حق المعرفة حتى لا تكون هذه المعرفة نفسها محدودة فيسىء إلى القرآن الكريم والترجمة معًا.

وجدير بالذكر هنا أنه قد وضعت عدة ترجمات للقرآن الكريم منذ القرون الأولى فى الدول والأقاليم الإسلامية غير الناطقة باللغة العربية، للمعاونة على تقريب فهم

* الأهرام الدولى ٧/ ٣/ ٢٠٠٣.

معانيه لأهل هذه البقاع من المسلمين وشرحه لهم بلغتهم الأم إلى جانب قراءتهم للقرآن الكريم وإقامة صلاتهم باللسان العربى المبين، مثلما حدث فى اللغة الفارسية. ومن المعلوم أن القرآن الكريم دخلته عدة ألفاظ فارسية منها: إبريق، طبق، شرب، سجيل، جرف، سندس، مسك، كافور، خندق، استبرق، كتر، وغيرها. وهناك ترجمات أخرى باللغات الأوردية والألبانية والصينية وغيرها من اللغات المحلية السائدة فى تلك البقاع الإسلامية. ومن ثم فمن واجب العلماء المسلمين أن يرعوا الترجمات الأجنبية التى تصدر فى هذا العصر تحت مسمى «القرآن»، وأن يتداركوا أخطاءها والتشديد على أنها ترجمة معنوية لكى تؤدى ما هو مطلوب منها، وما يراد لها من العمل على زيادة التقارب والتفاهم بين الحضارات والأديان.

❖❖❖

شرف الملة الإسلامية وشموليتها*

شرف الله الملة الإسلامية بأن الله سبحانه وتعالى اختارها لتكون دينا لكل العالمين ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: ١٩) كما أنها الملة التى أمرنا الله بأن نحيا ونموت عليها ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٢) أما شمولية هذه الملة السمحاء فهى تتمثل فى أن الدين الإسلامى الذى اختتم الله سبحانه وتعالى به جميع الأديان جاء بشريعة تنسخ ما قبلها من الشرائع، مظهرًا فيها كفة الدين الحق، ولا غرو فى ذلك فقد أنزل الله تعالى قرآنه على آخر أنبيائه مشتملاً على ركائز العقيدة الإسلامية التى تدعو إلى التوحيد بالله والانقياد والخضوع له ولتعاليمه والإيمان بالأصول الدينية مبينا فى كل ذلك قبولها عنده ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥) والقرآن الكريم الذى هو الوحى المنزل من عند الله على رسوله الكريم جاء بتشريع روحى قوامه الإيمان بالله والتحقق بمعرفته معرفة يقينية، واشتمل على الأحكام الشرعية من عقائد وعبادات ومعاملات وعقوبات لتحقيق مصالح الخلق والعدل بينهم، وفى هذا يقول الله تعالى فى وصف القرآن ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩) وقد دعا القرآن الإنسان إلى أن يجاهد نفسه ويروضها على فعل الخير وتنقية قلبه من أدران الشهوات والهوى والبغض والحسد، لتجتمع النفوس على المحبة والإخاء والسلام، وهو الأمر الذى يحتاج إليه العالم فى وقتنا الحاضر. فهذا العالم المادى بحاجة إلى ثقافة روحية تخرجه من الظلمات إلى النور، والقرآن الكريم جاء بأسس روحية تكفل الاستقرار والسلام والإخاء لسكان الأرض جميعًا، وقد أنزل الله سبحانه وتعالى قرآنه فى شهر رمضان المعظم وهذا أمر له مغزاه، فهذا الشهر المعظم له روحانيته التى تطهر النفوس وتجلى الأبصار، وقراءته وسماعه فى هذا الشهر تجعل الإنسان يتفاعل ويتعايش مع آياته وسوره ويتمعن فيها ويتفكر فى معانيها وأسرارها، فالقرآن حافل بمعانيه التى تحيى نفوس الصائمين والتى تدعو إلى نشر الفضيلة والكمال. وهو يحتوى على كل الحقائق العلمية التى تدل على إعجازه وكونه وحيًا من عند الله تعالى.

* اجريدة لأهرام ٢٥/ ١١/ ٢٠٠٣.

من هم الشهداء؟



أجمع العلماء على أن سبب تسمية الشهيد شهيدًا، إنما جاءت لمعان متباينة منها: أن الله ورسوله شهدا له بالجنة؛ وأنه يبعث وله شاهد بقتله وهو دمه، لأنه يبعث وجرحه يتفجر دمًا؛ وأن ملائكة الرحمن يهدون له الجنة، فيقبضون روحه. وقيل إنه سُمى شهيدًا لأنه حى، فكأن روحه شاهدة أى حاضرة، وقيل لأنه لا يشهد عند موته إلا ملائكة الرحمة، وقيل لأنه مشهود له بالأمان من النار، وقيل غير ذلك. وذهب بعض الأئمة إلى أنه سُمى شهيدًا لأنه مشهود له بالجنة. وقيل لأن ملائكة الله تشهده. وقال النبى ﷺ فى شهداء أحد: «**انا شهيد على هؤلاء**» لبذلهم أنفسهم دونه، وقتلهم بين يديه تصديقًا لما جاء به ﷺ» والشهداء على ثلاثة أنواع: ١- شهيد الدنيا والآخرة وهو من قتل فى قتال الكفار بسببه، وقاتل لتكون كلمة الله هى العليا. ٢- شهيد الدنيا فقط: وهو من قتل فى قتال الكفار بسببه، وقد غل فى الغنيمة أو قتل مدبرًا أو قاتل رياءً أو نحو ذلك. ٣- شهيد الآخرة فقط وهم أصناف كثيرة منها: المبطون والمطعون والغريق وصاحب الهدم وصاحب ذات الجنب والمرأة التى تموت وفى بطنها ولدها، والنفساء إذا ماتت فى النفاس، والميت فى الغربة، والميت فى السفر، والميت بالحمى، والذى أكله السبع، والذى يموت على فراشه فى سبيل الله، ومن حبسه الحاكم ظلمًا فمات فى الحبس، والمسافر فى البحر. وأضاف بعض العلماء إليهم التاجر الصدوق الأمين ومن مات يوم الجمعة كتب له أجر شهيد ووقى فتنة القبر. وقال بعض العلماء فى حياة الشهداء بعد الموت إن عود الروح إلى الجسد فى القبر ثابت فى الصحيح كسائر الموتى فضلاً عن الشهداء. وقال البعض الآخر: اختلف فى حياة الشهداء، هل للروح فقط أو للجسد معها؟ بمعنى عدم البلاء على قولين. وذهب آخرون إلى أن الشهيد حى الجسد والروح. وهذا دليل على قول البيهقى فى كتاب الاعتقاد: الأنبياء بعدما قبضوا ردت إليهم أرواحهم، فهم أحياء عند ربهم كالشهداء.

أما مقر أرواح الشهداء فقد قيل إن أرواح شهداء المعارك فى حواصل طير خضر، أما غيرهم من شهداء المحبة فأرواحهم وأجسامهم فى حواصل طير خضر وأجسادهم فى الملأ الأعلى، أى رفعت نحو السماء. وفى ذلك أخبر الرسول ﷺ فقال: «**إن الملائكة وارت جنته وأنزل فى عليين**»، والحديث أخرجه البخارى فى صحيحه. وصدق من قال فى كتابه العزيز: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ (الحديد: ١٩)

المجددون وأهمية التجديد فى الإسلام*

إن العبادات فى الإسلام ثابتة لا تقبل أى تغيير، كما أن العبادات تمتاز على غيرها من العبادات بأنها لا يقصد منها مجرد التعبد بل أن تعود علينا بالنفع فى دنيانا والثواب عليها فى الآخرة، فالإسلام ليس دين عبادة فقط، وإنما هو نهضة دينية مدنية معًا، وهو لهذا ومن هذه الجهة، يتسع للتجديد الذى يسعى إلى نهضة المسلمين فى أمور دنياهم قبل أخراهم.

وإذا كان خبر السماء قد انقطع بانقطاع الوحى ونزوله، فإن خبر الأرض لم ينقطع، ولن ينقطع أبدًا عن السماء، إلى أن يرث الله هذه الأرض ومن عليها، فالعبادات والمناجاة والدعوات كلها سبل قوية للاتصال، وحبال متينة تربطنا بالسماء، بعد أن بين لنا نبينا الكريم كل وسائل الهدى لكى يتصل الإنسان بخالقه عز وجل.

والله سبحانه وتعالى لطيف بعباده، محيط بهم، يشملهم برحمته وعطفه، ويهيئ لهم من أمرهم رشدًا، ويمن عليهم بصفوة من العلماء والأولياء الصالحين ليجددوا لهم دينهم، ويفقهوهم فيه ليكونوا ورثة أنبيائه. قال الرسول الكريم: **«العلماء ورثة الأنبياء»**. فإنه لما إنقطع خبر السماء بوفاة خاتم المرسلين المصطفى ﷺ، اختار الله سبحانه وتعالى من عباده المخلصين رجالاً ممن كرمهم بالعلم والحكمة والتقوى لكى يجددوا للمؤمنين دينهم، ويفقهوهم فى أمور دينهم ودنياهم حتى لا تضل أقوامهم عن الصراط المستقيم، وحتى لا تكون لهم على الله حجة بعد الرسل، وخص العاملين منهم بالمرتبة والشرف فى الدنيا والآخرة ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة: ١١).

وروى أبو داود فى سننه بإسناده إلى أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: **«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»**. والسر فى ذلك أن الناس تحتاج دائمًا إلى مذكر يذكرهم بأمور دينهم ودنياهم، ويجدد عهده، فلطف الله تعالى بهذه الأمة، وأقام لها على رأس كل قرن من يجدد لها دينها.

وقد روى عن النبى ﷺ أنه أصبح ذات يوم فقال لأصحابه: **«أرأيتم ليلتكم هذه؟**

---

* جريدة الأهرام ١٦/ ٩/ ٢٠٠١.

قالوا نعم يا رسول الله، قال: «فإنه لا يبقى إلى مائة سنة ممن هو اليوم على وجه الأرض أحد». هذا يعنى أن الموجودين من الصغار والكبار من تلك الليلة يموتون كلهم، وينقرض أهل ذلك القرن إلى تمام مائة سنة من تلك الليلة، وينشأ قوم آخرون، فتكمل المائة على قوم آخرين من غير الموجودين الذين شاهدوا الرسول ﷺ فى ذلك الوقت، وحملوا عنه العلم، وعرفوا الشريعة والهدى، فلابد ممن يجدد لهم الدين ويعرفهم ما جهلوه، ويقيم منار الشريعة التى أهملوها، وبذلك يكون أهل القرن الثالث والرابع أحوج من أهل القرنين الثانى إلى من يجدد لهم الدين. هذا وإن هذه الأمة شرفت على غيرها من الأمم فى كل أحوالها، فهى خير أمة أخرجت للناس، وكان قد ظهر فى بنى إسرائيل الأنبياء فى كل عصر، فجعل الله تعالى لهذه الأمة العلماء، قال النبى ﷺ: «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل» ولما مر عزير النبى ﷺ على قرية وهى خاوية على عروشها قال: «أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام..»، تعرض فيها بنو إسرائيل لمن قتلهم واستباح بيضتهم واجتاحهم، حتى لم يبق منهم إلا العدد اليسير، وعدمت التوراة التى بين ظهرانيهم، بعد أن دفنها أنبياؤهم، ولم يعلم من بقى منهم بموضع دفنها، فأحيا الله عزيزًا بعد مائة سنة، وأحيا حماره ليريه كيف يحيى الموتى، ثم جاء إلى بنى إسرائيل وهم لا يملكون التوارة، فقرأها لهم عن ظهر قلب، ثم استخرجها من حيث دفنت، فوجدها كما قرأها، فكان عزيز مجددًا لبنى إسرائيل دينهم، وهى منة عظيمة، ونعمة جليلة لو كانوا يعلمون وكان بزوغ هلال الإسلام ونزول القرآن العظيم على نبيه، إيذانًا من الله سبحانه وتعالى بمولد عصر جديد قوامه الإسلام والتوحيد.

والإسلام جامع لصلاح الدنيا والآخرة وهو ليس دين عبادة فقط وإنما هو نهضة دينية مدنية معًا قصد بها خير الناس وصالحهم دون تمييز بينهم أو تفرقة، فصلح بذلك لكل زمان ومكان، وهو بهذه الصفة يتسع للتجديد فى كل زمان ومكان دون تعصب أو تحيز، فغاية التجديد هى النهوض بالمسلمين بفضل إحياء سنتهم وإماتة البدعة بينهم لكى يساير الحياة ويستجيب لتطورها ومستحدثاتها، فالتجديد إذن حركة دائمة متصلة لصون المجتمع وحمايته، ولذلك ارتبط التجديد بالاجتهاد وأصوله، ولذلك عرف المجددون أيضًا بالمجتهدين. ولا يشترط أن يكون الشخص الذى يبعثه الله على رأس المائة عالمًا، بل تارة يكون عالمًا، وتارة يكون خليفة، وتارة أخرى مقدمًا أو ملكًا مطاعًا،

وقد يكون خليفة وملكًا وأميرًا فى وقت واح، فالنبى ﷺ قال: «يبعث الله لهذه الأمة من يجدد لها دينها»، ولم يقل عالمًا أو غيره، ويرجع ذلك إلى أن الذى يقبضه الله سبحانه وتعالى ليجدد الدين ويحفظه، لابد أن يكون رجلاً مطاعًا، مقبول القول، تهابه الناس ويرجعون إلى قوله، فإذا نهاهم عن بدعة ابتدعوها أطاعوه وامتنعوا عنها، وإذا ذكرهم بما نسوه سمعوا له، وإذا أمرهم بأمر امتثلوا لأمره. والملاحظ لسيرة التاريخ الإسلامى يرى ما طرأ عليه من موجات فكرية، الموجة تلو الموجة، وهى فى بعض الأحيان موجات عاتية قد تعلو ثم تنحسر، وقد تشتد ثم تضعف، والإسلام شامخ كالطود، لاتؤثر فيه هذه الموجات الفكرية، بل أثرته وجعلت منه دين الفكر والتفكر والتدبر.

❖❖❖

الإسلام وعلوم المستقبل*

من البديهى أن يثير الجمع بين القرآن والعلم الدهشة، لا سيما إن كان القصد من ذلك تفسير بعض آياته المحكمات للتدليل على صحة بعض الظواهر العلمية والمادية، وأصبح من البدع المستحدثة أن نرى تفسيرات علمية لكلام الله - عز وجل - الذى لا يأتيه الباطل لا من أمامه ولا من خلفه، ولا يستقيم تفسيره بعلوم وقوانين وضعية، تتبدل وتتغير كل يوم، حقيقة إن الإسلام يدعو إلى العلم والاشتغال به، والتأمل فى خلق الله، بل وبتفاصيل توضيحية تتفق تمامًا مع معطيات الحديثة، وكل من يسرع فى دراسته بموضوعية وضوء هذا العلم الحديث، لا يلبث أن يضع يده على التوافق التام بين آياته المحكمات والمقولات العلمية الحديثة.

غير أن المعارف العلمية الحديثة تتيح لنا فهم بعض الآيات القرآنية التى استعصت على التفسير أو التى تتطلب امتلاك ناصية معارف علمية شتى فضلاً عن المعارف اللغوية. ومن العقم حقًا محاولة السعى إلى إيجاد تفسير للقرآن الكريم استنادًا إلى الاعتبارات المادية والنظريات العلمية الزائلة.

فمنذ عشرات السنين دخلت العلوم الطبيعية والطبية والبيولوجية، لا سيما علم الفضاء وعلم الفلك وعلم الهندسة الوراثية عصرًا جديدًا، وتجددت معارفنا عن الكون تجددًا تامًا، أدت بحوث الفضاء إلى تحديث مفاهيمنا عن المجموعة الشمسية، كما هبط الإنسان على القمر، وألقى بأجهزته على المريخ والزهرة، وتغيرت معلوماتنا عن الشمس بعد أن اكتشفنا الرياح الشمسية، ولا شك أن هذه الاكتشافات هى اكتشافات عظيمة، وربما توصل الإنسان فى المستقبل إلى حصاد أكبر فى جميع المجالات بفضل الأجهزة المعقدة والمتقنة التى توصل إلى صناعتها ونجح فى إطلاقها فى جميع أنحاء الفضاء. ومن ثم، أصبح الإنسان المعاصر قاب قوسين أو أدنى من عالم مبهر ولكنه غير مفهوم، ومن هنا ازدادت حيرته أمام قدرة وعظمة الإله خالق هذا الكون ومدبره.

والمسلم الحق لا ينبهر بهذه الاكتشافات، فهى بالنسبة له جزء يسير من آيات الله فى هذا الكون، وهى الآيات التى أوردها القرآن الكريم وأسهب فى تكرارها من خلق السماوات والأرض ومراحله، والنظام الشمسى والمجرات والنظم الكوكبية وتعدد

---

* جريدة الأهرام ٧/ ٦/ ٢٠٠١.

العوالم، وتوسع الكون وهى أعظم ظاهرة اكتشفها العالم الحديث، وغزو الفضاء، ودورات الماء والبحار، وتضاريس الأرض، وعالم النبات والحيوان، وغيرها من آيات الكتاب الحكيم التى أنزلت على رسولنا محمد ﷺ، لتكون لنا منارًا ينير لنا طريقنا فى هذه الحياة الدنيا وهدى يهدينا إلى الحياة الآخرة.

وقد أدرك العلماء فى عصرنا الحديث أنه كلما تقدم العلم، ازدادوا إيمانًا بوجود الخالق الواحد الفرد الصمد، وازدادوا اقتناعًا بضرورة العودة إلى الحياة الروحية لإيقاف طغيان الحياة المادية. وللإسلام هنا دور كبير، ينبغى له أن يقوم به، فالإنسان الآن فى أشد الحاجة إلى مدونة لقواعد السلوك فى حياته العامة الجيدة التى فرضتها عليه المدينة الحديثة.

إن الإسلام بحقائقه الثابتة، وبتعاليمه السمحة الراسخة يستطيع إنقاذ البشرية من ويلاتها بنشر مفاهيمه الروحية على نطاق واسع. فقد أفسدت نزعة «التحديث» العصرية الإيمان الدينى لدى الناس، بدلاً من تعميقه وترسيخه، وهنا تكمن عظمة الإسلام وخصائصه المميزة التى تتصل بصورة خاصة بقدرة الدين الإسلامى على البناء والتنسيق والدمج. فمفهوم الإسلام للدين أوسع المفاهيم إطلاقًا، فهو الدين الحنيف الذى يقوم على عقيدة التوحيد، وهى الفاصل بين الحق والباطل.

والناس على مختلف مشاربهم تواقون إلى حياة هانئة مطمئنة، وهى الحياة التى بشر بها القرآن الكريم، فعلى المسلمين المعاصرين تقع مسئولية التوعية بما جاء فى ديننا الحنيف وما يضمه من كنوز روحية تستطيع أن تتصدى للنزعة المادية الزائفة التى تسود الغرب بل والتى تشيع الآن فى أنحاء العالم.

والسلام دين الفهم والعقل، وهو يتناسب تمامًا مع ما يعتمل فى صدور الناس من ضرورة تأسيس إيمانهم على الفهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، مع علمهم بأن العقل لا يبلغ الغاية لقصوره عن ذلك. وعبادة الإسلام ليست عبادة باللفظ فحسب، بل هى عبادة تفكر وعبادة تأمل وعبادة معرفة. فمخاوف الإنسان على الأرض حلولها موجودة فى الإسلام بأيسر الطرق، فالخوف من المجهول... كلها مخاوف قائمة فى هذا العصر، والإسلام عنده مفاتيح تخفيف هذه المخاوف، بل والقضاء عليها، وهذه المفاتيح متاحة للجميع وكلها متوافرة فى أركانه وفى تعاليمه القائمة على:

١- الورع. ٢- التقوى. ٣- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ودور الإسلام فى الوقت الحاضر دور مزدوج، فعليه أن يأخذ بيد العلماء المسلمين المتبحرين فى علوم العصر والمزودين بتعاليم دينهم الحنيف، استكمالاً للمسيرة العلمية لسلفنا الصالح الذى أنار طريق العلم والمعرفة أمام الغرب ليصل إلى ما وصل إليه الآن من تقدم ونجاح.

فرجل العلم على الرغم من كل ما يملكه من معارف، يجد نفسه عاجزًا ومغلولاً كغيره من الناس، فالعلم لا نفع منه ولا فائدة عندما يتعلق الأمر بمادة الإيمان التى تعطى للحياة معناها الحقيقى وتبعث فيها الأمل.

كما عليه أيضًا بث حقائق الإسلام فى ربوع البلاد ونشر مقوماته ووضع مدونة لآداب السلوك فى مضمار العلم لتكون هدى ونورًا للجميع ولكى تجنب العالم عواقب أى نوع من أنواع الشطط أو الجموح.

فالإسلام برسالاته الأخلاقية والتهذيبية خليق بأن يقوم بهذا الدور الذى تمس الحاجة إليه الآن أكثر من أى وقت مضى... والله غالب على أمره.

❖❖❖

من تجليات الشهر الفضـــيل*

لقد كـان من فضل الله على الأمـة الإسـلامية أن فرض عليها صوم شهـر رمضـان واختصهـا به دون سـائر الأمم السابقة، وإن كـان الصـوم شريعة قديمة.

ففرض صيام شهر رمضان من خصائص أمتنا الإسلامية وقداقتضت حكمته عز وجل فرض هذا الصـيام فى شهـر مـعين هو شهـر رمضـان رمزًا لاتحاد هذه الأمة وتوحيد صفوفها.

ولقد شرع الله الصوم لتهذيب النفوس وإصلاحها، وتطهيرها من الأدناس والمعاصى والمخالفات، وهو شهر المغفرة والعتق من النار، ومن قـامه إيمـانًا واحتسابًا غفر الله مـا تقدم من ذنبه، كمـا روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ وفى حديث عن عبد الرحمن بن عوف أن النبى ﷺ قال: **«إن الله عز وجل فرض صيام رمضان وسنة قيامه، فمن صامه واقامه إيمانًا وإحتسابًا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»** رواه أحمد والنسائى وابن ماجه.

والصوم وقاية من سيطرة الهوى وزيغ الشيطان وفى ذلك يقول ﷺ: **«الصوم جنة»**.

وكان رسول الله ﷺ يستبشر بقدوم شهر رمضان، فقد أثر عنه قوله: **«يا أيها الناس قد جاءكم شهر رمضان، وهو شهر عظيم مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة وتغلق فيه أبواب الجحيم وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر»**.

وفى حـديث جـابر رضى الله عنه عن رسـول الكريم أنه قـال: «أعطيت أمـتى فى رمضان خمسًا لم يعطهن نبى قبلى: أما الأولى فإنه إذا كان أول ليلة منه نظر الله تعالى إليهم ومن نظر الله إليه لم يعذبه أبدًا، أما الثانية فإن الملائكة تستغفر لهم كل يوم وليلة أما الثالثة فإن الله تعالى يأمر جنته يقول لها تزينى لعبادى الصالحين يوشك أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى دار كرامتى، أما الرابعة فإن رائحة أفواههم حين يمسون أطيب من ريح المسك، وأما الخامسة فإنه إذا كان آخر ليلة منه نظر الله إليهم جميعًا، فإن العمال يعملون، فإذا فرغوا من أعمالهم وفوا أجورهم. وقد أجمعت الأحاديث الشريفة على منزلة الصوم وعلى أن له منزلة كبرى بين سائر العبادات، فالصوم سر بين العبد وربه.

---

* جريدة أخبار الأدب ١٠/ ١/ ١٩٩٩.

قال الإمام الغزالى إن الصوم ثلاث درجات: صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص فصوم العموم معناه كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة، وصوم الخصوص معناه بالإضافة إلى ما سبق كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وكل الجوارح عن مقارفة الآثام والمحرمات، أما صوم خصوص الخصوص فهو بالإضافة إلى ما سبق: صيام القلب عن الهموم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية.

ومن أسرار الصوم إيقاظ الهمة بدراسة القرآن وتلاوته وإحياء أحكامه التى تضمنت سعادة الدارين. فالصوم تكريم للقرآن، ففيه أنزل الله كتابه العزيز نورًا وهداية ورحمة للعالمين. وهو أيضًا بمثابة ضريبة يؤديها المسلم على ما أتاحه الله له من رأسمال لا نظير له وهو القرآن الكريم، فهو روح الحياة وأكسير السعادة فى الدنيا والآخرة، وعلى المسلم فى هذا الشهر الفضيل الإكثار من ذكر الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإصلاح بين الناس.

هذا وقد أثر عن النبى ﷺ أنه أوصى بالتماس ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان وخاصة فى الوتر منها وقيل فى وتر السبع الأواخر منه، وقيل إنها ليلة السابع والعشرين تحديدًا.

وإحياء هذه الليلة المباركة يكون بقراءة القرآن وتدبره، وبالصلاة تهجدًا وبالدعاء والإكثار منه.

وليلة القدر هى ليلة يخلو فيها المسلم بأنس المولى وقربه، فهى لليلة التى تقدر فيها الأرزاق.

وأخيرًا وليس آخرًا، فالاعتمار فى شهر رمضان - وهو زيارة بيت الله الحرام للطواف والسعى وهو أمر مستحب فى أى وقت من العام، إلا أنه أكثر استحبابًا فى رمضان لقوله ﷺ: **«عمرة رمضان تعدل حجة معى»**.

والله ندعو أن يكون هذا الشهر الكريم سبيلاً إلى وحدة المسلمين والنهوض من عثرتهم والجهاد من أجل كرامتهم وعزتهم وحريتهم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

❖❖❖

الفصل الرابع

في التراث والمخطوطات

غربة المخطوطات العربية «١»*

تعتبر ظاهرة وجود المخطوطات العربية فى مكتبات الخارج عامة وأوروبا خاصة من الظواهر الفريدة التى تسترعى انتباه كل باحث ودارس لتراثنا العربى الإسلامى وتجتذب محبى المخطوطات والساهرين على تحقيقها، فهذه المكتبات تزخر برصيد ضخم من هذه المخطوطات التى نقلت إليها بطريقة أو بأخرى، وقد كان لنا فى هذا المجال عدة صولات وجولات مما دعانا فى كثير من الأحيان إلى اللجوء إلى ذخائر مخطوطات هذه المكتبات العامة لتحقيقها وإخراجها إلى النور، وقد كان هذا يتم إما عن طريق البريد وإما عن طريق الزيارات المتكررة والحصول على الميكروفيلم اللازم للتحقيق، وأخيرًا عقدنا العزم على القيام بجولة قادتنا إلى جميع العواصم الأوروبية التى تؤى مكتبات عامة بها مخطوطات عربية، فكانت هذه الجولة الأوروبية التى يسعدنا أن نصف مراحلها ومحطاتها للقارئ الكريم واصطحابه معنا فى زيارتها وإشراكه فى التعرف على بعض ما فيها من كنوز التراث العربى الإسلامى المخطوط، وقد جمعت هذه الرحلة بين متعة الأسفار وفوائدها ومتعة الروح وانشراحها.

وستأخذنا هذه الجولة إلى بعض المدن الأوروبية المشهورة والتى تضم مكتباتها ذخائر المخطوطات العربية- الإسلامية وسنتوقف فى هذه المدن للقيام بزيارات سريعة لمكتباتها العريقة للتعرف على مابها من كنوز هذه المخطوطات ومجموعاتها، والتى حفظت لنا إلى جانب ذلك الكتب والمؤلفات العربية القديمة والحديثة والمعاصرة لخدمة الباحثين والدارسين فى مجال الدراسات العربية والإسلامية التى انتشرت وتطورت فى الآونة الأخيرة.

وفى البداية نود أن نشير إلى أننا قد وقفنا أثناء زيارتنا لهذه المكتبات على ماتحظى به هذه المخطوطات من عناية فائقة واهتمام بالغ من الجهات المسئولة عنها ومعاملتها معاملة «الثروة القومية» إذا صح التعبير، فقد أفردت لها أماكن خاصة لحفظها تفى بشروط التهوية الجيدة ودرجات الحرارة المعتدلة، ووفرت لها المتخصصين فى عمليات الترميم والصيانة والفهرسة بحيث أصبحت كلها منشورة نشرًا علميًا فى فهارس موثقة سهر على إعدادها كبار العلماء والمستشرقين، وهى موضوعة فى متناول يد جميع

* الأهرام الدولى ٨/٩/٢٠٠٠.

الدارسين والباحثين ويدل على وجود هذه المخطوطات فى أوروبا على اهتمام الغرب بأحوال الشرق وإنتاجه الفكرى. وقد تركز هذا الاهتمام بشكل أساسى على دراسة اللغة العربية والقرآن الكريم والنصوص الإسلامية.

المكتبة الوطنية بباريس:

يعود تاريخ مجموعة مخطوطات المكتبة الوطنية بباريس إلى البدايات الأولى لمكتبات ملوك فرنسا، أى إلى أواخر القرن السادس عشر الميلادى، حيث وجدت بها أعداد قليلة من المخطوطات العربية. ولم يبدأ التوسع فى هذه المجموعة إلا فى النصف الأخير من القرن السابع عشر عندما بدأت المكتبة تتلقى المخطوطات المشتراة من الشرق بواسطة عملاء كولبير وزير لويس الرابع عشر، حتى وصل العدد اليوم إلى مايقرب من ١٠٠٠٠ مخطوطة باللغة العربية فى جميع الميادين مثل الفقه والفلسفة والحديث والتفسير والتاريخ والإنشاء والموسيقى والنبات والتوحيد وعلم الكلام والطب والفنون الحديثة والتصوف إلخ، ونذكر منها:

١- فقه اللغة وسر العربية للثعالبى (٤٢٩ هـ) .

٢- ذخيرة الإعلام بتواريخ الخلفاء الأعلام وأمراء مصر بالحكام لأحمد بن سعد الدين الغمرى (١٠٥٠هـ) .

٣- الكشاف عن حقائق التنزيل للزمخشرى (٥٣٨هـ).

٤- معانى القرآن لابن الحاجب (٦٤٦هـ).

مكتبة الأسكوريال بأسبانيا:

شيدت مكتبة الأسكوريال عام ١٥٥٧م. وتضم مخطوطات عربية ثمينة تصل إلى أكثر من ٢٠٠٠٠ مخطوطة وقد جمعت هذه المخطوطات فى عهدى الملك فيليب الثانى والملك شارل الثالث. وقد راجعت فى هذه المكتبة عددًا كبيرًا من هذه المخطوطات النادرة، أشير هنا إلى بعض منها وهى:

١- الألحان السواجع بين البارى والمراجع للصلاح الصفدى (٧٦٤هـ).

٢- ديوان شعر وموشحات سيدى على بن وفا السكندرى (٨٠٧هـ).

٣- فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال لأبى الوليد بن رشد (٥٩٥هـ).

٤- المسائل لأبى الوليد بن رشد (٥٩٥هـ).

٥- ذكر وصف مكة والمدينة وبيت المقدس للتلمسانى الأنصارى (كان حيًا نحو ٦٧٦هـ).

٦- مجموعة رسائل أدبية وتاريخية أولها رسالة السقيفة لأبى حيان التوحيدى (٤٠٠هـ).

٧- كتاب آداب الفلاسفة لمحمد بن على الأنصارى (٦٠٠هـ).

٨- حياة الأرواح لعبد الكريم بن هوزان القشيرى (٤٦٥هـ).

٩- منافع الحيوان لابن الدريهم الموصلى (٧٦٢هـ).

١٠- المدخل إلى علم النجوم وأحكامه لأبى الحسن عبد الرحمن بن عمر الصوفى (٣٧٦هـ).

مكتبة جنيف العامة:

يرجع اهتمام جنيف بالمخطوطات العربية إلى القرن الثامن عشر الميلادى وإلى الأب جان همبير (١٧٩٢-١٨٥١) الذى اجتذبته الآداب العربية عندما كان يدرس علم اللاهوت فى جونتجن بألمانيا، فسافر إلى باريس ليدرس على يد المستشرق الكبير سيلفستر دى ساسى، حيث أتيحت له فرصة الاطلاع على كنوز المخطوطات فى مكتبة بارس الأهلية، فاجتهد فى شراء البعض منها حتى وصلت مقتنياته منها نحو ٣٠ مخطوطة، ولما عين أستاذًا للغة العربية فى جامعة جنيف، فتحت له هذه الجامعة اعتمادًا بمبلغ ٦٠٠ فرنك سويسرى لشراء عدة مخطوطات أخرى بلغت ٢١ مخطوطة وأضيفت إلى هذه المجموعة أعداد أخرى من المخطوطات العربية المهداة من الأب دولنو فى عام ١٨٦٢، والتى حصل عليها عند سقوط مدينة الجزائر فى يد الفرنسيين عام ١٨٣٠، ولم تكتمل.



غربة المخطوطات العربية «٢»*

مازلنا نتتبع ظاهرة وجود المخطوطات فى مكتبات الخارج عامة وأوروبا خاصة وذلك عبر جولة فى بعض المدن الأوروبية الشهيرة والتى تضم مكتباتها ذخائر المخطوطات العربية الإسلامية، ومازلنا نطوف فى جنبات مكتبة جنيف الخاصة، والجدير بالذكر أن جنيف بها الآن مؤسسة تحمل اسمه وتعتبر منارة مضيئة للحضارة الإسلامية فى تلك الربوع، وهى تسهر على نشر جميع أعماله العلمية وطبعها وتوزيعها تحت إشراف لجنة دولية تضم نخبة من كبار المهتمين بالدراسات العربية والإسلامية فى العالم. هذا وتحتفظ مكتبة جنيف العامة والجامعية بمجموعات ضخمة من الكتب العربية والإسلامية فى جميع الميادين.

وقد اشترت أخيرًا مكتبة الأستاذ الراحل ران وهو مستشرق سويسرى ألمانى أقام فى مصر لعدة عقود حيث كان يدرس اللغة الألمانية لطلبة جامعة القاهرة إلى جانب قيامه بأبحاثه ودراساته العربية، كما اشترت كذلك مكتبة المستشرق السويسرى اتين كومب الغنية بالمخطوطات والمؤلفات الإسلامية التاريخية التى اقتناها أثناء إقامته فى مصر حيث عمل لفترة مديرًا لمكتبة جامعة الإسكندرية ثم أستاذا بها، وهو محقق كتاب «الإلمام» للنويرى الإسكندرانى، وتقع المكتبة فى الجناح الأيمن لمبنى جامعة جنيف وتطل على حديقة غناء يتخذها أهل جنيف متنزها لهم، وهى تضم مجموعة من المخطوطات المتنوعة نذكر منها:

١- درر الدقائق ودرر الحقائق للموافق بن المجد الخاصى (٦٣٤هـ ٩) فى علمى المعانى والبيان وهى النسخة الوحيدة التى وصلت إلينا.

٢- الدرة المنصافة فى وقائع الكتابة، تأليف أحمد كتخدا غزيان، وهى تتناول تاريخ مصر العثمانية من سنة ١٠٩٩ إلى ١١٦٨هـ.

٣- ديوان ابن الفارض (٥٨٦-٦٣٢هـ).

وهى نسخة مجلدة بالذهب. نسخت سنة ٩٦٤ هـ.

مكتبة الأمبروزيانا فى ميلانو:

تشتهر مدينة ميلانو بأنها مركز صناعى وتجارى وإقتصادى مهم، وذلك علاوة على مؤسساتها العلمية والثقافية العديدة ومكتبتها، «الامبروزيانا» التى تقع على بعد

* الأهرم الدولى ٢٠٠٠/٩/١٥.

خطوات من كاتدرائية «الدومو» الشهيرة. وهى تحتل القصر الذى أنشئ للكاردينال فردريك بوروميه فى عام ١٦٠٩م، وإليه يرجع الفضل فى قيام هذه المكتبة وازدهارها، وهى تضم ما يزيد على ٢١٠٠ مخطوطة عربية، معظمها جاء من اليمن مع التاجر الإيطالى كابروتى الذى جمع هذه المخطوطات من صنعاء وباعها لخزانة مكتبة «ميلانو «الأمبروزيانا» وقد اطلعنا على بعض هذه المخطوطات مثل:

١- مجمع بحار الأنوار لجمال الدين بن طاهر الصديقى (٩٨٦هـ).

٢- أبواب السعادة لجلال الدين السيوطى (٩١١هـ).

٣- كلمة لعلى بن أبى طالب.

٤- المواقف لعضد الدين الأيجى (٧٥٦هـ).

٥- دعوة الأطباء لابن بطلان (٤٤٤هـ).

مكتبة الفاتيكان:

تقع حاضرة الفاتيكان وسط مدينة روما القديمة وبها مقر الكرسى البابوى وكاتدرائية القديس بولس. وتحتل مكتبة الفاتيكان جناحًا ضخمًا داخل المبنى الرئيسى لمدينة الفاتيكان. وهى زاخرة بنفائس المخطوطات العربية والشرقية ومجموعاتها المقتناة أو المهداة إليها على مر العصور، والتى اعتنت بها وبفهرستها أسرة السمعانى اللبنانية فى القرنين السابع والثامن عشر للميلاد، والتى قام المستشرق الإيطالى البارز جورجيو ليفى ديلافيدا بعد ذلك بوضع فهارس حديثة لها جاءت فى ثلاثة أجزاء (١٩٣٥-١٩٥٦) وقد ظهر أخيرًا فهرس جديد لهذه المكتبة فى إخراج علمى وطباعى رائع على يد زميلى وصديقى الأستاذ ريناتوترابينى الأستاذ السابق بجامعة روما. وقد اطلعنا على معظم محتوياتها وتوقفنا عند عدة مخطوطات نادرة نذكر منها مايلى:

١- ديوان الحقائق ومجموع الرقائق لعبد الغنى النابلسى (١١٤٣هـ).

٢- سيرة رسول الله لأبى الحسن أحمد بن عبد الله البكرى (١٠٦٠هـ).

٣- المضنون على غير أهله (المضنون المغير) للغزالى (٥٠٥ هـ).

٤- التهذيب فى المنطق للدوائى (٩١٨هـ).

٥- الأنس الجليل فى تاريخ القدس ومدينة الخليل للعليمى (٩٢٨هـ).

٦- بيان ملوك عثمان ونوابهم بمصر القاهرة لمجهول.

٧- غنية الأخبار فى ذكر ملوك الأمصار لابن حبيب (٧٧٩هـ).

٨- قواعد الشعر لثعلب (٩١١هـ).

مكتبة فيينا (النمسا):

ترجع شهرة مدينة فيينا فى العالم العربى إلى أغنية أسمهان الشهيرة «ليالى الأنس فى فيينا» وهى بالفعل من أجمل مدن أوروبا بحدائقها ومتنزهاتها الرائعة ومناظرها الخلابة على ضفاف نهر الدانوب، وتوجهنا بعد زيارة قصيرة لقلب المدينة إلى المكتبة الوطنية التى تحتل أحد المبانى التاريخية وبها مجموعة مهمة من المخطوطات التى جمعها فون يسبيك سفير النمسا لدى الباب العالى فى الآستانة بإيعاذ من الإمبراطور فرديناند الأول، وذلك أثناء إقامته هناك التى دامت سبع سنوات. وقد اطلعنا أثناء إقامتنا هناك على عدة مخطوطات عربية نادرة، نذكر منها مايلى:

١- تاريخ مصر لابن أبى طى الحلبى المتوفى ٦٣٠هـ.

٢- التحفة البهية فى تملك آل عثمان الديار المصرية لشمس الدين أبى السرور البكرى (الصديقى) (١٠٦٠).

٣- الجانب الغربى فى حل مشكلات كلمات الشيخ محيى الدين بن عربى لأبى الفتح حميد الدين الشيخ المكى (٩٢٤هـ) .

٤- خلق الإنسان لابن فارس اللغوى المتوفى سنة ٣٩٥هـ.

٥- ديوان على بن أبى طالب كرم الله وجهه.

٦- الذريعة إلى مكارم الشريعة لأبى حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥هـ.

٧- طبائع الحيوان لابن بختيشوع الطبيب (٤١٥هـ).

٨- محاسن الاقتباس لجلال الدين السيوطى (٩١١هـ).

٩- مطلوب كل طالب من كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب.

١٠- ينابيع العلوم لشمس الدين اللبودى المتوفى سنة ٦٣٧هـ.

❖❖❖

الفصل الخامس

عن الفن والأدب والفلسفة

شوبان بعد مائة عام*

إن ذكرى شوبان تدعونا إلى التفكير وإلى مراجعة ما قيل عنه فى هذه المناسبات، فكثير من الكتّاب يعتبر الريف البولونى ذا أثر فى فن شوبان بل فى خلقه الفنى.

لكن شوبان لايمكن أن يعتبر النتاج الرمزى لطائفة معينة أو لوسط اجتماعى وشعبى خاص.

ويسهل على كل من عرف قرية مازوفى التى ولد بها شوبان، وعلى من سمع الأوركسترا الريفى وتلك الموسيقى وذلك الغناء الذى يقام فى ليالى الأفراح وأغانى بنات تلك القرية فى أعياد الحصاد، أن يدرك الخطوط الرئيسية فى موسيقى شوبان التى جعلته مؤسسًا للموسيقى البولونية وصبغته بصبغتها لأنه قد توصل- دون سواه- إلى تسجيل تلك الموسيقى وخلقها.

لقد كان العصر الذى نشأ فيه شوبان يمتاز بفيض ونضوج هائلين فى ميدان الموسيقى:

ففى عام ١٨٠٣ ولد هكتور برليوز الموسيقى الرومانتيكى الفرنسى، وفى عام ١٨٠٤ ولد ميشيل جلينكا مؤسس «المدرسة الروسية» وفى عام ١٨١٠ ولد روبير شومان وفردريك شوبان، وفى عام ١٨١١ ولد فى هنغاريا فرتز ليزت، وفي عام ١٨١٣ ولد رتشارد فاجنر فى ليبزج وجوسيف فردى فى ضواحى مدينة بارم.

وكان هذا التفتح والنضوج المتلاحق لعباقرة الموسيقى فى ست بلاد مختلفة من المصادفات التى تدعو إلى الدهشة والتفكير، فإن الطبيعة منحتهم القدرة على خلق فن شعبى على العكس من موسيقى العصر الكلاسيكى، فقد كانوا يتكلمون بلغة موسيقية عالمية لاتعرف الخصائص الشعبية.

وظهر هذا الفن الشعبى عند موسيقى القرن التاسع عشر فى «عصر الرومانسية» ولا نقصد من ذلك أن الموسيقى قد انطبعت بطابع الأمة فاستعملت الموضوعات الوطنية أو الشعبية، بل نقصد من وراء ذلك أنه قد أصبح هناك- إذا صح التعبير- مناخ عام للفن، فهو عند ليزت هنغارى وعند جلينكا روسى، وعند فردى إيطالى، وعند شوبان بولوني، وعند فاجنر أو شومان ألمانى.

ودرس شوبان الموسيقى فى مدينة فارسوفيا تحت إشراف أستاذيه «زاوى» و«السن»

* جريدة المصرى، ٢٩/١٢/١٩٤٩.

ومنذ ذلك بدأت عبقرية شوبان تتفتق عن مكنون نضارها، وأخذ يخلق آيات الموسيقى الرائعة.

والحق أن مدينة فارسوفيا كانت قبل ثورة سنة ١٨٣٠ مركزًا للموسيقى الأوروبية، وكانت كعبة طلاب المجد ونجوم الموسيقى فى ذلك العصر. ولكن موسيقى شوبان جاءت فريدة فى نوعها، وأصبحت المثل الكامل للتوازن بين الشعور والعاطفة ومراعاة الجانب الفنى فى كل قطعة موسيقية.

ثم جاءت ثورة فارسوفيا سنة ١٨٣٠، فانزعج لها شوبان عندما بحوادثها ثم سقوطها.

وفى مذكراته التى تركها فى مفكرته وجدت بعض الجمل التى تدل على أنه فقد كل أمل ولم يعد يعتقد فى وجود أساس للخير أو العدالة فى هذا العالم.

وقد كتب إلى صديق له فى تلك الأثناء «أن الموت والحياة أضحيا فى شعورى شيئًا واحدًا هذا اليوم».

ولكنه كان من النادر أن يعبر شوبان عما يختلج فى نفسه بالكلمات والألفاظ، بل كانت موسيقاه خير معبر عن إحساساته الأليمة أو العاطفية، فقد خلق حبه «لكونسبتانس جلادوفسكا» تلك الجمل العاطفية والشعرية فى مقطوعته «كونشرتو- أف، مول» وكانت عواطفه المتأججة نحو مارى فودزينسكا التى كان فى نيته الاقتران بها- من أشد عوامل الاضطراب فى حياته، ثم قصة حبه لجورج صاند، تلك الكاتبة الفرنسية التى استمرت تسعة أعوام، كانت هى الحادثة المركزية فى حياة شوبان.

عاش شوبان طوال حياته مريضًا يشكو من رئتيه ولم يتمكن أحد من معالجته فى ذلك العصر.

وسافر مع جورج صاند سنة ١٨٣٨ إلى جزيرة «ماجورك» وهناك ألّف جزءًا من أروع ما أنتجه. ولكن مرضه كان قد اشتد، ثم ازدادت عليه العلة عندما انفصل عن هذه الكاتبة المشهورة.

وكانت آخر حفلة موسيقية أحياها فى بارس فى ١٦ فبراير سنة ١٨٤٨، ثم سافر بعدها إلى انجلترا واسكتلندا، وأقام هناك ثلاثة أشهر أحيا خلالها حفلات موسيقية فى مانشستر وجلاسجو وأدنبره.

ثم عاد إلى باريس ولم يتمكن من متابعة الحفلات الموسيقية، وكانت تتولى الإنفاق عليه فى أواخر حياته تلميذته الإنجليزية «جان ستيرلنج».

ولكن بالرغم من ذلك لم يكل ولم تهن عزيمته أمام المرض، بل أخذ يحاول التأليف.

ولم تتحمل حالته الجسمانية ذلك المجهود الضخم فكان يساعده فى كتابة «النوت» الموسيقية صديقه الوفى «فونتانا».

وكتب شوبان فى أواخر أيامه إلى صديق له يقول: «إلى أى حد وصل فنى؟ إننى أتذكر بعد عناء كيف يغنى الناس فى بلادى، إن العالم يمر بجوارى، وأنا أنسى نفسى، لم تعد لى القوة على...»

ومات فردريك شوبان فى ليلة ١٦ أو ١٧ أكتوبر سنة ١٨٤٩ ودفن فى مدافن الأب «لاشيز» بين «شيربينى» و«بلينى».

وقد كتب عنه صديقه الشاعر «سيبريان نورفيد»: «وأصبحت الإلهامات الشعبية لديه قدرة تدخل إلى الإنسانية فتحتويها، وأصبح الفن الشعبى لديه فنًا إنسانيًا هو جزء من ذلك الفن العالمى الذى يتحدثون عنه والذى نسمعه عندما نسمع موسيقى فردريك شوبان».





بودلير*

هذه ناحية جديدة من نواحى العبقرية الفنية التى كثيرًا ماخفيت على الكثير من المطلعين على أدب هذا الفنان. وقد كانت هذه الناحية- عند بودلير- وراثية ومكتسبة من الوسط الذى عاش فيه. فقد كان أبوه- جان فرانسوا بودلير- فنانًا يخرج معه للتنزه إلى حدائق اللكسمبورج، ثم لزيارة المتاحف ويعرض عليه اللوحات ويشركه معه فى التأمل والتفكير.

وكانت والدته تتخذ من رسم بعض المناظر تسلية لها ولطفلها شارل.

كان استعداد بودلير لفن الرسم يفوق استعداده للكتابة والشعر. فكان فى إمكانه التعبير عما يجول فى نفسه. فيشكل ما يطرأ على ذهنه من أفكار ويلخصها ثم يثبتها فى بضعة خطوط نهائية وبذلك يتخلص من فكرة كانت تداعب مخيلته بإظهارها مجسمة على الورق.

ولقد كان «بودلير» رساما كاريكاتوريًا بالمعنى الدقيق، بالإضافة إلى ما كان يتمتع به من فطنة وخيال خصيب وقدرة فائقة على التعبير بطريقة حية موجزة. فاتخذ نماذجه مما تعرضه عليه الحياة ومايجرى فى مجراها من أشكال أدبية أو نماذج فنية.

أما الأثر الثانى الذى يأتى بعد الوراثة فهو تكوينه الفنى، فقد عاش بودلير وهو على اتصال دائم بكل عمل أو إنتاج فنى أخرجه عصره. فكان يحيط نفسه وهو فى حجرته بلوحات وصور مطبوعة على الخشب. وكان يقضى وقتًا كثيرًا فى متحف «اللوفر» ليمتع نفسه بما يحويه من روائع الفن العالمى، وما يضمه من أعمال الفنانين المختلفين فى عقائدهم وتفكيرهم، وقد كان إعجابه موجهًا إلى اللوحات الأسبانية والرسامين الأسبانيين، والمتأمل فى ديوان شعره «زهور الشر» يمكنه أن يقف على عدد كبير من الصور الشعرية المقتبسة مباشرة من مصنفات الرسام الأسبانى «جويا» الذى اشتهر بغرابة لوحاته واختلاف نماذجه الفنية.

ولقد كان لأستاذه «دى لاكروا» أثر كبير يظهر فيما خلفه له من نظريات فى علم الجمال، وطرق الرسم التى وضحت فيها كثرة الخطوط وتداخلها وتنوع النور والظل ليكون منها أداة للتعبير متضاربة غامضة.

فكانت تلك العوامل من وراثة أو تكوين أو مخالطة هى البواعث الحتمية التى دفعت ببودلير إلى الخلق الفنى.

---

* جريدة المصرى ١٩٥٠.

وكان وجهه شغله الشاغل وهمه الأكبر، فكان يجلس إلى المرآة، ثم يرسم نفسه عدة مرات، وليس ذلك لمجرد التسلية أو قتل الوقت ولكن ليصل إلى أغوار نفسه المعقدة، وقد قال «إننى عندما أرى لوحة تصور شخصًا ما، أتصور ذلك المجهود الذى بذله الرسام لاليرسم المظاهر الخارجية المرئية ولكن ليرسم اللامرئى الذى يخفى على النظر». فما هو هذا المرئى إلا تلك الخطوط الخارجية لتركيب الجبهة والأنف والوجنتين والذقن.. إلخ؟.

وأما اللامرئى فهو عند بودلير ذلك الشىء المبهم الداخلى فى النفس البشرية، وهو القائل «يوجد عند كل إنسان فى كل ساعة وفى آن واحد، اتجاهان: أحدهما نحو الله والآخر نحو الشيطان».

وكانت المرأة عنده دائمًا أبدًا فى المكان الأول من فنه، ولا غرو فهى إلهامه ووحى أفكاره، اتخذها للتأمل والتفكير وكتب فيها «المرأة إله وكوكب يتقدم كل مدارك العقل عند الرجل، فهى بدون شك نور ونظرة ودعوة إلى السعادة».

ولقد احتلت معبودته «جان ديفال» من رسمه مكانًا يعادل ما احتلته فى شعره. فقد كانت ترقد بجوار المدفأة، هادئة ساكنة وينشدها بودلير أشعاره ويكتب ما ألهمته من مشاعر، وكان فى الوقت نفسه يتسلى برسم شعرها المنسدل، ونهديها البارزين وعينيها السوداوين.

وإننى أعتقد أن المتطلع إلى ما خلفه لنا بودلير من لوحات يمكنه أن يكوّن فكرة صحيحة لتلك الأوجه المختلفة لعبقرية هذا الفنان. ويمكنه أن يدرك تلك الحيوية الداخلية التى كانت تحرك لوكاته والتى قال عنها الأديب الفرنسى تيوفيل جوتيه إنها تعيد إلى اللوحة حركتها وهيئتها وطبيعتها التى لايمكن إدراكها إلا بها.

وفى هذا اهتدى بودلير بهدى أستاذه «دى لاكروا» فأصبح الرسم عنده ليس هو تلك الخطوط الجافة ولكن تلك الطبيعة الحية المتحركة.

ولكن ميله إلى الفن الأسبانى وإلى «جويا» على وجه التخصيص- كما بينت من قبل- كان له أثر فيما كان يخطه بودلير وهو تحت تأثير المخدرات.

لقد عاش هذا الفنان ستة وأربعين عامًا يجيل النظر فيما حوله من أشياء وأناس ويصل إلى أغوارها مهما كلفه ذلك من نصب، فقد قاسى طوال مدة حياته من تلكم التلقائية العاطفية وهذا الجو المختنق بَرائحة المخدرات، ولكنه بالرغم من ذلك عاش فنانًا فهمه الفن ولم يفهمه الناس..!

لم يكن المفكر الفرنسى الشهير أرنست رينان، الذى نال الدكتوراه فى الفلسفة عام ١٨٥٢م برسالته حول فلسفة ابن رشد، والتى اكسبته شهرة واسعة، أقول أنه لم يكن

على هامش الاحتفال بذكرى ابن رشد:

شارح لفكر الآخرين .. أم فيلسوف مجدد..؟!*

منصفًا حينما قال إن ابن رشد لم يأت بجديد فى الفلسفة، وإنه لم يكن إلا مجرد شارح لفلسفة الإغريق، وإن أرسطو هو الذى علل الكون وفسره، أما ابن رشد فقد شرح لنا أرسطوه وفسره، وهذا لعمرى سوء تقدير مرجعه عداء رينان وكرهه المعروف للإسلام ولكل ما يمت إلى الإسلام بصلة.

ولقد لصقت هذه الصفة بابن رشد رغم أن الدارس لمجموع مؤلفاته سرعان ما يهتدى إلى وحدة فكره الواسع، وإلى أصالة فلسفته، فشرحه لأرسطو وغيره من فلاسفة اليونان لايعنى ترديده لآراء هؤلاء الأساتذة الإغريق فى العصر الكلاسيكى أو فى العصر الهلنستى، فالواقع أن موقفه من هذا التراث كان يتميز بالإبداع والانتقاء بل وبالنقد والتعليق.

فقد مال ابن رشد أثناء دراسته بجامعة قرطبة للفقه والطب، وهما العلمان اللذان كانا يلتقيان بأهل الفكر فى ذلك العصر، إلى دراسة الفلسفة التى كانت تلازم دراسة الطب فى تلك الأيام. وقد أجمع مؤرخو سيرته على أنه كان رجلاً شغوفا بتحصيل العلوم، زاهدًا متواضعًا قانعًا، ويقال إنه لم ينقطع عن الدرس إلا مرتين فى حياته: ليلة وفاة والده، وليلة عرسه، وكانت بداية اشتغاله بالفلسفة عندما أوكل إليه أمر شرح فلسفة أرسطو بتكليف من السلطان، وكان أسلوبه فى دراسة وشرح أرسطو يتمثل فى الأخذ عن ترجمات عربية لمؤلفاته، نظرًا لعدم معرفته باللغة الإغريقية، ودراستها دراسة وافية ومتعمقة ثم مقابلتها بترجمات الشروح الإغريقية وإعادة كتابتها بطريقته الخاصة. وكانت شروحه أحيانًا أطول من النص ذاته. وكان يفصل بين النص وبين الشرح على طريقة المفسرين للقرآن الكريم.

ولم يقتصر ابن رشد على شرح الفلسفة الإغريقية، ولكنه كتب إلى جانب شروحه، مؤلفات عديدة تقوم على بناء فريد خاص به وحده.

الفيلسوف الأكبر

من العسير أن نلم فى هذه العجالة بالعطاء الفلسفى لابن رشد. وقد تمحور هذا العطاء الغزير حول إصراره على القول بأن الحقيقة التى يتوصل إليها الإنسان عن

---

* جريدة الأهرام ١٩٩٤/٢/٦.

طريق الفلسفة لا تختلف عن الحقيقة التى يتوصل إليها عن طريق العلم الإلهى. وأنه إذا ما وجد تناقض ظاهر بين الاثنين، فينبغى التوفيق بينهما بتأويل النص الدينى وتفسيره. ولذلك ألصقت بابن رشد تهم القول بقدم العلم، وإنكار حشر الأجساد وغير ذلك من الأمور التى كانت معروفة وقيلت قبل زمانه.

وقد قسم ابن رشد المعرفة إلى ثلاثة أنواع: المعرفة البرهانية، وهى التى تعتمد على القياس العقلى، وهى من اختصاص أهل الفلسفة، والمعرفة الخطابية التى تعتمد على النصوص الدينية وعلى الرمز، أما النوع الثالث من المعرفة فهو المعرفة التعليمية، وتعتمد على الرأى وهى من اختصاص علماء الدين من المتكلمين، وقد نادى ابن رشد فى شرحه «جمهورية أفلاطون» بإقصاء هؤلاء المتكلمين عن شئون الدولة، وكان يحث الحكام المسلمين على حظر مؤلفاتهم لأنها تدفع المجتمع إلى هاوية الحرب الأهلية.

وقد بسط ابن رشد فى رسالة ملحقة بكتابه «فصل المقال» وعنوانها «الكشف عن مناهج الأدلة» معظم آرائه الفلسفية مثل مبدأ السببية، الذى حاول عن طريقه إثبات وجود الله، وأزلية العلم وخلقه، وخلود النفس البشرية ومصيرها، أى خلود الروح وثنائية النفس والبدن.

وقد جلبت عليه هذه الفلسفة نقمة وعداء العلماء المسلمين المتزمتين ولم يجد له نصيرًا إلا فى علماء أوروبا الذين عرفوا فضله، فانتفعوا به ونال من تقديرهم مالم ينله غيره من مفكرى الإسلام. ولكن هذه الفلسفة الرشدية، لما عمت الجامعات الأوروبية، وحركت الفكر الأوربى على مدى ثلاثة قرون، بتركزيها على العقل، أثارت ردود فعل دينية كتلك التى أثارتها فلسفته فى العالم الإسلامى. وتناوله الأب توماس الأكوينى، رغم انتفاعه به وبفكره، بالنقد اللاذع الشديد، وترأست جامعة باريس حملة شعواء شده، وحرمت كتبه وكتب أرسطو، ولكنهم عادوا إليه مرة ثانية على يد أساتذة الفلسفة فى العصور الحديثة، فمهد لهم بذلك السبيل إلى عصر النهضة فى أوروبا.

المجدد الأكبر

أما وإن ابن رشد من المجددين فى الإسلام، فلاشك فى ذلك. فهو بوصفه قاضيًا مسلمًا، ومقيمًا لشعائر دينه الإسلامى ومحافظًا على فروضه، وآمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر، فقد كان أول من نادى بالتوفيق بين الدين والفلسفة وكان لايرى تناقضًا بين الولاء للفكر الفلسفى والولاء للفكر الإسلامى والعقيدة الإسلامية.

وكان يرى أن الحكمة هى صاحبة الشريعة وأختها الرضيعة، وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجوهر، وقد بذل قصارى جهده ليقنع الناس بأن الإسلام لايتعارض مع التراث الفلسفى، وحاول مرارًا الاستشهاد على ذلك بالآيات القرانية الكريمة لدعم تفسيره. ويبدو زه لم يوفق فى ذلك لسخطهم على كل من يشتغل بالفلسفة. ونظرهم إلى تلخيصه لبعض كلام الفلاسفة القدماء على أنه من كلامه، مع أنه مجرد ناقل لهذه الأقوال، والمعروف أن ناقل الكفر ليس بكافر. واشتد الهجوم عليه عندما ذهب إلى جواز الاجتهاد فى الأصول، ولم يقصره على الفروع كما كان متبعًا.

ولاينسينا هذا فضل ابن رشد فى تجديد الفلسفة وبراعته فى التوفيق بينها وبين الإسلام، كما يتضح بجلاء فى كتابه «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» الذى جعل الفقهاء الذين جاءوا من بعده يعترفون بمنزلته ويشهدون بفضله وعلو كعبه فى هذه العلوم. وجاء كتابه (فصل المقال) فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، الذى أشرنا إليه، دليلاً قويًا على أن الإسلام برىء مما ينسبونه إليه من معاداة الفلسفة، لأنه لا خلاف بين الدين والعقل.

وقد كان إيمانه بالله راسخًا لايتزعزع، وكان علمه يرسخ عقيدته بالله، وفى ذلك يقول: إن من يدرس تركيب الجسم البشرى (وقد كان طبيبًا!) يزداد إيمانه بالخالق المبدع!.

وظل عطاؤه الفكرى الأصيل فى حقل الشرع والطب والفلسفة متواصلاً، ومؤثرًا فى الشرق والغرب، رغم إحراق كتبه ومنعها من التداول.

وقد عاد الاهتمام بابن رشد فى طالع القرن العشرين عندما اهتم أبناء الشرق بمؤلفاته التى أثارت جدلاً عنيفًا بين العلماء، ومنهم الإمام محمد عبده، ثم توالت المؤلفات عن ابن رشد وفلسفته وفكره بأقلام كتاب كبار من أمثال فرح أنطون وماجد فخرى وعباس محمود العقاد ومحمد يوسف موسى ومحمود قاسم، ومحمد بيصار وغيرهم. وهو بذلك يكون قد أسهم فى إحياء الفكر العربى المعاصر.

وقد ولد فيلسوفنا أبو القاسم أحمد بن رشد فى سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م بقرطبة فى الأندلس، ودرس الأدب العربى القديم والفقه الإسلامى والطب والفلسفة، وعين فى سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م قاضيًا على أشبيلية، ثم تولى وظيفة قاضى القضاة بقرطبة مسقط رأسه، وكذلك منصب كبير الأطباء فى بلاط الموحدين. ونال حظوة لدى أبى يوسف يعقوب المنصور، ولكنه غضب عليه نتيجة الوشاية به ونفاه، ثم عفا عنه وأعاد إليه مهامه بالبلاط، واصطحبه معه إلى مراكش بالمغرب إلا أن ابن رشد لم يلبث أن

توفى فى هذه المدينة المغربية عن ٦٢ عامًا وكانت وفاته فى يوم الخميس ٩ صفر سنة ٥٩٥هـ (١٠ ديسمبر ١١٩٨م). ونقل جثمانه بعد ثلاثة شهور إلى قرطبة حيث دفن بمقبرة بنى عباد، وكان ذلك فى احتفال مهيب حضره الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى.

وذكر له ابن أبى أصيبعة فى عيونه مالايقل عن خمسين كتابًا، هذا إلى جانب شروحه لأرسطو وجالينوس، وقد نسب إليه مالا يقل عن ١٢٧ مؤلفًا، وإن كانت مؤلفاته المؤكدة لا تتجاوز أربعة وثمانين، لم يصلنا منها سوى خمسة وخمسين نصًا كاملاً، بالإضافة إلى متفرقات من نصوص أخرى يبلغ عددها ثمانية.

واقترنت فيها نزعته الفلسفية بنزعة إنسانية ترى أن المجتمع المثالى هو المجتمع الذى يتحقق فيه النظام الضرورى بحرية، ولا يعتبر فيه أى إنسان غريبًا عن المجتمع الإنسانى.

❖❖❖

طلعت حرب باحثًا ومفكرًا*

لم تقتصر اهتمامات طلعت حرب على الجوانب الاقتصادية للحياة فى مصر، بل كانت له إسهاماته الجليلة فى مجالات العلوم الاجتماعية والإنسانية. فقد تصدى للبحث والكتابة فى موضوعات شتى تناول فيها تاريخ العرب والإسلام، وتربية المرأة، ومشروع مد امتياز شركة قناة السويس فى سنة ١٩١٠ ومعارضته لهذا المشروع التى ضمنها كتابه «قنال السويس» وغير ذلك من الموضوعات التى إن دلت على شىء فإنما تدل على معايشته لزمانه وتفاعله مع أحداث الكبار وانشغاله بالشأن المصرى الذى ملك عليه نفسه وعاش من أجله ومن أجل النهوض به.

وقد ولد محمد طلعت حرب فى عام ١٨٧٦م بحى الجمالية فى أسرة عصامية يرجح أنها من سلالة انحدرت من قبائل «حرب» العربية التى هاجرت إلى مصر واستقرت بها فى العصور الإسلامية، وهى بطن من بطون بنى هلال بن عامر بن صعصعة، التى كانت منازلهم بالحجاز على ماذكره القلقشندى فى نهاية الأرب. وعمل بعد تخرجه من مدرسة الحقوق المصرية مترجمًا بقسم قضايا الدائرة السنية، ثم رئيسًا لهذا القسم. وانتقل بعد ذلك إلى قطاع الأعمال وأصبح مديرًا لشركة كوم أمبو، وعضوًا بمجلس إدارتها وبمجلس إدارة شركة التعاون المالى المصرية. وكان طوال هذه الفترة مهمومًا بفكرة علاج الحالة الاقتصادية فى مصر التى كانت ترزح تحت وطأة الاستعمار البريطانى، وألف فى ذلك كتابه «علاج مصر الاقتصادى» الذى نادى فيه بضرورة إنشاء بنك للمصريين، وهو المشروع الذى دأب على الدعوة إليه حتى نجحت دعوته بتأسيسه لبنك مصر وشركاته.

غير أن طلعت حرب لم يم تشغله كل هذه الأمور الجسام عن قراءاته وأبحاثه المتعمقة فى الآداب والتاريخ، مما أهله لكتابة مؤلفه فى «تاريخ دول العرب والإسلام» الذى طبع لأول مرة فى بولاق عام ١٨٩٨م (١٣١٥هـ) وأعيد طبعه عام ١٩٠٥م (١٣٢٢هـ).

ولما أصدر قاسم أمين كتابه «تحرير المرأة» أصدر طلعت حرب مؤلفًا فى ذلك تحت عنوان «تربية المرأة والحجاب» وافق فيه قاسم أمين على مبدأ وجوب تربية المرأة الذى

* جريدة الأهرام ١٩/١٢/١٩٩٥.

سبق له أن تناوله فى كتابه «البراهين البينات على وجوب تعليم البنات»، ولكنه خالفه فى تحرير المرأة ورفع الحجاب، وعاود الكرّة عندما أصدر قاسم أمين كتابه «المرأة الجديدة» فرد عليه طلعت حرب فى كتاب آخر عنوانه «فصل الخطاب فى المرأة والحجاب».

والجدير بالذكر كذلك أن طلعت حرب ظل طوال حياته متمسكًا بأهداب دينه، محافظًا على تعاليمه، مقيمًا لشعائره، زائدًا عن حوضه. وقد تبدى ذلك أثناء المعركة التى نشبت حول كتاب عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين «فى الشعر الجاهلى»، فقد شرّع طلعت حرب قلمه متصديًا لما جاء فى هذا الكتاب من شبهة المساس بالعقيدة الإسلامية، ودبج فى ذلك كتابا أسماه «الرد على إبليس». وهذا العنوان الذى يحمل الكثير من الدلالات والإيحاءات، هو وحده كل ما وصلنا حتى الآن من هذا الكتاب الذى لانعرف مكانه اليوم ومن ثم فإننا نجهل مضمونه وماجاء فيه من آراء وأفكار. فهو كتاب نادرًا ماذكر فى جملة ما كتب ردًا على طه حسين، وقد لايعرف بوجوده سوى أفراد قلائل، من بينهم ذلك الأستاذ التونسى الفاضل الذى قرأت له مقالاً فى هذا الموضوع أثناء إقامتى بتونس فى مطلع شبابى، ذكر فيه اسم هذا الكتاب ونسبه إلى طلعت حرب، وكان ذلك مفاجأة كبرى لى. (وللأسف فقد منى هذا المقال من ضمن ما فقدته من كتب وأوراق أثناء أسفارى وتنقلاتى المتعددة). ولما كانت هذه هى المرة الأولى التى يقع فيها بصرى على هذا العنوان، فقد ظل هذا المقال عالقًا بذهنى ودافعًا لى على البحث والتنقيب عن كتاب طلعت حرب هذا، وقد طوفت بجميع دور الكتب فى مصر وخارجها، فلم أعثر له على أثر. ثم إننى فاتحت مؤخرًا أحد أفراد أهله وعشيرته المقربين، وذكرت له ماكنت قد قرأته فى تونس عن هذا الكتاب، فأكد لى صحة نسبة هذا الكتاب إلى طلعت حرب، وأنه قد وجد مايدل على ذلك، وأنه هو نفسه يبحث عن نسخة من هذا الكتاب منذ سنوات طويلة دون جدوى.

وياحبذا لو تكرم القرّاء الكرام من العلماء والباحثين بالمعاونة بكل ما قد يكون لديهم من معلومات بشأن هذا الكتاب المفقود، توخيًا للموضوعية واستكمالاً للبحث العلمى، لا حبًا فى الجدل أو طلبًا للإثارة.

❖❖❖

كنوز المعرفة*

إن المعرفة قديمة قدم البشرية، وهى قد تطورت بتطور الإنسان وتحضره، فالإنسان منا قد خلق وهو يجهل كل شىء عن عالمه الذى جاء إليه ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨)، وعلمنا الله سبحانه وتعالى مالم نكن نعلمه لكى نحيا على هذه الأرض ونعمرها: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٥١). وعلى هذا فقد كان العلم عند العرب يرادف المعرفة ، لأن معرفة الشىء وعرفانه هى العلم به، والعلم هو اليقين، وهو نقيض الجهل، ولكن المعرفة لديهم كانت أخص من العلم، وكان أول مايلزم المرء معرفته هو الله عز وجل، ثم معرفة نفسه كما قال الحكماء، وليس بين هذين القولين منافاة. وكان سقراط يتخذ شعارا له عبارة «اعرف نفسك بنفسك». ولن يسمح المقام هنا بأن نعود إلى عصور التاريخ الموغلة فى القدم للكشف عن ماهية هذه المعرفة، ولكننا سنكتفى بذكر عصرى الزراعة والصناعة. فعصر الزراعة هو العصر الذى اعتمد على ملكية الأراضى واستغلالها بواسطة جموع الفلاحين، كما أن عصر الصناعة هو العصر الذى ارتكز على إنشاء البنى الأساسية للصناعات التى قامت على أكتاف جموع العماء، أما الآن، فقد دخلنا عصرًا جديدًا لحمته المعلوماتية وفنونها، وسواء أهل المعرفة من علميين وتقنيين. وأصبحت نظرية المعرفة ومنظومتها تتربع على عرش الفكر فى الشرق والغرب، وتستحوذ على نصيب الأسد من كتابات المفكرين والعلماء. وقد تعنى المعرفة عندهم المعلومات أو التوعية أو العرفان أو العلم أو الخبرة أو المهارة أو الدراية أو التعلم أو الحكمة أو اليقين... إلخ، وتعريف كل عبارة من هذه العبارات إنما مرده إلى السياق الذى وردت فيه.

والسؤال الآن هو: كيف نعرف، وكيف نثق بما نعرف؟ فالمعرفة تنصب الآن على امتلاك المعلوماتية الحديثة جدًا واستغلالها داخل منظومة متكاملة من الاستراتيجيات والعمليات الكفيلة بخلق نوع من التدفق المتواصل لهذه المعرفة وإدارتها بحذق ومهارة لتحديدموقعها وتنظيمها ونقلها واستخدامها محليًا ودوليًا. ولكى تصل هذه المعرفة إلى ذروتها، لابد من الحصول على وسائل الاتصال وعلى المعلومات التى لم تتوفر بعد فى الكتب أو فى آليات معالجة هذه المعلومات. ولابد من مضاعفة النواتج المعرفية التى تقاس بواقع ٩٩٪ من النواتج الفرضية، و١٪ فقط من النواتج الفعلية، ولايحكم على هذه

* جريدة الأهرام ١٩٩٩/٨/٣١.

النواتج إلا بالنسبة لحداثتها وملاءمتها لواقع الحال، وقدرتها على ترشيد المهام المعقدة التى يصادفها الإنسان فى حياته اليومية، علمًا بأن عمر هذه النواتج قصير جدًا، كما أن المعدات والآلات اللازمة لتوليد هذه الأجيال من النواتج المعرفية باهضة الثمن، وهى ليست فى متناول يد الجميع، بل تقتصر على حفنة محدودة من الأفراد الذين عرفوا إما بثرائهم المادى أو بانتمائهم إلى منظمات المعرفة، ومن ثم تولدت الفجوة وازدادات بين الدول الغنية المتقدمة التى تمتلك هذه المعرفة وآلياتها، والأخرى الفقيرة النامية التى لا تمتلكها، لأن امتلاكها ليس بالأمر السهل أو الهين، ولم يعد اكتشاف الذهب أو النفط، ولاغزو الأراضى واستعمار الشعوب، هو الذى يوصلنا إلى القوة الاقتصادية أو الهيمنة الثقافية، بل توصلنا إليها القدرة على كتابة البرامج المعلوماتية وفك رموز الجينات، أى امتلاك المعرفة فى جميع الفروع والتخصصات ولاشك أن المعرفة تستطيع أن تكون أداة رائعة فى خدمة التنمية الشاملة التى قد تفضى بدورها إلى مجتمع عالمى مؤسس على القيم، الأخلاقيات المتكافئة. وينبغى أولاً أن تصبح كنوز هذه المعرفة مهيأة ومتاحة للجميع لكى يستفيدوا دون تفرقة من مخرجاتها العديدة فى جميع مناحى الحياة، وذلك من أجل تحقيق المزيد من الرخاء والسعادة للأجيال المعاصرة والمقبلة. غير أن الثقة فى هذه المعرفة الحديثة تدعونا إلى الحذر وتوخى الحيطة. فالثقة فى هذه المعرفة تتوقف على مصادرها وعلى نزاهة هذه المصادر وحيادها. وهذا بالتالى يتطلب منا عزيمة قوية وتدريبًا شاقًا على اختيار ما يتلاءهم منها مع قيمنا ومثلنا العليا، ويحثنا أيضًا على إنشاء مراكزنا المعلوماتية الخاصة بنا والتى تحمل ملامح مواهبنا وكفاءاتنا سواء على الصعيد السياسى أو الاقتصادى أو الثقافى.

وكل الدلائل والإرهاصات تشير إلى أن القرن المقبل سيكون هو قرن من يمتلك المعرفة، ومن يستطيع بذكاء وحنكة تطويعها لمسايرة التطور والنهضة الحديثة. وهذا الامتلاك وهذا التطويع هو المحك والشرط الأساسى لتجنيب الشعوب تداعيات الظواهر العالمية التى يموج بها عصرنا الحالى، ووقايتها من شرورها المتمثلة فى الهيمنة العسكرية والاقتصادية، والتبعية الثقافية، وطمس الهوية ومسخ الشخصية الوطنية.



طلعت حرب.. راعياً لأهل الفن والأدب*

لقد سبق لنا أن تحدثنا منذ عدة سنوات وعلى هذه الصفحات، عن طلعت حرب.. باحثًا ومفكرًا، وعن جهوده فى مجال الكتابة والثقافة. ولقد أثار شجوننا مؤخرًا ماشاهدناه على شاشة التلفزة فى المسلسل الرائع «أم كلثوم» ، واللمسة الحانية لطلعت حرب على سيدة الغناء العربى أم كلثوم، وقد دفعنى ذلك إلى معاودة الكتابة عن جانب آخر من الجوانب المتعددة لهذا الرجل العظيم، وعن شيمة أخرى من شيمه الأصيلة التى أنعم الله بها عليه. فإلى جانب اهتماماته المتشعبة بالاقتصاد والمال، فإنه لم يتوان عن رعاية المواهب الجديدة والبراعم الناشئة فى مجالات الفنون والآداب ومناصرة أهلها فى السر والعلن.. وكان يسعى إلى التقرب منهم والسؤال عنهم وعن أحوالهم.

واهتمامه بالفن السينمائى والمسرحى فى مصر غنى عن التعريف. ومن أقواله المأثورة فى هذا ما روى أنه قال: «ثمار الفكر وثمار الفن جناحان للبنك بهما يحلق فى سماء الثورة العلمية لدعم الثورة الشعبية» كما أن رعايته لأسمهان وفريد الأطرش وزكى طليمان وغيرهم من أهل الفن، هى أيضًا من الأمور المعروفة والشائعة.

هذا وإن رعايته لأهل الفن والأدب لم تقتصر على أبناء مصر وحدهم، بل تجاوزت حدود القطر المصرى لتشمل العالم العربى كله، والمثال على ذلك هو ما حظى به شاعر الشعب اللبنانى عمر الزعّنى (بتشديد العين وكسرها)، والملقب بموليير الشرق (١٨٩٥-١٩٦١) من إعجاب واهتمام طلعت حرب عندما سمعه لأول مرة وهو فى زيارة عمل للبنان عام ١٩٣٠. وكان ذلك فى الحفل الكبير الذى أقامته جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية على شرف طلعت حرب، والتى أنشد فيها الزعنى يمدحه فقال:

طلعت حرب
من غير طلعت حرب
سوى الشرق
مع الغرب

وقد دعاه طلعت حرب إلى زيارة مصر والتعرف على أهلها من فنانين وأدباء. ولما حضر إلى مصر فى عام ١٩٣٢، أقام له طلعت حرب حفلاً شائعًا فى حديقة الأزبكية، دعى إليه جميع أهل الفن ورجالات السياسة، ومن بينهم محمد عبد الوهاب، والذى ارتجل الزعنى زجلا وجهه إليه وقال:

عــبــد الوهاب ياحــرامى

وبان الغضب على وجه عبد الوهاب حينًا ثم مالبث أن عاد إلى سروره عندما تابع الزعنى زجله قائلاً:

ياللى ســالب عــقل الناس

حــبك داخل فى عظامى

ورامى فى قلبى الوســواس

فصفق له عبد الوهاب بشدة وحماس، كما صفق له الجمهور طويلا.

وفى هذا الحفل أنشد الزعنى قصيدة فى مدح طلعت حرب قال فيها:

طلعت حرب من غير حرب

أغنى الشــرق عن الغــرب

واللي عــجــزت عنه الملوك

ســواه وحــده طلعت حــرب

❖❖❖

أغلى من الدر كــلامــه

والعــمــران غــرامــه

والمصــانع مــرامــه

رجل الاقتصاد طلعت حرب

❖❖❖

شـــغل العـــامل

حـــرك المعـــامل

بـــرم المــنــوال

أسس بنك طلعت حــرب

❖❖❖

قـــولـوا دام

قـــولـوا عــــام

بنك مـصـر بهـمـة

ابن مـصـر طلعت حـرب

❖❖❖

بشـبـرا بغـمـرة

بحلوان والمحلة الكبـرى

مكتـوب بالأحـرف الكبـرى

بماء الذهب اسم طلعت حـرب

إن المذكرات الخاصة والشخصية لطلعت حرب المليئة بأسرار الحياة الاقتصادية والسياسية والفنية وهى غنية بالعجائب والطرائف والأحداث طوال حقبة زمنية هامة فى تاريخنا المعاصر، ونأمل أن تخرج إلى النور قريبًا لتكون عونًا للمؤرخين والباحثين ونبراسًا للأجيال الصاعدة من شباب مصرنا الولادة، أم الدنيا.



الفصل السادس

عن التاريخ والمؤرخين

كنوز حضارة العراق*

إن حضارة العراق التى تضرب بجذورها فى أعماق التاريخ، هى التى صاغت أسس العلوم والفنون والآداب وفلسفة الأديان، وهذه الحضارة التى هى رمز الحضارتين البابلية والآشورية، مهددة اليوم بالفناء والتدمير على يد القوات الغازية للعراق، لقد كانت سومر فجر الفن والحضارة فى بلاد الرافدين، وجاءت الحضارة الآشورية فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد وحافظت على وحدتها العنصرية ولكنها فى الوقت ذاته تبنت ثقافة بلاد الرافدين دون أية محاولة لتعديلها، ولكنهما تطورا معًا لارتباطهما الوثيق بالحوادث التى وقعت فى أرض المعارك التى خاضها الآشوريون المعروفون بأنهم كانوا شعبًا شجاعًا محبًا للحرب، وكانت هذه الإمبراطورية الأشورية جديرة بأن تمتد قرونًا كثيرة، ولكنها وبعد خمسين سنة، لم يبق منها شىء سوى ما طورته من إنجازات فنية ومعمارية كقصر سرجون فى خرسباد، والمعابد فى نينوى وآشور، وبعد أن أصبحت بابل صاحبة نفوذ لا ينازع فى كل أرجاء بلاد الرافدين لفترة عابرة تقدر بخمسمائة سنة (٩٩٠ - ٣٣٨ ق.م)، تسلم الفن البابلى الجديد تراث الماضى، وحافظ على الأسلوب العراقى. وجعل الملوك من سياستهم تخليد عظمة نظام حكمهم ليس عن طريق إرسال الحملات العسكرية إلى البلدان المجاورة فحسب (احتل نبوخذ نصر بيت المقدس سنة ٥٨٦ ق.م) بل بتنفيذ منهاج طموح للعمارة فى مدينة بابل ذاتها وفي كل أرجاء المملكة. وركزوا جهودهم على تزيين العاصمة، ولم يدخروا المال فى أن يجعلوا من بابل بأسوارها العظيمة وأبوابها الضخمة ومعابدها وقصورها وجناتها المعلقة، واحدة من عجائب الدنيا السبع.

وكان انتصار كورش الفارسى وسقوط مدينة بابل إيذانًا بعصر جديد للأخمينيين (٥٥٨ - ٣٢٣ ق.م) الذين هدفوا إلى أسلوب جرىء يمزج بين الدماثة الغربية مع جمود قدسية الفن العراقى، ومع الاستعداد للإبداع فى فن العمارة باستعارة أفكار من مصر، وهو ما يمكن ملاحظته فى مدينة برسيبوليس حيث تأثيرات نينوى وبابل وطيبة وربما أثينا أيضًا.

ولقد عرفت حضارة الرافدين وإلى جانب وفرة وتنوع أعمال الفن والعمارة، أشكالاً أخرى من أشكال التعبير الفنى وهما الأدب والموسيقى اللذان يبدو أن سكان وادى

---

* الأهرام الدولى ١٠/ ١٢/ ٢٠٠٤.

الرافدين كانوا من طلائعهما» وقد استطاع الآثاريون فى عصرنا الحديث الكشف عن مجاميع من الرقم الطينية بكاملها، كما عثروا على مكاتبات بكاملها فى نينوى ونفر ولكش وماري، وفى مواقع أخرى مثل شورباك والوركاء وأور ونمرود وآشور. فمن بين الأعمال عدد كبير من النتاجات الأسطورية والقصص الملحمية من أمثال «أنكى ونتحوزساك (إحدى قصص الفردوس» وملحمة جلجامش وقصة الطوفان (وهى من طراز قصص الطوفان التى وردت فى التوراة وفى الآداب البابلية والتى سمى فيها سيدنا نوح باسم زيوسودرا).

وهذه الاكتشافات ألقت الكثير من الضوء على المفاهيم التعبدية والشعائر الدينية التى كانت سائدة فى أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، ذلك أن الدين والتاريخ سارا معًا جنبًا إلى جنب فى بلاد الرافدين.

وعرف عن السامريين أنهم أساتذة فى أنواع عظيمة من الأشكال الأدبية بما فى ذلك الملاحم والأساطير والخرافات والأناشيد الملكية والدينية وأناشيد النواح، وصيغ العبادة والطقوس الدينية وكتب الأمثال. أما الموسيقى والتى كانت تعتبر بشكل واضح ليس فحسب وسيلة للتعبير أو مدعاة فرح للمشاعر، بل ونشاطًا اجتماعيًا أيضًا يوصى به الدين، حيث يقرر معظم علماء التوراة أن الإصحاح الرابع من سفر التكوين يجسد عدة تقاليد تتعلق بالتاريخ المبكر للعنصر البشرى، وطبقًا لأحد هذه التقاليد فإن المجتمع البدوى فى تلك العصور القديمة كان يتكون من ثلاث فصائل من نسل قايين هى: الرعاة والحدادون والموسيقيون، زد على ذلك أن التوراة تحدد أن «يوبال» كان أبا لكل ضارب بالعود والمزمار (سفر التكوين ٤، ٢١). وقد عثر مؤخرًا على عدة آلات من القيثارات والربابات التى كانت تستخدم فى ذلك الحين إلى جانب آلات النفخ التى كانت شائعة الاستعمال بين سكان وادى الرافدين فى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد.

أما فيما يتعلق بالحضارة العربية والإسلامية فى العراق، فحدث عنها ولا حرج، فهى تعتبر أم هذه الحضارة بلا منازع، فبغداد التى أنشأها الخليفة المنصور عام ١٤٥هـ (٧٦٢م) وأطلق عليها اسم «دار السلام» شهدت عهد بنى العباس الذى دام خمسمائة سنة، كانت فيه بغداد قصبة دول إسلامية عظيمة شاسعة الأطراف، وغدت مركز الحياة العقلية واحتلت أرفع مكان فى العالم المتمدين فى ذلك الوقت بفضل ازدهارها

وثرواتها، وعاشت بغداد أزهى عصورها فى القرن الذى أعقب وفاة المنصور، أو على وجه الدقة فى عهد خلفائه الخمسة من المهدى حتى وفاة المأمون، أى من عام ١٠٩هـ إلى ٢١٨هـ (٧٧٥ - ٨٣٣ م).

وظل العراق موطن الغايات فى كل فن، وآحاد الدهر فى كل نوع، وبيت الحكمة وموئل خزائن الكتب والمخطوطات، ولمعت فى سمائه أسماء خالدة من العلماء والكتاب والشعراء الذين أثروا حضارتنا العربية وحضارة البشرية جمعاء وتركوا لنا تراثا وافرًا سيبقى رغم كيد الأعداء والغزاة حتى يرث الله الأرض ومن عليها...

❖❖❖

أيريدون إخراج حضارتنا من التاريخ...؟*

يتحدث المفكرون فى الغرب، ومنذ عقود، عن صراع الحضارات، وأن حضارتهم الغربية هى الأسمى وأنها هى التى ستعلو على الحضارات الأخرى، وأنه لابد من الصدام مع الحضارة العربية الإسلامية التى تشكل لهم اليوم العدو الأول بعد انهيار سور برلين والاتحاد السوفيتى، وهم لا يخفون أن الصراع سيكون مريرًا وطويلاً ولن تحسمه سوى القوة والجبروت! وهذا التفكير المستهجن جعلنا نحن فى العالم العربى والإسلامى نشعر بأننا أصبحنا عرضة للهجوم وربما للفناء. وحاولنا بقدر المستطاع بسط نظرية مضادة هى نظرية حوار الحضارات بدلاً من نظرية صدامها. والواقع أن أقوال أولئك المفكرين المرسلة ما كان لها أن تظهر وتنتشر لولا القوة النووية العاتية والهيمنة الاقتصادية الكاسحة التى جاءت بها عولمتهم، والتى يعتقدون أنها السبيل إلى القضاء على الحضارات الأخرى وإفنائها، ثم التربع على عرش العالم دون منافس أو منازع أو مزاحم.

غير أن الدارس لحضارتنا المدنية العربية الإسلامية يدرك تمامًا أنهم معذورون عندما أساءوا فهم معنى الحضارة واشتطوا فى الحكم على حتمية وقوع الصدام بينها، لا لشىء سوى أنهم يشعرون بالزهو والكبرياء إزاء ما حققته حضارتهم الغربية الراهنة من تقدم علمى وثقافى لا شك فيه، متجاهلين فى ذلك أن الحضارة ليست علمًا أو تكنولوجية فحسب، بل هى فى المقام الأول أسلوب حياة ومقومات أخلاقية وجمالية ودينية، وأنهم بأقاويلهم وكتاباتهم التى يروّجون لها، يحاولون فرض قيمهم الحضارية علينا بصورة عشوائية وقسرية.

فالإنسان الذى هو أصل الحضارة، خلقه الله وزوّده بالقدرة على الاستدلال والاستنتاج، وخلق له ذاكرة ولغة، والتى تعتبر الأساس الأول لقيام أى حضارة. كما أن الحضارة لا تقتصر على بعض الأجناس دون الأخرى، فكل الأجناس قادرة على صنع الحضارة وإن تفاوت ذلك فى القدر بطبيعة الحال. ولم تصمد أبدًا أى حضارة تقوم على القوة الغاشمة سواء كانت القوة العسكرية أو الاقتصادية أو التكنولوجية. فهذا الإنسان ليس هو الذى يصنع التاريخ، وإن بدا ذلك، أو أنه الأداة المنفذة، إنما يصنع

* الأهرام الدولى ١٤/ ٢/ ٢٠٠٣.

التاريخ نفسه، بمعنى التاريخ المكتوب بيد القدر، فالتاريخ ليس التاريخ المكتوب بيد الإنسان ولكنه التاريخ المكتوب بيد القدر، فالإنسان يكتب التاريخ ولكن القدر هو الذى يصنعه، فحضارتنا العربية خرجت من الصحراء ودخلت التاريخ بفضل الإسلام الذى أصبح رسالة السماء إلى العالمين! فهو الذى صنع حضارتنا وهو الذى سوف يصونها ويحافظ عليها إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها. ولا شك أن الصراع أبدى وقائم طوال التاريخ وعلى كل المستويات والأبعاد والجوانب، فهو صراع أجناس وشعوب ودول وقوميات وطبقات، وهذا قد يسبب الانتكاس للتاريخ وقد يؤدى إلى تقهقره فى بعض الأحيان ولكن هذه هى حركة التاريخ طوال التاريخ...

وللمرء أن يتساءل: هل تصادمت الحضارات فى الماضى، أم أن كل حضارة قد استوعبت مراحلها صعودًا وهبوطًا وانحسارًا، أى أنها نبتت ونمت ثم ماتت بعد أن تكون قد حققت غاياتها؟ فلكل حضارة رموزها ومميزاتها التى تنفرد بها، وتعبر بها عن نفسها، كما أن لكل حضارة معاييرها وأخلاقياتها وركائزها. كما أن التواصل بين الحضارات كان سلسًا وهادئًا فى أسلوبه وطرائقه.

فالحضارات تصعد وتتقدم، وقد تضمحل وقد تظهر مرة أخرى وربما بأقوى مما كانت عليه فى السابق. وتلك حال الحضارة العربية الإسلامية التى وصلت إلى أوج ذروتها فى العصور الوسطى بعد قيام الإسلام وخروج العرب من جزيرتهم لنشر هذا الإسلام والدعوة إليه على أساس القرآن الكريم المكتوب بلسان عربى مبين، فانتشر الإسلام وانتشرت اللغة العربية معه. ومع هذا الانتشار، أخذت الشعوب التى استعربت تقاليد العرب وأخلاقهم وعاداتهم، بل وأمثالهم وأساليب تفكيرهم، ولقد دخلت هذه الحضارة اليوم، ودون أن تسعى إلى ذلك، فى تصارع مع الحضارات الأخرى وخاصة فى شقها الثقافى.، ثم أصبح فى عصرنا صراعًا اقتصاديًا وصناعيًا وعلميًا وتقنيًا بعد ما ازدهرت الحضارة الغربية وحققت تفوقها فى كل الميادين المادية. وذلك فى الوقت الذى مرت فيه حضارتنا العربية الإسلامية بعهود انفتاح وانغلاق، حيث كانت مهددة دائمًا بالنزعة التوسّعية والاستعمارية للأوروبيين، وطغيان رأسماليتهم ومقدرتهم المستمرة والمتسارعة على الابتكارات والاكتشافات العلمية والتكنولوجية وما شابه ذلك. وهم يدعون الآن إلى الصدام مع الحضارات الأخرى ولا سيما حضارتنا العربية الإسلامية، لإخراج هذه الحضارة من التاريخ.

غير أن هذه الحضارة الغربية المنفلتة لا تعى حقائق التاريخ وعبره ودروسه. فهى بكل جبروتها وعنفوانها وجلالة قدرها قد بدأت تظهر عليها أعراض التصدع، ودخلت

عليها عدة تغييرات جذرية على مستوى الطباع والأخلاقيات والسلوكيات التى تنذر بسيرها نحو حتفها وتهافتها بنفس السرعة التى قادتها نحو الذروة.

وفى الوقت ذاته، تشير كل الدلائل إلى أن الحضارة العربية الإسلامية، بعبقريتها الخلاقة وبتراثها الثقافى وبكل مقوماتها وأسسها الراسخة مرشحة لاستعادة حيويتها ومكانتها فى عالم الغد.

فهذه الحضارة التى استفادت فى مطلعها من الحضارات الأولى الفارسية والهندية واليونانية، قادرة اليوم على التكيف مع الحضارات الحديثة وتطويرها واستيعابها لخير البشرية جمعاء، وبعد أن تغير العالم وازدادت حدة الهجمة الشرسة على حضارتنا وديننا. ولن يتأتى لنا ذلك إلا بالجهد والعرق، والتفاهم والتعايش مع بقية الشعوب، والنهوض بالإيجابيات وترك السلبيات التى أفسدت علينا حياتنا، فحضارتنا تحض على العلم والإقبال على العمل وإتقانه مع حب النظام واحترام الوقت وغير ذلك من الخصال المتأصلة فى أخلاق أممنا العربية والإسلامية، وبذلك فقط نستطيع أن نجدد دماءنا وأن نعيد حضارة عربية إسلامية مزدهرة ومستحدثة، وما ذلك على الله بعزيز.



تراث القدس الشريف*

تعمد إسرائيل حاليًا إلى طمس هوية القدس العربية بعد أن سبقتها فى ذلك الصهيونية العالمية التى بدأت هذه العملية منذ مطلع القرن العشرين.

فقد استولت إسرائيل على وثائق ومخطوطات مدينة بيت المقدس، وحشدت العلماء والباحثين الإسرائيليين وكلفتهم بشرحها وتفسيرها على طريقتهم الخاصة، أى محاولة تشويه الحقائق التاريخية وتأويلها كما يحلو لهم حتى يتيسر لإسرائيل إقناع العالم بادعاءاتها وأباطيلها وأغراضها الخبيثة الرامية إلى تهويد مدينة القدس الشريفة وجعلها العاصمة الأبدية لإسرائيل.

والباحث المدقق فى تاريخ القدس لابد وأنه على معرفة بهذا الكم الضخم من الدراسات والبحوث التى قام بها المستشرقون اليهود وأنصارهم، والتى بدأت فى الظهور والانتشار مع بوادر الحركة الصهيونية العالمية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. ونالت هذه الدراسة التشجيع الأدبى والمادى من هذه الحركة الصهيونية التى جندت لها فرقًا من أساتذة الجامعات الغربية، خاصة فى إنجلترا، والتى عملت تحت مسمى البحث العلمى فى حقل التراث الإسلامى، بعد أن كانت هذه الدراسات حكرًا على علماء اللاهوت. وظهرت هيئات متخصصة وممولة من الصهيونية العالمية لإخراج ونشر وتحقيق كل ما يتعلق بالقدس وفلسطين مثل صندوق الترجمات الشرقية لبريطانيا العظمى وإيرلندا، ومجلة الجمعية الشرقية لفلسطين.

والحق يقال إن هذه البحوث والدراسات قد حفلت بالتحليل الدقيق والدراسات المتعمقة لمخطوطات ووثائق القدس وفلسطين، ولكنها لم تخل من الافتراءات والأباطيل.

وبعد إعلان الوصاية البريطانية على فلسطين وصدور وعد بلفور فى ١٩١٧، انتقل مركز هذه الدراسات إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وإلى جامعة بيل على وجه التحديد حيث تخصص العديد من أساتذتها فى دراسة وتحقيق المخطوطات العربية التى تعالج الموضوعات التى تتعلق بفلسطين والقدس الشريف، وساعدهم على ذلك ما اقتنته الجامعة من مجموعة ثمينة من المخطوطات الشرقية فى هذا المجال والتى باعها لها البروفيسور السويدى لندبرج عام ١٩١٩. ولاقى هذا الاهتمام إقبالاً كبيرًا فى

---

* الأهرام الدولى ١٢/ ١١/ ٢٠٠٢.

أوروبا كذلك، وبدأت المدرسة الفرنسية فى دراسة وترجمة مجموعة المخطوطات الخاصة بفلسطين والمحفوظة فى مكتبة باريس الوطنية.

ومنذ أن احتلت إسرائيل أرض فلسطين، انتقل مركز الثقل لهذه الدراسات إلى الجامعة العبرية فى القدس ممثلة بمركز الدراسات الآسيوية والإفريقية الذى يشرف على هذه الدراسات الآن ويتولى تحقيقها ونشرها.

ومازال هناك الكثير من تراث القدس وفلسطين لم ينشر بعد، نظرًا لأن العديد من السجلات والوثائق مازال مخبوءًا أو مخفيًا لأسباب لا يعلمها إلا الله غير أننا نشير هنا إلى أن مكتبات العالم فى الغرب والشرق تعج بمخطوطات رائعة عن تراث فلسطين والقدس، وهى لم تر النور حتى الآن، رغم أن نشرها من شأنه أن يقدم خدمة جليلة لتاريخ فلسطين والقدس، وقضيتها خاصة، وللثقافة العربية الإسلامية عامة.

ويا حبذا لو فكرت الجامعة العربية فى تشكيل لجنة علمية من المتخصصين والباحثين العرب لجمع وثائق ومخطوطات تراث القدس وفلسطين ودراستها ونشرها بعدة لغات، والاستعانة فى ذلك بجهابذة الأساتذة الموضوعيين فى الغرب وفى أمريكا لإنجاز هذه المهمة التى ستبقى وستخلد بعد أن يفنى كل ما سواها.

فهل هذا بالكثير على مدينتنا الأزلية القدس الشريف، أو على أرضنا المقدسة فلسطين، مهد الأنبياء ومتعهد الأولياء؟



لويس التاسع المفترى عليه..!*

أثار د. أحـمـد يوسف المقـيم في باريس على صفحة «ثقافة عربية» موضوع عرض المماليك عرش مـصـر على لويس التـاسع ملك فـرنسـا الذى قـاد الحملة الصليبية السابعة على مصر عام ١٢٤٩م، تحت شـرط واحـد هو اعـتـناقـه للإسـلام، وذلك إستنادًا إلى مـا نقل عن فـولتيـر ومـا أورده جـان دى جـوانفـيل فى تاريخـه عن صـديقـه الحـميم لويس التـاسع، وهو الذى رافقـه فى حـملتـه على مـصـر وقاسى معه أهوال هذه الحملة وذاق عذاباتها، وهذا التاريخ يعتبر من عيون الأدبيات التاريخية الفرنسية التى كتبت باللغة الفرنسية القديمة، وقد ترجم إلى اللغة الفرنسية الحديثة عدة مرات آخرها فى عام ١٩٢٢.

وقد نزل لويس التاسع بجيوشه دمياط وهزم العساكر الأيوبية التى كانت هناك، ولم يجد مقاومة تذكر عند دخوله إليها، وذهل من سهولة وسرعة الاستيلاء عليها، ولكنه أدرك أنها خاوية على عروشها بعد أن هجرها أهلها وتخلوا عنها بعد أن أشعلوا فيها النيران، وبدأ الفرنج الغزاة يتعاملون مع دمياط وكأنهم باقون فيها إلى الأبد، وحولوا جامع دمياط الكبير إلى كنيسة نوتردام وعلى رأسها أسقف لاتينى، وفى تلك الأثناء أعاد الملك الصالح أيوب تنظيم جيشه، وسار لمحاربة الصليبيين، ونزل بالمنصورة، واستغل الضعف الذى طرأ على جيوشهم، وانضمام العربان إليه، فدهمهم وقتل منهم أعدادًا كثيرة ، وأسر لويس التاسع ومن بقى معه من جماعته (ومن بينهم جوانفيل) وحبسوا فى المنصوة بدار الصاحب فخر الدين بن لقمان، ووكل بهم الطواشى (أى الخادم) صبيح، ومات الملك الصالح فى تلك الأثناء، واستقر ابنه الملك المعظم توران شاه مكانه، ولكنه قتل بعد أن أبرم اتفاقًا مع لويس التاسع يقضى بإعادته لدمياط كفدية عن نفسه ودفعه مبلغ مليون دينار ذهبًا فدية عن جيوشه. وبعد وفاته فوضت الأمور إلى شجرة الدر، زوجة الملك الصالح، والتى تزوجت مرة ثانية بعز الدين أيبك التركمانى، وهو يعتبر أول من ملك من المماليك الأتراك بالديار المصرية.

وجرت مراجعات ومفاوضات مع لويس التاسع، تولتها زوجته، لتسليم دمياط فسلمت بعد جهد جهيد. وأطلق سراح لويس التاسع وسراح أخيه وزوجته وجماعته، وركبوا البحر وأقلعوا إلى عكا ثم إلى بيت المقدس للحج. وعاد لويس التاسع إلى بلاده وعكف

---

* الأهرام الدولى، ٢١/ ٨/ ١٩٩٨.

على أعمال الخير كعادته، وأنشأ عدة مستشفيات منها المستشفى المشهور المسمى مستشفى ١٥×٢٠، لأنه كان يتسع لثلاثمائة سرير، وذلك لمعالجة رجاله الذين فقأ المصريون عيونهم فى حرب دمياط.

ويذكر جوانفيل فى تاريخه أنه بعد مقتل توران شاه، ذهب أحد قتلته وهو الأمير أقطاى، لمقابلة لويس التاسع فى أسره وقال له: ماذا تعطينى وقد قتلت عدوك! (يقصد الملك توران شاه) ولم يرد عليه لويس التاسع ولزم الصمت أمام قتلة الملوك! كما قال. ولم يحدث أن عرض المماليك عليه عرش مصر تحت شرط دخوله فى الإسلام، والمرجح أن يكونوا قد حثوه هو ومن معه على الدخول فى الإسلام من باب الدعوة إلى إعلاء كلمة الإسلام والحق، ولكى يأمنوا شره، وشر عودته لغزو البلاد.

وبذلك تكون دمياط قد أقامت بيد الفرنج أحد عشر شهرًا وسبعة أيام بالتمام والكمال، وفيها يقول الشاعر الوزير جمال الدين بن مطروح:

قل للفرنسيس إذا جئته	مقال نصح عن قؤول نصيح
آجرك الله على ما جرى	من قبل عباد يسوع المسيح
أتيت مصر تبغى ملكها	تحسب أن الأمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفا لا يرى منهم	إلا قتيلاً أو أسيرًا جريح
وفقك الله لأمثالها	لعل عيسى منكم يستريح
فقل لهم إن أضمروا عودة	لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشى صبيح

ويقول المقريزى فى خططه:

«وقدر الله أن الفرنسيس هذا بعد خلاصه من هذه الوقعة، جمع عدة جموع وقصد تونس، فقال شاب من أهلها يقال له أحمد بن إسماعيل الزيات:

يا فرنسيس هذه أخت مصر	فتأهب لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر	وطواشيك منكر ونكير

وتلك كانت هى الحملة الصليبية الثامنة والأخيرة والتى قصد بها لويس التاسع غزو مصر من جديد انتقامًا من أهلها، عن طريق تونس، بناء على نصيحة صديقه جوانفيل الذى استعفى من الذهاب معه.

وهناك فى تونس لقى لويس التاسع حتفه إثر إصابته بالدوسنتاريا عام ١٢٧٠م.

أما الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار الصالحى الذى استقبله لويس التاسع فى أسره. فقد كان من الأمراء المماليك الطموحين جدًا، وقد شغل منصب كبير البحرية فى أيام المعز أيبك التركمانى، واستفحل أمره استفحالاً عظيمًا وقويت شوكته وانحازت إليه البحرية، وأخذ لنفسه ثغر الإسكندرية، وكان ينعم بالأموال الكثيرة، ويعطى العطايا الغزيرة، ويأمر على المعز التركمانى فلا يقدر على مخالفته، ولكن أسر ذلك فى نفسه وعزم على قتله، فاستدعاه إلى القلعة حيث قامت بطانة المعز التركمانى بإعدامه والتخلص منه.

وأخيرًا أود أن أضيف أن الحروب الصليبية - وكما هو معروف - كانت تهدف إلى الاستيلاء على بيت المقدس ونشر المسيحية ومحاربة الإسلام والمسلمين فى عقر دارهم ووقف زحفه وانتشاره. وقد حدث فى أيام الكامل الأيوبى، وفى أثناء الحملة الصليبية السادسة على مصر، أن استقبل السلطان الكامل سفارة من هؤلاء الصليبيين الذين كانوا يحتلون دمياط وكانت مكونة من القديس المشهور سان فرانسوا داسيزى ومن أخيه، وذلك لدعوة السلطان الكامل إلى اعتناق المسيحية هو ورعاياه المصريين. ولكن الملك الكامل «صرفه بلطف وحماه من بطش بطانته وحاشيته وأعوانه الذين استاءوا من سماع دعوته إلى تنصير أهل مصر...» وذلك على حد قول المؤرخ الفرنسى البارز رينيه جروسيه، فى موسوعته عن «تاريخ الحروب الصليبية».



الحملة الفرنسية على مصر...*

يحق لفرنسا أن تحتفى وأن تحتفل بالحملة الفرنسية التى قادها نابليون على مصر منذ مائتى سنة. ففى ٩ مايو ١٧٩٨ غادر بونابرت مدينة «تولون» فى أسطول ضخم يتكون من سبعين قطعة بحرية حربية وثلاثمائة سفينة نقل. ولم يعرف الركاب ولا حتى طاقم الملاحين وجهتهم إلا بعد مرور شهر على إقلاعهم من هذا الميناء الفرنسى. وتألف هؤلاء الركاب من ٣٨٠٠٠ عسكرى، و ١٦٠٠٠ من الجنود البحرية، وكذلك ١٥٤ مدنيًا يمثلون كوكبة مهولة من علماء الطبيعة والجيولوجيا والهندسة والرياضيات، ومن الكيميائيين والأطباء والمعماريين والموسيقيين والرسامين وعمال الطباعة، جمعتهم كلهم لجنة العلوم والفنون التى حشدها بونابرت وكلفها بأن تضاعف من حملته العسكرية بحملة علمية منهجية على أرض الفراعنة لاستكشاف مواردها وخيراتها وآثارها.

وفى أول يوليه، نزل الفرنسيون إلى الإسكندرية، وكان هذا النزول بأرض الشرق ولأول مرة بمثابة صدمة لعدد كبير من العلماء والفنانين الذين لم يكونوا قد غادروا معاملهم ومختبراتهم أبدًا من قبل. واشتدت هذه الصدمة وازدادت عنفًا بغرق إحدى القطع البحرية التى كانت تحمل معداتهم الثمينة فى أعماق مياه الإسكندرية حيث تقبع بها حتى الآن. وبعد انقشاع حالات الصدمة والذهول، وما إن وصلوا إلى القاهرة حتى بدأوا فى تنظيم أنفسهم، وأنشأوا فيها «مدينة العلوم» التى أصبحت فيما بعد مقرًا «لمعهد مصر» (وليس المعهد المصرى) الذى أسسه بونابرت فى ٢٢ أغسطس برئاسة «مونج»، وضم مكتبة وقاعة للتجارب ومطبعة. وواصل هذا المعهد عمله حتى عام ١٨٠١ تاريخ توالى الانهزمات العسكرية التى منى بها جيش الاحتلال الفرنسى وتخاذل بعض قواده نتيجة الحصار الإنجليزى وتفشى الطاعون. وطوال السنوات الثلاث التى أمضتها هذه اللجنة فى مصر، ورغم الصعوبات الجمة التى صادفتها، فقد قامت بعمل علمى ضخم. فقد عكف العلماء، كل فى تخصصه، على البحث والتدوين وجمع المادة وعمل المقاييس ووضع الرسومات والخرائط لكل شبر فى مصر، حتى العريان لم يشذوا عن القاعدة وأجريت عليهم عمليات مسح شاملة جاءت مكملة لما قام به المؤرخون المسلمون فى العصور الوسطى. وكان الحصاد رائعًا بالنسبة لفرنسا، فقد استولى هؤلاء العلماء على «عينات» من كل شىء: طائر الأبيس (أبو منجل) والجعارين الفرعونية والصقور

* أخبار الأدب، ٣/ ٥/ ١٩٩٨.

والتماسيح والمومياوات. ووضعوا وصفًا كاملاً لجميع المهن والحرف فى مصر، بل ووصفوا الآلات الموسيقية والملابس، وبطبيعة الحال الآثار المصرية حيث قام علماء الحملة بنقل جميع الكتابات الهيروغليفية المنقوشة على المسلات والمعابد، وهى بيانات أتاحت لشمبليون - وبعد عشرين سنة من اندحار الحملة - من أن يفسر لنا لغز الكتابة المصرية القديمة. ولم يقتصر أمر اللجنة على ما قامت به من عمل شاق فى مصر، بل كانت هناك مهمة أخرى أضخم وأصعب وهى استغلال هذه المادة الغزيرة التى جمعتها لتكون فى متناول اليد، فكانت النتيجة هى صدور موسوعة «وصف مصر» الشهيرة. وقد استغرق هذا العمل نحو ربع قرن، واشتمل على كل مناحى المعرفة والحياة اليومية فى مصر، مما أثار موجة من «الولع» الجنونى بمصر فى فرنسا فاقت الموجة التى عرفتها قبل الثورة الفرنسية. وأثرت موجة الولع هذه على الفن المعمارى وعلى سائر الفنون التشكيلية والتطبيقية، بل وعلى أذواق العصر فى فرنسا. والأدهى من ذلك أن هذه الموجة هزت أسس العقيدة الكاثوليكية السائدة فى فرنسا، فتاريخ البشرية الذى حددته كتبها المقدسة، بنحو سبعة آلاف سنة، ناقضه اكتشاف علماء الحملة للبروج الفلكية فى مصر والتى عادت بهذا التاريخ إلى ١٥ ألف سنة قبل الميلاد! ونجح المسيو مونج فى التوصل إلى شرح ظاهرة «السراب» فى الصحراء، وهو نفسه سراب النصر الذى تراءى لبونابرت ودفعه إلى إغراق أوروبا فى حمامات الدم الرهيبة المعروفة، والتى انتهت بنفيه إلى جزيرة «سانت هيلانة» حيث قضى نحبه مذمومًا مدحورًا.

أفلا يحق لفرنسا إذًا أن تحتفل وأن تحتفى بحملتها على مصر، وبما حققته من إنجازات واكتشافات علمية وثقافية وحضارية كانت لها تداعياتها الإيجابية على الحياة فيها؟ وألا يحق لنا نحن المصريين الذين ذاق أجدادنا وأسلافنا عذابات هذه الحملة وشرورها، عدم الانسياق وراء سراب «الولع بفرنسا» ، والتزام الحذر واليقظة فى التعامل مع هذه الاحتفالات التى لم يسمع التاريخ بمثلها من قبل؟

إن التفكير - مجرد التفكير - فى الاحتفال بهذه الحملة قد نكأ جراحنا بطريقة فظة وفجة، وأعاد إلى الأذهان هذه الذكريات التاريخية الأليمة والبغيضة التى كانت نذير شؤم على مصر وإيذانًا ببدء الاستعمار الإنجليزى لها، بل وبظهور عصر الاستعمار الغربى فى أنحاء العالم.



الفصل السابع

عن التصوف والمتصوفة

رحيل أحد أقطاب التصوف الإسلامى فى الغرب*

فقد عالم التصوف الإسلامى فى الغرب مؤخرًا أحد أبرز أقطابه وهو الدكتور مارتن لنيجز أو الشيخ أبو بكر سراج الدين (وهو الاسم الذى اتخذه لنفسه بعد إسلامه)، وذلك عن عمر يناهز السادسة والتسعين. وقد ولد الشيخ أبو بكر فى انجلترا عام ١٩٠٩ وتربى فى أحضان والديه وتابع دراسته حتى حصل على شهادة الليسانس فى الآداب، واجتذبته الحضارة الإسلامية، فانكب على قراءة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وتمعن فى الدين الإسلامى وأصوله إلى أن انشرح صدره للإسلام، وأسلم عن قناعة ويقين وإيمان، وسلك طريق التصوف بعد أن أصبح أحد مريدى الشيخ أحمد العلاوى المستغانمى الذى توفى سنة ١٩٣٤، وفى سنة ١٩٤٠ وصل الشيخ أبو بكر إلى القاهرة حيث عمل محاضرًا بجامعة القاهرة طوال اثنتى عشرة سنة وتعتبر إقامته فى القاهرة نقطة تحول هامة فى تاريخ حياته. فالقاهرة هى مقر الأزهر الشريف وحصن الإسلام المنيع، وكان بها فى ذلك الوقت أحد أقطاب التصوف وهو الفرنسى رينيه جينون، المعروف بالشيخ عبد الواحد يحيى فلازمه مارتن لينجز طوال إقامته فى مصر، ولم يفارق عتبته إلى أن اختار الله الشيخ عبد الواحد يحيى إلى جواره، فغادر لينجز مصر عائدًا إلى بلاده بعد أن نهل من هذا المنهل الفياض وارتوى بمياه النيل المتدفقة بالخيرات والبركات، وعكف الشيخ أبو بكر على العبادة إلى جانب الدرس والتحصيل، فحاز الماجستير والدكتوراة من جامعة لندن، وعين فى سنة ١٩٥٥ أمينًا عامًا لقسم المخطوطات العربية بالمتحف البريطانى حتى تاريخ تقاعده، وكرس حياته بعد ذلك للإسلام ووهب نفسه للتصوف سائرًا على طريق الشريعة والحقيقة. وطاف العالم شرقًا وغربًا للاجتماع بمشايخ المسلمين فى الصين وأندونيسيا وباكستان وجنوب أفريقيا وفى بلدان المغرب العربى، وحج إلى بيت الله الحرام، وشارك فى عدة مؤتمرات منها مؤتمر التربية الإسلامية بدعوة من جامعة الملك عبد العزيز فى مكة عام ١٩٧٧.

وألف الشيخ أبو بكر سراج الدين، رحمة الله، عدة مؤلفات جليلة باللغة الإنجليزية عن الإسلام والتصوف، ترجم معظمها إلى عدة لغات. ومن هذه المؤلفات نذكر كتاب اليقين (١٩٧٠)، وكتاب البشائر وقصائد أخرى، (١٩٧٠)، ثم كتابه عن «العارف بالله الشيخ أحمد العلوى، صوفى من القرن العشرين».

---

* الأهرام الدولى ٢٠٠٥/٦/٣.

ثم صدر له كتاب «ما هو التصوف..» الذى يعتبر مائدة حافلة بالأذواق والفيوضات.

وفى عام ١٩٨٣ أصدر كتابه «محمد ﷺ الذى ناقش فيه حياة الرسول ﷺ ورسالته استنادًا إلى المصادر الأولى، وكان الشيخ أبو بكر سراج الدين يرى أن التصوف هو «الجسر الذى يصل بين الشرق والغرب» على حد قوله، والمعروف أن مدرسة التصوف الإنجليزية قد اشتهرت بالدراسات الموسعة عن التصوف الإسلامى والتى اضطلع بها المستشرقون الإنجليز من أمثال براون ونيكلسون وأربرى وغيرهم، وكان الشيخ أبو بكر سراج الدين يمثل التغيير الجذرى الذى طرأ على هذه المدرسة وقوامه التصوف العملى الحقيقى الذى يستند استنادًا تامًا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية، والذى ترتبط سلسلته ارتباطًا وثيقًا بسلسلة الطرق الصوفية فى العالم الإسلامى.



إشكالية التصوف عند أبى حيان التوحيدى*

يقول الشيخ سهل بن عبد الله التسترى (٢٨٣هـ/٨٩٦م) وهو من أئمة الصوفية الأوائل «عليك بالصوفية فإنهم لايستنكرون شيئًا، ولكل فعل عندهم تأويل فهم يعذرونك على كل حال». وتصدق هذه المقولة تمامًا على أبى حيان التوحيدى الصوفى، لأنه على الرغم من تصوفه، فإنه قد سار فى حياته الفكرية إلى مدى أوسع بمحاولته دمج نتائج علم الكلام متمثلاً فى توحيد الأشاعرة والمعتزلة مع نتائج الفلسفة والتصوف، بحيث تشكل المحصلة الأخيرة لديه إطارا نظريًا لعقيدة التوحيد.

فقد كان التوحيدى ضليعًا فى جميع العلوم من نحو وشعر وأدب وفقه على رأى المعتزلة. كما كان بصيرًا باللغة متمرسًا بها وبفنونها إلى جانب فهم حاد للنزعات الفلسفية والأخلاقية والأدبية التى سادت عصره والتى برع فى تصويرها وأبدع فى التعبير عنها،ولم يمنعه ذلك من أن يكون شيخًا فى الصوفية كما قال ياقوت الحموى وغيره من كتاب السير والتراجم الذين إن اختلفوا فى نسبته إلى واسط أو نيسابور أو شيراز أو بغداد، فإنهم لم يختلفوا فى نعته بالصوفى. وكان التوحيدى من المعتزلة الذين اتسمت طريقتهم بالمذهب العقلى التعليلى الذى دانوا به. ولا ننسى أنه قد تأثر بالجاحظ، وهو من شيوخ المعتزلة، تأثرًا شديدًا، وسار على دربه مع اختلاف فى النهج الذى نحا فيه منحى أساتذته: أبو سليمان المنطقى (٣٩١هـ) وأبو سعيد السيرافى (٣٦٨هـ)، وأبو زكريا يحيى بن عدى (٣٦٤هـ)، وأبو حامد المروروذى (٣٦٢هـ)، وعلى بن عيسى الرمانى (٣٨٤هـ)، وكان التوحيدى أميل فى اعتزاله إلى طريقة شيخه السيرافى، لأنه كان هو نفسه من الصوفية، وقد ذهب البعض ومنهم المستشرق الفرنسى ماسينيون إلى لاقول أن التوحيدى تلقى أسرار التصوف فى سن مبكرة على يد أستاذه السيرافى.

ويقال كذلك إن التوحيدى كان من أنصار إخوان الصفا إن لم يكن واحدًا منهم، ولكنه كان يتستر اتقاء غضب الناس ونقدهم. ولكنه مع ذلك لم يسلم من النقد اللاذع وتحامل عليه الكثير من العلماء إلى حد اتهامه بالزندقة، وهو ما صرح به ابن الجوزى فى قولته المشهورة: زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندى والتوحيدى وأبو العلاء المعرى، وشرهم على الإسلام التوحيدى، لأنهما صرحًا ولم يصرح، وهو ما قاله قبله ابن فارس

* مجلة «شروق» جنيف ١٩٩٧.

فى جريدته حين اتهمه بالكفر والزندقة لأنه جاهر بالبهتان والقذف. ومهما يكن من أمر، فإن كان التوحيدى لايعتبر عند البعض صوفيًا بالمعنى المتعارف عليه عند أهل التصوف، فلاشك أنه قد سلك طريق الصوفية، كما سلك طريق المعتزلة، عن اقتناع وميل وذوق، فالأدب الصوفى عند التوحيدى له مذاق خاص، فهو أدب محمل بالأفكار والمعانى الفلسفية وبالأحاسيس والخواطر الروحية والعقلية مما يدل على أنه كان يحمل بين جنباته روحًا صوفية متعاطفة مع التصوف والصوفية. وقد كان فى كتاباته يمجد التصوف الحق ويمقت الأدعياء والدخلاء عليه وكثرتهم على أيامه، وذلك فى رأيه راجع إلى «انقرض الدنيا وقرب أشراط القيامة» كما كتب فى رسالته ثمرات العلوم. وقد أعلى التوحيدى فى هذه الرسالة من رتبة التصوف على باقى العلوم الأخرى. فالتصوف عنده هو إكليل العلوم الشرعية، ولكنه جعله صنو الفلسفة «فالفلسفة والتصوف يتجاوران ويتزاوران».

وقد جاءت أفعاله مطابقة لأحوال الصوفية، كما جاءت كتاباته مليئة بالأفكار والنفحات الصوفية، وعلى سبيل المثال، يذكر أنه لما انقلبت به الأيام، رأى أن كتبه لم تنفعه وضن بها على من لايعرف قدرها، فجمعها وأحرقها وألقى بها فى النهر، فلم يسلم منها غير ما نقل قبل الإحراق. وتلك عادة معروفة عند الصوفية قبحها ابن الجوزى وقال: «هذا فعل قبيح محظور وجهل بالمقصود بالكتب.. فلا تخلو هذه الكتب التى دفنوها أن يكون حق أو باطل أو قد اختلط الحق بالباطل. فإن كان فيها باطل فلا لوم على من دفنها، وإن كان قد اختلط الحق بالباطل ولم يمكن تمييزه، كان عذرًا فى إتلافها، فإن أقوامًا كتبوا عن ثقات وعن كذابين واختلط الأمر عليهم، فدفنوا كتبهم». وقد علق التوحيدى بنفسه على فعلته هذه فى رسالة حررها وقد بلغ «عشر التسعين» على حد قوله، رد فيها على أحد أصدقائه، عندما لامه على حرق كتبه: «وبعد، فلى فى إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يقتدى بهم، ويؤخذ بهديهم، ويُعشى إلى نارهم، منهم: أبو عمرو بن العلاء، وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر وورع معروف، دفن كتبه فى بطن الأرض لم يوجد لها أثر، وهذا داود الطائى، وكان من خيار عباد الله زهدًا وفقهًا وعبادة، ويقال له تاج الأمة، طرح كتبه فى البحر وقال يناجيها: نعم الدليل كنت، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول، وبلاء وخمول، وهذا يوسف بن أسباط، حمل كتبه إلى غار فى جبل وطرحها فيه وسدّ بابه، فلما عوتب على ذلك قال: دلنا العلم فى الأول ثم كاد يضلنا فى الثانى، فهجرناه لوجه من وصلناه، وكرهناه من أجل ما

أردناه، وهذا أبو سليمان الدارانى جمع كتبه فى تنور وسجرها (أى حرقها) بالنار، ثم قال: والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق لك. وهذا سفيان الثورى، مزق ألف جزء وطيرها فى الريح، وقال: ليت يدى قطعت من ها هنا بل من ها هنا ولم أكتب حرفاً».

ويتضح لنا من كتابات التوحيدى كثرة اطلاعه على كتب الصوفية ومؤلفاتهم واختلاطه بهم وأداء الحج فى صحبتهم واجتماعه بهم فى مكة، وتفاعله مع تعاليمهم وسلوكياتهم فى الحياة، حتى إنه كتب فى ذلك رسالتين هما: «الرسالة الصوفية» و«الرسالة فى أخبار الصوفية»، ولكنهما للأسف لم يصلا إلينا حتى الآن، وربما حرمنا ذلك من التعرف على ظروف انخراطه فى سلك التصوف، الوقوف على أسماء شيوخه وعلى من أخذ العهد، ولأى طريقة كان ينتمى، وأين حدث هذا، وهل كان فى شيزار أو بغداد، فالمعروف أن التوحيدى قرأ على اثنين من كبار متصوفة بغداد هما، أبو الحسين ابن إسماعيل المعروف بابن سمعون الواعظ البغدادى (٣٨٧هـ)، وكان واحد دهره وفريد عصره فى الكلام على علوم الخواطر والإشارات كما جاء فى الكواكب الدرية للإمام المناوى، والآخر هو جعفر بن محمد البغدادى المعروف بالخلدى (٣٤٨هـ)، وهو «إمام يم فضله متسع وشمل معرفته مجتمع» كما جاء فى المرجع السابق.

هذا وإن مؤلفاته تفصح عن معرفته الواسعة بأحوال الصوفية وكلامهم وعلى اطلاعه وإلمامه التامين بكل ما كتبه من سبقوه من أئمة الصوفية والعارفين بالله، ولاسيما الحسين بن منصور الحلاج المشهور. يقول التوحيدى فى الامتاع والمؤانسة، الليلة الرابعة والثلاثون: «لو اجتمع كلام أئمة الصوفية موأعلامهم لزاد على عشرة آلاف ورقة عمن نقف عليه فى ذهه البقاع المتقابرة، سوى ما عند قوم آخرين لانسمع بهم ولا يبلغنا خبرهم، منهم: الجنيد بن محمد الصوفى البغدادى العالم، والحارث بن أسد المحاسبى، ورويم، وأبو سعيد الخراز، وعمرو بن عثمان المكي، وأبو يزيد البسطامى، والفتح الموصلى، وهو الذى سمع وهو يقول: إلى متى ترددنى فى سكك الموصول أما آن للحبيب أن يلقى حبيبه؟ فمات بعد جمعة».

ويتبين لنا كذلك مما أورده التوحيدى فى مؤلفه الصوفى الوحيد الذى وصل إلينا وهو «الإشارات الإلهية» الذى كتبه فى حدود سنة ٣٩٣هـ، والذى وصلنا بعد أن أحرق كل كتبه، سمو درجة التصوف لديه وعلو قدره ومنزلته فى السلوك. وسنقف عند فقرة منها لكى نتأمل ماجاء فيها من فيوضات ربانية وإيحاءات روحانية، وكلها مادة صوفية اتجه فيها بأدعيته ومناجاته إلى خالقه عز وجل:

«حرام على قلب استنار بنور الله أن يفكر فى غير عظمة الله.

حرام على لسان تعود ذكر الله أن يذكر غير الله.

حرام على عين نظرت إلى مملكة الله أن تحدق إلى غير الله.

حرام على ما ألف لقاء الله أن يعرج إلى غير الله.

حرام على عبد الله أن يتخذ مولى سوى الله».

وله غير ذلك عدة أدعية صوفية يخاطب فيها ربه، منها: «إنه لا عز إلا فى الذل لك، ولا غنى إلا فى الفقر إليك، ولا أمن إلا فى الخوف منك». وحتى لدى وصفه للخصال الحميدة والأخلاق المحمودة كالصداقة مثلا فإنه ينظر إلى الصديق فى كتابه «الصداقة والصديق» نظرة تصوف، وهو تصوف فى الوداد الذى جمع معانى الصدق والإخلاص، ومن الصدق جاءت الصداقة كمايقول الدكتور زكى مبارك.

وأغلب الظن أن التوحيدى كان متصوفًا ولكنه لم يكن شيخًا من مشايخ الصوفية بالمعنى المعروف، فهو لم يترك لنا أتباعًا أو مريدين، كما خلت كتب تراجم الصوفية من ذكر اسمه، وذلك رغم أنه عاش فى أواخر أيامه بين إخوانه وأصحابه من أبناء الطريقة والحقيقة، وذلك قبل عدة سنوات على وفاته فى عام ١٤١٤هـ (على أرجح الأقوال)، وكان ذلك عن عمر يناهز القرن من الزمان كما جاء فى وفيات ابن خلكان.

وخير ختام لهذه العجالة ذلك الدعاء الذى كان يختم به التوحيدى مجالسه الصوفية: «اللهم اجعل قولنا موصولا بالعمل، وعملنا محققًا للأمل، ولا تضايقنا فيما نتحول به، ونتقلب لك فيه، وكف علينا بسترك، وسوغنا برّك، وألهمنا شكرك، وخفف على أفواهنا ذكرك، واخصصنا بعد ذلك بما هو أليق بذلك، اللهم اسمع واستجب وقرب».

❖❖❖

أسرار الحروف عند الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي*

اكتسبت الحروف فى اصطلاح الصوفية خواص عجيبة وآثارًا غريبة تظهر من أرواحها الروحانية بواسطة صورها الجسمانية تلفظًا واسمًا وكتابة ووضعًا، فالحروف عندهم هى الحقائق البسيطة فى ساحة العلم الإلهى قبل انصباغها بالوجود العينى. وهناك الحروف المنقوطة وهى الأعيان الثابتة فى العلم الإلهى، والحروف المهملة التى تتعلق بها الحروف ولا تتعلق هى بها، والحروف العاليات هى شؤون ذاتية كامنة فى غيب الغيوب كالشجرة فى النواة، وإليها أشار شيخنا الأكبر محيى الدين بن عربى بقوله:

كنا حـــروفًـــا عـــاليـــات لم نقل   مـــتـــعلقـــات فى ذرى أعلى القلل

أنا أنت فـــيـــه ونحن أنت وأنت هو   والكل فى هو هو فـسل عـمن وصل

والحروف عند العرب تكتب - كما هو معروف- من اليمين إلى اليسار مثلهم مثل العبرانيين والهنود والسريانيين، آخذين فى ذلك سير الفلك من المشرق إلى المغرب، والمشرق عندهم يمين الفلك، ويقال له مأخذ كورى، لأن فيه الاستمداد من الكبد إلى القلب وذلك عكس اللغات الرومانية واليونانية والقبطية التى تبدأ من اليسار إلى اليمين والتى تأخذ بسير الكواكب السبعة السيّارة من المغرب إلى المشرق، وهو المأخذ الذى يطلق عليه اسم المأخذ الدّورى، لأنه ناشئ عن حركة القلب إلى الكبد.

وقد اعتنى السادة الصوفية بالحروف لما لها من دلالات وخواص عند تركيبها وانفرادها، وقد اشتغل بها الإمام الغزالى وأبدع فيها حتى لقب بعمدة أهل الحروف فضلاً عن كونه حجة الإسلام، وإليه يرجع الفضل فى فتح هذا المضمار أمام كبار الصوفية الذين جاءوا من بعده من أمثال شيخنا الأكبر محيى الدين بن عربى الذى أصبح فارس هذه الحلبة حيث تكلم فيها بألطف عبارة وأدق إشارة.

ويقول ابن عربى فى رسالته عن سر الحروف: «اعلموا وفقكم الله أن الحروف سرّ من أسرار الله تعالى، والعلم بها من أشرف العلوم المخزونة عند الله تعالى، وهو العلم المكنون المخصوص به أهل القلوب الطاهرة من الأنبياء والأولياء، وهو الذى يقول فيه الحكيم الترمذى «علم الأولياء» ولنا فيه موضوعات عجيبة منها كتاب فى الفتح المكى

* جريدة أخبار الأدب ٢٥/١/١٩٩٨.

وسيط، ومنها كتاب فى الفتح الفاسى بسيط سميناه المبادئ والغايات، فيها ما تنتظمه حروف المعجم من العجائب والآيات. ومنها كتاب بسيط أيضًا تكلمنا فيه على الحروف المجمولة التى فى أوائل سور القرآن، وهى بضع وسبعون حرفًا بالتكرار، وأربعة عشر حرفًا بغير تكرار، وفى سبعة وعشرين سورة لما فسرنا القرآن على هذه الطريقة الإلهية».

وقد قسّم الشيخ الأكبر فى رسالته «سر الحروف» التى أشرنا، إليها الحروف إلى ثلاثة مراتب وهى: الحروف الفكرية والحروف اللفظية والحروف الرقمية. ولهذه الحروف وجوه كثيرة لا تكاد تحصى، ولكل وجه خصوص أمر لايكون إلا له. وكان الحرف عنده يمثل كل حقيقة مفردة فى أى عالم من العوالم، تسمى فى عالم الثبوت حرفا غيبيًا، وفى عالم الوجود العينى حرفًا عينيًا، وهذه الحقائق بتركيبها تظهر الكلمات، فالإنسان مثلا كلمة من حيث إنه يجمع فى ذاته حقائق متعددة (أى حروف)، وفى ذلك يقول:

إن الوجـــود لحــــرف أنت مــــعناه	ولـيـس لـى أمـل فـى الـكـون إلا هــو
الحـرف معنى ومعنى الحـرف ساكنه	ومــا تشــاهـد عين غـيــر مــعناه

وقال الشيخ الأكبر بالنسبة لخواص الحروف: «إن كانت للحروف خواص، فبعضها أكبر خاصة من بعض»، وأشار إلى أنه لم يتكلم عن خواص هذه الحروف بل على أسرارها، لأنه كان يرى «أن الكلام على خواص الأشياء يؤدى إلى تهمة صاحبه وإلى تكذيبه فى أكثر الأوقات. أما تهمته فى دينه فهو أن يكون من أهل الكشف فى الوجود، فيلحق بأهل السحر والزندقة، بما كفر وهو يتكلم على الأسرار التى أودعها الحق فى موجوداته، وجعلها أمينا، والناس ينسبون إلى من يقول بنسبة الأفعال إليها فيكفرونه بذلك فيأثمون عند الله حيث لم يوفوا من النظر فى حقنا مايجب عليهم، ولا فحصوا عن ذلك، فهذا وجه تكفيرهم، وأما وجه تكذيبهم، فإن المحدثين بهذه الأشياء ينبغى أن يكونوا عارفين بصور التركيب وأوقاته وأقلامه وغير ذلك، فمتى نقصهم دقيقة من ذلك أبطل عملهم العمل الذى للعامل، فلانقول إنه أخطأ بكذا هو فتراها فيها، وشكل هكذا فى التركيب، أو لم يحسن وإنما يزكى نفسه، ويقول إن فلانا كذب وإنى جربت ما قال فما وجدت له أثرًا، فالسكوت عن العلوم العملية الروحانية بأهل طريقنا أولى من كل وجه، بل هو حرام عليهم بسطها بحيث يدركها الخاص والعام فيستعين بها المفسر على فساده».

وعنده أن لكل حرف من حروف المعجم أسرار عظيمة وأنه لم يشرحها فى مؤلفاته

إلا إيماء لأصحابه وحيث وثق من أنه لايعرف ما أشار إليه فى ذلك سواهم، فلا يصل إليها من ليس منهم، وقد بسط فى رسالته المذكورة عن كل حرف من هذه الحروف وبين مراتبها الروحانية.

وفى اعتقادى أن الشيخ الأكبر قد كتب فى سر الحروف قاصدًا بذلك أن يكون الإلمام بها إلمامًا برموزه وإشاراته المجردة التى جاءت فى مؤلفاته، لتسهيل قراءتها التى كثيرًا ما استعصت على فهم الخاصة بله العامة. ولعل شرحه لكل حرف من الحروف وبسطه لمعانيه، يشكل أداة أخرى تساعد السالك على توضيح ما استغلق على الفهم وإدراك كنه ما أورده فى فصوصه أو فتوحاته أو فى مؤلفاته الأخرى العديدة خاصة ما كتبه بخصوص نظريته الشهيرة فى وحدة الوجود التى تقوم- وباختصار شديد- على القول بأن الوجود كله واحد، وأن وجود المخلوقات عين وجود الخالق، لافرق بينهما من حيث الحقيقة. فالشيخ الأكبر لم يكن يكتب أو يتكلم بلغة العلم بل يكتب بلغة الفتح أو الإلهام. يقول الشيخ سراج الدين البلقينى (ت٨٠٥هـ): «وذلك أن كلام الشيخ رضى الله عنه (يقصد ابن عربى) تحته رموز وروابط وإشارات وضوابط، وحذف إضافات هى فى علمه وعلم أمثاله معلومة، وعند غيرهم من الجهال مجهولة».

والرأى عندى كذلك أن كتاباته عن سر الحروف إنما جاءتا كمفتاح لفهم نظرية ابن عربى الخاصة بالكلمة (Logos) التى ترادف عنده من الناحية الميتافيزيقية العقل الأول أو حقيقة الحقائق، والتى ترادف أيضًا من الناحية الصوفية الحقيقة المحمدية التى يقصد بها الكلمة الكلية الجامعة الظاهرة بصور الأنبياء من لدن آدم، والممثلة من الناحية الإنسانية لصورة الإنسان الكامل.

يقودنا هذا فى النهاية إلى الكلام عن المصطلحات الصوفية التى غالبًا ما استغلقت على فهم غير أهل السلوك. فالمصطلح الصوفى يعنى توليدًا لفظيًا لمضمون جديد كما هو الشأن فى مصطلحات العلوم؛ فالتصوف، علمًا ومعايشة، يحوطه الظاهر والباطن، كما أن الصوفى لايعنيه من المصطلح الصوفى سعة الدائرة أو انتشار الوضوح بقدر ما تهمه شحطة العبارة التى تترجم عن وجد يفيض عن معدنه، ولذلك فالمصطلح الصوفى يكتسب خصوصية تميزه عن المصطلح العلمى العام، وهو لايعبر عن المفهوم الذى يدل عليه الاصطلاح بالعبارة بل هو مصطلح يشار به إشارة صوفية إلى حالة معينة. ولذلك فإن العلاقة بين الدال والمدلول تبدو لفهم الإنسان العادى علاقة اعتباطية وماهى بذلك بالنسبة للصوفى، ومن هنا جاءت أهمية التعرف على دلالات الحروف وأسرارها عند الصوفية عامة وعند ابن عربى خاصة.

والشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى الحاتمي الطائى أشهر من أن يعرّف ولكن لابأس هنا من التذكير بسيرته فى هذه السطور القليلة. فقد ولد بمرسية (من بلاد الأندلس) سنة ستين وخمسمائة ونشأ بها وانتقل إلى إشبيلية سنة ثمان وسبعين، ثم ارتحل وطاف البلدان فطرق بلاد الشام والروم والشرق، ودخل بغداد وحدّث بها بشىء من مصنفاته، وله مؤلفات عديدة كلها فى علوم التصوف وأشهرها الفتوحات المكية وفصوص الحكم. وكان فصيح اللسان بارعًا فى فهم الجنان، قويًا على الإيراد، وكلما طلب الزيادة يزداد، كما قال عنه الإمام الغبرينى فى عنوان الدراية، وكان مجموع الفضائل، مطبوع الكرم والشمائل، قد فضّ له فضله ختام كل فن، على حد قول شيخنا الإمام عبد الوهاب الشعرانى.

ومات بدمشق فى ربيع سنة ست وثلاثين وستمائة ودفن بالصالحة بتربة ابن سراقة، وهو الاسم الذى عرف به.

❖❖❖

ابن تيمية وصوفية عصره

عاش شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية فى حران التى ولد فيها سنة ٦٦١هـ وتحول به أبوه إلى دمشق، وطلب إلى مصر من أجل الفتوى فى عام ٧٠٥هـ ومكث بها حتى عام ٧١٢هـ، وكان يسكن بالقرب من المشهد الحسينى، ثم سافر إلى دمشق، واعتقل بها سنة ٧٢٠هـ، وأطلق ثم أعيد، ومات معتقلا بقلعة دمشق، ومنع قبل وفاته من الدواة والورق. وكان العلماء يرون أنه مجدد القرن الثامن الهجرى لعلمه وفضله وعلو كعبه فى العلوم الإسلامية وتبرحه فيها ومناداته بتحرير المسلم من التقليد والتعصب. وكانت له مواقف مشهورة فى مواجهة ما كان يراه بعيدًا عن هدى الدين القويم وكل مايخالف سبيل المؤمنين.

وابن تيمية هو صاحب القول المشهور «إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولايقيم الظالمة وإن كانت مؤمنة» وكان شديد الحرص على مصالح الأمة الإسلامية ولايخشى فى الحق لومة لائم. وقد كان لعلمه ومسلكه الأثر الكبير فى نفوس العامة والخاصة على السواء. وقال فيه الإمام الذهبى بعد وفاته عام ٨٢٨ هـ: «رحل ولم يخلف مثله فى العلم والفضل».

وكان يجمع بين العلم والعمل ويجاهد فى الإصلاح ويهتم بأمر المسلمين، وكان يرى فتح باب الاجتهاد فى الفقه، ويفتى بخلاف المذاهب الأربعة. وكان جهاده أشد مع الجامدين من الأشعرية والفقهاء والصوفية الذين كان يأخذ عليهم عدة أمور منها:

- قول الصوفية إن طاعتهم لله وعبادتهم وحبهم الشديد له، طريق للعلم والكشف والمعرفة والإلهام.
- وحب الصوفية لأولياء الله وتقديرهم لهم واحتفالهم بموالدهم ومغالاتهم فى ذلك.
- وحرصهم على ترتيل أورادهم وأذكارهم،
- وزهدهم الذى هاجمه قائلاً: إنه يدعو إلى ضعفهم فى الحياة وإلى تواكلهم.

وقد شهر شيخ الإسلام ابن تيمية حربًا شعواء لا هوادة فيها على الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى، وهاجمه أشد المهاجمة لأنه كان يقول بالاتحاد والحلول وبقدم العالم ويتهاون فى أمور الشرع مع أنه لاينكر عليه أنه ذو خيال واسع (راجع مجموع الرسائل والمسائل لابن تيمية ٧٢٣، ١٣١-١٣٣). ولذلك ثار عليه الصوفية وناصبوه عداء بعداء، ولاسيما عائلة السبكى ذات النفوذ الواسع وعلى رأسها الإمام تقى الدين السبكى

(المتوفى سنة ٧٥٦هـ) الذى كان قاضى قضاة دمشق، وهو من الصوفية الشاذلية، وابنه الإمام تاج الدين السبكى (المتوفى سنة ٧٧١هـ)، وكان قاضيًا ومفتيا ومعلما. وكانا من الشافعية المناهضين للمذهب الحنبي، وهو مذهب ابن تيمية، وكتب تقى الدين سيرة ابن تيمية حمل فيها عليه وعلى أفكاره وآرائه وعقيدته وما وقع له من اعتقال وسجن حتى وفاته. وكان الصوفية يتناولونها فيما بينهم ويحذرون الصوفية من مؤلفاته والبعد عنها وقد تلقفها واحد من الصوفية الكبار وهو كميل المنصورى الشافعى، ودبج منها قصيدة شعرية. وابن كميل هذا هو شمس الدين محمد بن أحمد بن عمر بن كميل المنصورى، كان عالمًا فاضلاً، وتولى قضاء المنصورة وكان من كبار صوفية عصره. ولد فى سنة ٧٧٥هـ ومات سنة ٨٤٨ هـ، وكان سبب موته سقوط صومعته عليه وهو فى خلوته يتعبد لهبوب ريح شديدة، فمات تحت الردم. وكان شاعرا ماهرًا، وصنف عدة مؤلفات فى التصوف منها: «عيون السائرين إلى الحق» و «الوثائق العصرية». ونورد فيما يلى قصيدته الشعرية التى استوحاها من السيرة التى كتبها نثرًا الإمام تقى الدين السبكى

الحـــمـــد لله العظيم المنة ... مـــؤيد الدين بأهل السنة

ثم الصلاة والسلام السرمدى ... على النبى المصطفى محمد

وآله وصحبه الأطهار ... القانتين فى الدُجا الأبرار

وبعد فهذه نبذة ياقومية ... قد عزيت لأحمد بن التيمية

أعنى تقى الدين ذو المجادلة ... الحنبلى قدوة الحنابلة

ترجمة الشيخ بها ذو النسكى ... العالم الحبر الإمام السبكى

قال بَدَت فى سنة التسعين ... بعد تقضى ستة مئين

منه أمور هن فى العقائد ... والاستوى والنزول الوارد

ونحوهما إلى المجسمة ... ينسب أو للحشوية المذممة

وزاد فى ذلك حتى نُسب ... لقوله عظائم وارتكبت

أنكرها عليه أهل العصر ... من كل مفتى عالم وحبر

منها خروج جملة الكفار ... من الجحيم بعد نفخ النار

بحيث لم يبق بها منهم أحد ... وهل بهذا القول نص قد ورد

وكان أيضًا منكر التوسل ... والاستغاثة بالنبى المرسل

وكان يفتيهم بإنكار السفر | إلى زيارة النبى واشتهر
واختار من مسائل الطلاق | ما خالف الإجماع باتفاق
وهى إذا طلق من فى العصمة | بتًا ثلاثًا دفعه بكلمة
لايقع الطلاق فيها عنده | وكم وكم من عالم قد ردّه
والحالف الحانث بالطلاق | يُفتى له بعدم الطلاق
هذا وقد أفتى لبعض الأمرا | يقتل أهل الحوف حتى الفقرا
وفى دمشق عُقدت مجالس | لنُصرت الحق بها فوارس
نادوا عليه وعلى عقيدته | وحذّروا منها ومن طريقته
وبعد عقد مجلس المناظر | قضوا بطول حبسه بالقاهرة
بحارة الديلم حبس شرعى | وليس حبس مثله بيدعى
وعندما أنكر الاستغاثة | بالمرسل النبى ذو الإغاثة
منه إلى الإسكندرية نقل | وشرعه بحبسها قد اعتقل
هذا ومازال بها لما انترك | حتى أتا السلطان من نحو الكرك
أطلق لما ساءه طول النصب | وكان فيه شافعًا بعض العرب
فى سنة العشرون وسبعمائة | أطلق بعد النحت والسعاية
وسنة ثمان عشر جاء الخبر | بما رآه فى الطلاق وانتشر
ورده السبكى فى مجلد | سماه بالتحقيق وهو أجود
سما كتاب الردّ بالتحقيق | فى رده مسألة التعليق
والملك الناصر للمناظرة | أحضره من شامه للقاهرة
فى سنة الخمس وسبعمائة | ليعلموا ماقيل بالرواية
وأحضروا عقيدة بخطه | مضبوطة بشكله ونقطه
بمجلس النائب سلارا دُعى | بما عليه عند قاضى لوذعى
هو بن مخلوف الإمام المالكى | قاضى القضاة الناسك بن الناسكى
والملك الناصر لمّا أن سمع | بأنه عن رأيه لم يرتدع

أحـضـره بمصـر يوم الجـمع ... وكـان مـأواه بحـبس القلعـة
ثم دعـا السلطان أهل العلم ... ثم قـضـاة الشـرع أهل الحكم
الدافـعين قـول أهل البـدعـة ... بن جـمـاعـة وكـذا ابن الرفـعـة
قاضى القضاة الحبر بدر الدين ... والعـالم العـامل نجم الدين
وغـيـرهم من علمـاء الأمـة ... المرشـدين الكاشـفين الغـمـة
وفـيـهم الشـيخ تقى الدين ... أعنى به السـبكى ذى التـمكين
قـال حـضـرة مـجلس المناظرة ... بالصـالحـيـة التى بالقـاهرة
وكـان فـى ذاك أهـل الحل ... والعـقـد مع نائب دار العـدل
فـقـال نجم الدين بن الرفـعـة ... نقـلا عن الحـسين فـارعـه
مـقـالة بجـمع من حـضـره ... من قـال ذا كـيت وكـيت قـد كـفـر
فـقـام غـيظًا ملقـيًا عـمـامـتـه ... عن رأسـه ومظهـرا شكايتـه
يقـول فى اسـتـصـراخـه اقـتلونى ... مـكـررا ذلـك كـالمجـنـون
فـردّه نـائب دار العـدل ... وكـان من التـعـزير دفع القـتل
ونجـزت أمـثلة شـريفـة ... بعـزل من كـان لـه وظيـفـة
من آله وصـحـبـه الحنابلة ... وهـددوا إذاك بـالمقـابـلـة
واسـتـرجـعـوا عن رأيه هنالكا ... وأخـذت خـطـوطـهم بـذالـكا
ولم يزل بالسـجن حـتى أقلعـا ... وأشـهـد الجـمع بأنه قـد رجـعـا
عن رأيه ومـا إليـه ينسب ... من ذلـك الرأى الذى لايعـجـب
وبعـد مـا أطلق مـسـتـتـابا ... صنف فى الرد لـه كـتـابا
فكاتب السلطان فـيـه تنكزا ... بمنعـه الفـتـوى وكـان منجـزا
وأودع المذكـور حـبس القلعـة ... بالشـام كى يُردع أهل البـدعـة
فى سنة السـبع مع العـشـرين ... قـضـى بـه ولاة أهـل الـديـن
ولم يزل بالسـجن حـتى مـاتا ... وشـتت أصـحـابه أشـتـاتا
فـالبـعـد عن هذا طويلا بركـة ... والأخـذ عنه مـايراه هلكة

والمقـــتـــدى بقـــوله يؤدب بحـــبـــســـه ونهـــره ويضـــرب

كى لا بفـــتـــواه يضل عـــامل ويســـتـــمـــر فى عـــمـــاه الجـــاهل

ترجـــمـــة الســـبكى كـــانت نثـــرا لكنى لخـــصـــتـــهـــا لتـــقـــرأ

وبعـــدها فـــالحـــمـــد لله على أفـــضـــاله الجمّ ولا حـــول ولا

ثم الصـــلاة والســـلام الأكـــمل على نبى قـــدره مـــبـــجـــل

وآلـه وصـــحـــبـــه الكرام القـــانتين فى دجى الظلام

أرجـــو بمبـــدأها حـــيـــاة دائمـــة وأســـال الرحـــمن حـــسن الخـــاتمة

❖❖❖

الفصل الثامن

عن الترجمة والمترجمين

في خضم الثقافة العربية

سفينة الترجمة*

تعتبر الترجمة بمثابة السفينة التى تمخر عباب البحار والمحيطات لتنقل بضاعتها من بلد إلى آخر، ومن قارة إلى أخرى، لتتبادلها بين الأقطار والحضارات، فالترجمة هى الموصل الحقيقى للثقافات، وهى الوحيدة القادرة على إجراء حوار موضوعى بين تلك الثقافات عندما ترسو على شطآن مختلف الأمم والشعوب حيث تتلاقح الأفكار والأحداث وتتلاقى على المستوى العالمى. ولكى تؤتى سفينة الترجمة أكلها وتحقق جدواها فكريًا وثقافيًا، فإن الأمر يتطلب الإجادة التامة للغات ودقة النقل والتعبير، وهذا لعمرى أمر تقع مسئوليته على عاتق قائدى هذه السفينة، وهم بطبيعة الحال المترجمون الذين ينبغى لهم أن يعملوا على الترويج لبضاعتهم بكل الوسائل وخاصة بإجادتهم للغة الأصل ولغة الأم إجادة تامة، والتحلى بحاسة الترجمة التى وإن كانت فطرة جبلوا عليها، فإنها لا تتطور ولا تنهض إلا بالمران والخبرة والتدريب، والتوجيه السليم، ومراعاة المعايير والأصول المتبعة، والإلمام بكل المستجدات فى مجالات المصطلحات والتعاريف، وتحرى الوسائل الحديثة التى قد تعينهم على تحقيق أغراض الترجمة الأصيلة، وهذا كله يمكن تلخيصه فى عبارة واحدة هى: أمانة النقل. وبهذا تتاح الفرصة أمام مختلف الثقافات لكى تتفاعل وتتقارب وتتفاهم بشوق وتشوق، وتلك مهمة بالغة الأهمية والحساسية، ولا يفى بأغراضها إلا من كان على درجة عالية من ثقافة الترجمة التى تقوم على التفانى والإبداع، وعلى حسن الذوق والتذوق.

وخلاصة القول هو أن سفينة الترجمة هى فى الواقع سفينة العلم، وهذا الاستنتاج هو الذى دفع سلفنا الصالح إلى الاهتمام بترجمة المؤلفات التى كتبت باللغات السريانية واليونانية والهندية والفارسية لكى ينهلوا من علوم الآخرين ويطوروها بما حباهم به الله من علم وفطنة بحيث أصبحت مؤلفاتهم العربية منهلاً علميًا لا ينضب ومرجعًا أساسيًا دام عدة قورن. وعالمنا العربى، وفى عصر العولمة، فى أشد الحاجة إلى سفينة الترجمة حتى لا تعصف به رياح التخلف، فهى الوحيدة التى يمكن أن تسير بنا إلى الأمام، وهى أيضًا القادرة على تغيير المفاهيم، واختراق الموانع والحواجز، وإصلاح ما يروج له المغرضون من تنافر وتناحر وتصادم بين الحضارات والديانات، وإيجاد السبل المجدية للتواصل والتحاور والتفاهم، وزيادة فرص التعارف والتآلف والمحبة بين الناس جميعًا، ولكن الملاحظ هو أن هذه السفينة تسير فى عالمنا العربى ببطء شديد، وهى تتعثر فى مسارها لحاجتها إلى المزيد من الوقود والقيادة الحكيمة والطاقم المحنك.

* الأهرام الدولى، ٢٠٠٥/٥/١٣.

دور الترجمة في الفكر العربي*

إنه لمن حق الترجمة علينا أن ندرسها وأن نقوم بنشرها والدعوة إلى الأخذ بها لأنها ميزة تميز بها السلف وينبغي أن يتوارثها الخلف. وإذا ما تذكرنا أن لكل شىء فى هذا الوجود تاريخًا، فإننا لا ندهش أن يكون للترجمة تاريخًا. نعم، إن الترجمة كائن حى قديم، وينبغى لنا أن نعرض لأحوالها ومالها من قوة أو ضعف، وأن نحيط خُبرًا بتأثيرها ودورها فى حياتنا الاجتماعية والثقافية، ولابد كذلك من معرفة خصائصها وظروفها، لكى نلم بثوابتها ونرتقى بأساليبها وطرائقها فى عصرنا الحديث، حيث لا تنفصل الترجمة عن الثقافة ولا عن الفكر والوجدان فى عالمنا العربى.

ونود هنا أن نلقى نظرة سريعة على تاريخ الترجمة العربية، وهو موضوع سبق أن تناولته أقلام العلماء والدارسين وقتلوه بحثًا وتمحيصًا، فبفضل الترجمة تولدت الحضارة العربية والعلم العربى الذى ساهم فى تكوينه مفكرون من مختلف القوميات والجنسيات، سوريانيون وفرس وصابئة ومسيحيون ونساطرة ويونانيون وأقباط من مصر وعبرانيون وهنادكة وأتراك وذميون، ولكن بلسان عربى، وفى ظل الدين الإسلامى الحنيف الذى لجأ إلى العقل ليحرك به الوعى الذاتى للفرد ويدفع به إلى الاستقلال فى الرأى، ومن هنا تأكيد مبدأ «الرأى» و «القياس» و «الاجتهاد» فى كل العلوم، وبخاصة الترجمة التى أصبحت القوة الدافعة للمذهب العقلى، والتى ربطت اللغة العربية بالمجرى العام للفكر الإنسانى فى تلك العصور. وقد مكنت هذه الترجمة من الوقوف على آراء الأقدمين فى مشكلات الوجود الكبرى وطرق حلها، ومن هنا نشأ التفاعل بين الفكر العلمى العربى والفكر العلمى الأجنبى، وساهمت سماحة الإسلام فى انتشار الترجمة والتأليف، فظهرت مدارس الترجمة واشتهرت برجالها من أمثال بختيشوع وأسرته، وأبو يحيى البطريق وابنه زكريا، وأبو زيد حنين بن إسحاق العبادى وابنه يعقوب، وغير ذلك من طوائف المترجمين الذين كانوا من أصل صابئ وعلى رأسهم ثابت بن قرة الحرانى، وهو من الذين مهدوا لحساب النهايات ثم التفاضل والتكامل، ونحن مدينون له بترجمة نظرية الاهتزاز الأرضى وبكتاب الذخيرة فى الطب، وهو كتاب يبحث عن علاج الأمراض بوجه خاص.

لقد أعطت الحضارة العربية الكثير لأنها تلقت الكثير من الحضارات الأخرى كاليونانية والفارسية والهندية، تلقت هذا كله ثم أساغته، وصاغت منه ثقافة عربية، ثم

---

* الأهرام الدولى ٢٨/ ٥/ ٢٠٠٤.

استخرجت منه خلاصتها، ثم أهدتها إلى الغرب قبل القرن الخامس عشر بوقت طويل. وإذا كانت الحضارة العربية قد استطاعت أن تنهض بهذا العبء الخطير، فهى قادرة فيما أحسب أن تتقبل الحضارة الأوروبية الحديثة بقبول حسن. وإننا الآن فى أشد الحاجة إلى التعمق فى علم الترجمة والوقوف على مفرداتها وأسسها لكى لا يفوتنا الاطلاع على ما يجرى فى عالمنا المعاصر الذى أصبح فيه هذا الكون بمثابة قرية صغيرة تعج كل ثانية بالمستجدات والأحداث الجسام التى قد تنعكس سلبًا أو إيجابًا على حياتنا نحن العرب، ولابد لنا من أن نعرف ما يدور من حولنا وما يراد بنا وبحضارتنا ومبادئنا، وأن نوسع بالتالى إمكانات حوار الثقافات والأديان، ولن يتأتى ذلك إلا بالتمعن فى قراءة الآخر، وهو أمر قد يكون ميسرًا وسهلاً لعارفى اللغات الأجنبية، وقد لا يكون كذلك بالنسبة للمواطن العادى الذى لا يجيد اللغات الأخرى ولكنه يطمع فى الاستزادة والاستفادة من علوم الآخر وأفكاره ومبتكراته. ولقد أتاحت لنا هيئة الأمم المتحدة ومنظومتها العالمية فرصة فريدة بل واستثنائية باعتمادها اللغة العربية فى أواخر السبعينيات كلغة رسمية لها وما استتبع ذلك من إدخال الترجمات الفورية والتحريرية على كل أعمالها وأنشطتها، فأصبح مندوبو الدول العربية بل وكل قراء العالم العربى فى وضع يتيح لهم الإلمام بمجريات الأمور فيها وبما يدور فى أروقتها وخارجها وما يصدر عنها من مطبوعات ومنشورات تتناول موضوعات على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لنا، مثل حقوق الإنسان والبيئة والعلوم والثقافة والاقتصاد والتجارة والتنمية والقانون الدولى والصحة وغيرها من الموضوعات الفنية بالأفكار، ناهيك عن الأرصاد الجوية والملكية الفكرية وغيرها من المجالات الهامة التى تمس حياتنا اليومية ومستقبلنا ومستقبل الأجيال القادمة. وقد أوجد هذا الاستعمال للغة العربية فى المنظمات الدولية مهنة «المترجم الدولى» الذى يتولى تحويل وثائقها إلى نصوص عربية، وأصبحت مهمة هذا المترجم هى مساعدة الأشخاص والمجموعات الإنسانية العربية منها والأجنبية، على التعارف والتفاهم فيما بينها بصورة أفضل بل وزيادة الاحترام المتبادل بينها. ومن ثم أصبحت هذه المهنة، وبغض النظر على أى مزايا مادية أو وظيفية، من أجمل المهن وأشرفها فى عالمنا الحديث.

واللغة العربية تقدم لنا، والحمد لله، إمكانات كبيرة لعملية الترجمة بفضل طبيعتها الخاصة ومميزاتها الصرفية وثراء مفرداتها وسهولة الاشتقاق والنحت والمزج، مما يساعد على وضع المصطلحات بطريقة سليمة وميسرة، وعلى ترجمة الكتب العلمية المتخصصة وتتبع نمو المفاهيم العلمية والأدبية وصولاً إلى أحدث الكشوفات والمخترعات، وهذا أمر لا غنى عنه لكل أمة تسمو إلى النهوض وإلى اللحاق بركب التقدم وإلى التواصل الفكرى مع مختلف الثقافات والحضارات.

أساليب الترجمة عند الأوائل (ابن البطريق مثالاً..)*

لقد كان للمترجمين الأوائل فضل الريادة فى حقول الترجمة المختلفة إلى اللغة العربية، غير أننا نلاحظ أن أغلب القائمين على أعمال الترجمة إلى العربية فى ذلك العصر لم تكن قدرتهم فى العربية تفى دائمًا بغرض النقل إليها كما أن النقل عن اليونانية مثلاً لم يكن يتم بالطريق المباشر بل كان يمر في الأغلب بمرحلتين من اليونانية إلى السريانية ومن السريانية إلى العربية، ويبدو أن الكثير من الأصول اليونانية كان قد نقل إلى السريانية قبل الإسلام وكانت مراكز العلوم القديمة فى حران وجند يسابور وغيرهما تحفل بهذه الأنشطة، ومن ثم فإنه لم يكن مستغربًا أن يقوم مترجمون من السريان تعلموا اللغة العربية وإن لم يتقنوها تمامًا. بنقل علوم الطب والفلسفة والعلوم الطبيعية... إلخ، فى عصر الترجمة أيام الخلافة العباسية، ولا عجب إذن أن نسمع شكوى علماء العرب فى هذه الفترة من سوء فهم المترجمين ومن ضعف قدرتهم على الوصول إلى مستوى ما يقومون بنقله، ومن هؤلاء الجاحظ الذى قال فى هذا الصدد وفى مقدمته لكتاب الحيوان «.. ومتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق وابن ناعمة وابن قرة وابن فهرير وثيفيل وابن وهيلى وابن المقفع مثل أرسطو طاليس...» ويعد ابن البطريق من المترجمين الأوائل الذين تصدوا لترجمة الكتب اليونانية إلى العربية.. فقد كان هو وأبوه البطريق من الرعيل الأول من المترجمين الذين اتجهت عنايتهم نحو الترجمة وكثيرًا ما تخلط المصادر بين الأب والابن. وقد اشتهر الابن يوحنا أو يحيى ابن البطريق بترجماته لكتب أرسطو طاليس وذكر له ابن النديم فى الفهرست مجموعة من الكتب اليونانية التى نقلها إلى العربية.

وقال عنه ابن القفطى فى تاريخ الحكماء إنه: «كان أمينًا على الترجمة حسن التأدية للمعانى، ألكن اللسان فى العربية وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب...» وقد أدرك بعض المترجمين الأوائل موطن ضعفهم فى اللغة العربية ولذلك ربما استعانوا بمن يراجع لهم ترجمتهم ويصحح لغتهم، ومن هنا تأتى أهمية المراجعة للترجمات حتى فى وقتنا هذا، وقد نقل ابن البطريق إلى العربية أثرًا ضخمًا من الآثار الأرسطوطالية وهو

* الأهرام - ٢٨/ ١١/ ٢٠٠٣.

«كتاب الحيوان» الذى تنسب إلى ابن البطريق أول ترجمة له إلى العربية، ويبدو أن نقل ابن البطريق كان عن أصل سريانى قديم عده ابن النديم أجود من العربى، ولعل ابن النديم قد أحس بالمشقة التى يحس بها القارئ العربى حينما يقرأ ترجمة ابن البطريق له، فقد سلك فى ذلك مسالك شتى فى التعبير يسرها عسير، فقد شاع فى استعمالات ابن البطريق ما يشيع فى العامية أحيانًا من صيغ ينقلها - على ما يبدو - بصورة تلقائية وتختلط عنده دلالات الألفاظ فيستعير ألفاظًا ليدل بها على ما يوازى معانيها وليس ذلك تأنقًا أو تفننا فى استعمال اللغة ولكنه عدم القدرة على التصرف فى العربية، وقد كنا نتوقع أن نجد أصداء هذه المصطلحات أو هذه المواقف المتحيرة من الألفاظ فى كتب أبى عثمان الجاحظ وهو من أوائل من إفاد بالكتب المترجمة إلى العربية ولا سيما كتاب أرسطو طاليس فى الحيوان الذى يشكل مصدرًا أساسيًا من مصادر كتاب الجاحظ نفسه عن الحيوان، ولكن أبا عثمان لا يدع لغة كلغة ابن البطريق تخل بلغته، فقد كان أبو عثمان أديبًا قبل أن يكون عالمًا أو ناقلاً للعلم، فخرج كتابه «الحيوان» وبه الكثير من الاستطرادات اللغوية لأن للغة عنده أهمية لا تقل عن أهمية المعرفة التى تحملها تلك اللغة، ومن هنا كان للجاحظ وأصحابه من المتكلمين الفضل فى توسيع آفاق العربية لتستوعب الفكر الجديد، لكن دون الجور عليها أو تعكير صفوها...



تكنولوجيا الترجمة*

بادئ ذى بدء، قد يبدو اصطلاح تكنولوجيا الترجمة غريبًا على الأسماع، غير أن المتعمق فى أصول الترجمة يدرك مغزى هذا المصطلح الذى يحوز الآن على مصداقيته الكاملة فى عصر العولمة الذى نحياه. فقد اتسعت آفاق الترجمة ومطالب دراستها، وزادت مسؤوليات المترجمين فلم يعد المترجم مجرد ناقل للألفاظ وإنما هو عضو عامل فى حياة الجماعة الإنسانية، ومن هنا أصبح المترجم الواسع الأفق والمدرك لتطورات عصره عضوًا مشاركًا فى صنع المعرفة ونقلها إلى اللغات الأخرى.

فالمترجم العربى فى عصرنا الحالى يواجه تمامًا مشكلة المصطلحات العلمية والفلسفية التى واجهت المترجم فى عصر المأمون وبنفس الروح والمنطق، أى تخليه عن نظرية النقاء اللغوى الذى ينتشر عادة فى عصر الانحطاط والانكماش مع غلبة الشكل على المضمون. ومن ثم سلم المترجم العصرى بضرورة استعارة مصطلحات العلوم والفنون والصناعات التى ليس لها مقابل معروف أو متداول فى لغتنا العربية. كما فعل مترجم العصر المأمونى عندما اقترب من تراث اليونان ولم يجد بأسًا من أن يقول «بوليطيقا» و«ريطوريقا» و «طبوغرافية» و «فسيولوجيا» و «لوغاريتم»... إلخ، وبذا انتصر العالم المترجم على المنقح المحقق. وفى العصر العباسى ظهر استخدام اسم النسبة لأول مرة فى اللغة العربية كما وجدناه فى اصطلاح الشعوبية والباطنية، وقد توسعت الترجمة الحديثة فى استعمال اسم النسبة، هذا بتأثير اللغات الأجنبية، ودخلتها عبارات مثل الواقعية والطبيعية والإبداعية، والمادية والمثالية والموضوعية حتى استجدت فى لغتنا العربية آلاف المصطلحات المشتقة من اسم النسبة، ولا شك أن ذلك قد أضاف إلى مرونة اللغة العربية وإلى قدرتها على التجريد فى التعبير مع الإيجاز والإحكام. وقد مكنت هذه المرونة اللغة العربية من أن تبارى اللغات الأوروبية باجتهاداتها الخاصة، ولو أن الجاحظ عاد إلى الحياة لوجد عسرًا شديدًا فى فهم أكثر ما يترجمه المترجمون اليوم! فهذه المئات أو الآلاف من الألفاظ العربية التى شحنت بمعان غير معانيها الأصلية عند العرب استجدت آلاف من التراكيب المترجمة عن اللغات الأوروبية، فنحن نترجم الفعل ورد الفعل نقلاً عن action et reaction وأزمة الثقة crise de confiance وأزمة الضمير crise de conscience، وليس معنى ذلك

* الأهرام الدولى ٢٤/ ١٠/ ٢٠٠٣.

أن هذه الألفاظ والتعابير لا وجود لها فى العربية الفصحى فهى عربية لا شبهة فى عربيتها ولكن الجديد فى الأمر هو طريقة استخدامه ثم التوسع الكبير فى هذا الاستخدام الجديد بما لم يألفه الأسلوب العربى الفصيح. وهذا التجدد الشامل بالقدرة على الاستيعاب والتمثيل آية حيوية لا آية فناء للترجمة العربية التى تجاوزت بهذه المرونة مرحلة الخطر ودخلت مرحلة الإبداع والابتكار.

وقد استلزم ذلك أن يتمتع المترجم بالضمير العلمى مثله فى ذلك مثل أى باحث أو دارس للعلوم والفنون. فهو يحتاج إلى الدقة البالغة والأمانة الكاملة والصدق الخالص. فالدقة هى أساس الترجمة وهى بالذات ما يسمى بالتكنولوجيا، لأن التكنولوجيا هى علم التَّقن أو الإتقان، واللفظان الأجنبى والعربى مشتقان من لفظ يونانى هو «تخنوس» ومعناه الصنعة والتجويد والإتقان. وهذا يستلزم أن يكون المترجم ضالعًا فى لغة أوروبية أو أكثر إلى جانب إلمامه الكامل باللغة العربية ومقوماتها ليصبح بساطًا ممدودًا بينه وبين أهل الترجمة. وفى النهاية فالمترجم يخدم مهنته بعمله وبصدق ما ينقله. فما قيمة ترجمة تؤدى دون إتقان أو إمعان أو فيها تظاهر بالألفاظ أو اختراع لفيظات ينخدع بها القراء وهى لا تقوّم بقدر ولا مكان لها فى علم الترجمة. فالخروج عن نطاق تكنولوجيا الترجمة هو مفسدة لعملية الترجمة. فالمترجم بصفته مترجمًا هو رجل متخصص فى هذه المهنة وتخصصه هو التفاعل بين اللغات بصدق وأمانة. فكل كلمة يكتبها المترجم ينبغى أن تكون مقدرة بميزان التقن أى تكنولوجيا الترجمة. وقد انتشرت ظاهرة المترجمين المحترفين من طلاب الرزق والكسب ومن صيادى الوظائف والعقود، وهو أمر يؤسف له، ومع ذلك فلا لوم على من يفعل ذلك ولا تثريب، فهو ليس من المترجمين المجتهدين والمجدين الذين يراعون ضمائرهم ويصدقون فى عملهم ويعانون أشد العناء للقيام بمهنتهم على خير وجه.

غير أن التكنولوجيات بمعناها الحديث فى عصر العولمة، فإن المقصود بها الحواسب وقواعد البيانات وشبكة الإنترنت وغير ذلك من الآليات الحديثة التى أصبحت بالنسبة للترجمة سلاحًا ذا حدين، لأن لها منافعها ومضارها غير أن مضارها أكثر من منافعها لعدة أسباب منها:

أ- فقدان الحس والتذوق لدى المترجم؛

ب - الاعتماد على الترجمة السابقة للآخرين وأخذها على علاتها، مما لا يدع مجالاً للتطوير أو الإبداع، ويساهم فى تكرار الأخطاء؛

جـ - كثرة الترجمات المستعجمة التى أصبحت تملأ الأسواق حاليًا، وأصبحت نوعًا من المسخ.

أما منافعها فهى قليلة ولكنها قد تفيد فى كسب الوقت لسرعة الوصول إليها. وهى قد تفيد فى ترجمة نصوص المنظمات الدولية لأن الكثير منها عبارة عن نصوص متراكمة. وهذا قد يوفر الكثير من الجهد والوقت. غير أن ترجمة الحاسوب لن تصل أبدًا إلى مستوى الترجمة الشخصية للمترجم المتمكن والعاشق للترجمة، والذى خلق ليكون مترجمًا لا حاسوبيًا! وهناك نوع آخر من الترجمات (المحوسبة) التى يعتمد فيها المترجم على الحاسوب لتسهيل وظيفته وتيسير عمله بفضل الحلول المتوفرة، ليختار منها ما يلائم سياق ترجمته التى يعمل عليها مع تزويده بالمراجع والوثائق المترجمة من قبل ليختار منها المترجم ما يراه مناسبًا منعًا للوقوع فى آفة الترجمة الحرفية.

فالترجمات (المحوسبة) ستظل أقل جودة من الترجمات البشرية التى تقوم على المعرفة والبلاغة والبيان، وقد يتسنى ذلك إذا ما أمكن للإنسان تنقيح هذه الترجمات المحوسبة والإرتقاء بها وبنوعيتها حتى لا تفقد الترجمة مصداقيتها وتصبح الآلة هى سيد الموقف، بدلاً من أن يصبح المترجم الإنسان هو سيد الموقف. فالترجمة لم تكن ولن تكون عملية آلية كما يتصور البعض. فاستغلال حسنات التكنولوجيا لا يمنع من ضرورة المعرفة الواسعة باللغات والقدرة على مضاهاتها مع حب البحث والاطلاع والاجتهاد السليم مع الأمانة فى النقل، كل ذلك بضمير مهنى حىّ ومنفتح!



أهمية توحيد المصطلح العلمي لتعزيز الترجمة في وطننا العربي*

لا شك فى أن النهضة العلمية فى عالمنا العربى تعتمد فى المقام الأول على حركة واسعة نشيطة فى مجال التأليف والترجمة بقصد توفير ما يحتاجه الدارسون والباحثون والمتعلمون من كتب ومنشورات علمية تزودهم بالثقافة العامة وبالدراسات التحضيرية والعلمية فى جميع المجالات.

وحركة الترجمة هى التى تبرز أمامنا فى الوقت الراهن الذى يعتبر التطور العاصف لمختلف العلوم والصناعات وهذه الحركة تحتاج بدورها إلى توفر المصطلحات العلمية المقابلة للمفاهيم الموضوعة فى اللغات الأجنبية.

ولقد لاقت حركة الترجمة هذه فى وطننا العربى عدة صعوبات نتيجة ندرة المصطلحات العلمية وصعوبة الحصول عليها. ولا شك أن هناك أعمالاً فى هذا السبيل قد بدأت منذ ما يزيد على نصف قرن إلى بعض الأقطار العربية، حيث عكفت مجامع اللغة والهيئات والمراكز العلمية الوطنية والإقليمية والدولية على وضع معاجم للمصطلحات العلمية العربية، إلا أن بعض ما وضعته من مصطلحات قد لا يتلاءم والذوق المعاصر أو الدقة التعبيرية، ومن هنا بدأت الصعوبات أمام مستخدمى هذه المصطلحات حيث إن المعنى الدقيق يحتاج عادة إلى لفظ دقيق، كما أن الاشتقاق الصحيح للمصطلح يتطلب معرفة صحيحة بالمعنى والمفردات كأداة سليمة للتعبير عما يترجم وعما يستنبط.

كما أن المدقق فى المصطلحات المتداولة الآن يجد أن بعضها لا يستجيب لقواعد المصطلحات العلمية البسيطة ومنها على سبيل المثال تفضيل الكلمة على الكلمتين عند وضع اصطلاح جديد إذا أمكن، وإذا لم يمكن ذلك تفضل الترجمة الحرفية. فهذه قواعد تعطى توجيهًا صحيحًا لدى اشتقاق المصطلحات، ولكننا نرى أن الكثير من المصطلحات الموضوعة لم يطبق هذه القواعد البسيطة، ومن هنا جاءت البلبلة والحيرة التى وقع فيها الباحث والمترجم والقارئ. هذا إلى جانب تعدد المصطلحات بتعدد البلدان العربية، وهذه ظاهرة نادرة من نوعها يصعب علينا أن نجد مثيلاً لها فى اللغات الأخرى، ولذا فإن التغلب عليها ليس بالأمر الهين. والأمثلة على هذا التعدد كثيرة

* الأهرام الدولى ٢٢/ ٨/ ٢٠٠٣.

ومقلقة. ولكن مهما يكن من أمر، فعلينا أن نتغلب على هذه الصعوبات نهائيًا. فالمصطلح ليس أداة جامدة لا تتغير مدى الدهر، بل على العكس فهو أداة طيعة تخضع لقوانين التغير مع مرور الزمن وتقدم العلوم والمعرفة، وليس فى ذلك أى عيب أو نقص، إذ أن تجديد بعض المصطلحات أو إدخال إصطلاحات عليها لتعطى المدلول الصحيح من الأمور الطبيعية التى لا مفر منها إذا أردنا النهوض بترجماتنا ورفع كفاءتها.

ولذا فإننا نوجه نداءً إلى المعنيين بهذه الأمور مثل الجامعات والهيئات العلمية والدولية ومراكز التعريب من أجل العمل على صياغة المصطلحات العلمية وتنسيق ما اختلف منها، وعلينا أن نتفق على مصطلحات موحدة تتصف بالدقة والبساطة والوضوح، وهى صفات تتصف بها لغتنا العربية. ومن ثم فإن الأمر يتطلب سرعة تشكيل فريق خبراء متعدد الاختصاصات لكى يتولى إنشاء موقع للمصطلح العلمى العربى على شبكة الإنترنت وذلك بعد تحقيق هدفين أساسيين هما:

١- تجميع حصيلة الأعمال التى وضعت فى هذا المجال من جانب المجامع والمجالس العليا والاتحادات والجامعات والهيئات الدولية ذات الصفة، وحتى الأفراد العلميين. وربط الصلة فيما بينها.

٢- توليف وتوحيد هذه المصطلحات العلمية، وهى متشعبة وكثيرة. بإحصاء جوانب النقص فيها، واستقراء المفاهيم العلمية المستجدة، والعمل على نشرها وتعميمها.

والرأى عندى أنه يمكن لنا وقد زادت المصطلحات العلمية والتقنية فى يومنا هذا زيادة كبيرة تتناسب مع متطلبات العلوم الحديثة والاختراعات التى أصبحت لا تقع تحت حصر، أن نأخذ هذه المصطلحات بالتعريب والنحت كما أخذ عنها علماؤنا فى السابق. وهذه الخطوة ستكون خطوة جريئة وشاملة فى سبيل تعريب المصطلحات وتوحيدها فى وطننا العربى. فالعلم هو تراث الإنسانية جمعاء، ولذا فينبغى أن تتوحد الجهود وألا نترك المصطلحات العلمية للتأويل أو التخمين، بل لابد أن يعالجها أهل العلم من المختصين وكذلك من المترجمين المخضرمين ذوى الثقافات والكفاءات العالية. فالترجمة لها شأن أى شأن فى وضع المصطلحات العلمية واختيارها، فالمترجم المتمكن من اللغة التى ينقل عنها واللغة التى ينقل إليها أقدر على تخير اللفظ الملائم والنقل المحكم، وصدق من قال إن أهل مكة أدرى بشعابها. فالترجمة وعلى غير ما قد يظن البعض علم له نظرياته وأساليبه وأدواته. وقد حذق أجدادنا العرب منذ القدم هذا العلم ونهلوا من معارف وعلوم الحضارات الأجنبية عن طرق الترجمة. وهم أول من وضعوا لنا أسس علم المصطلح وطرق استنباطه.

المؤتمر الدولى للمعاهد الجامعية للترجمة: نظرة عامة*

حازت الترجمة بمعناها الواسع والعريض على قدر كبير من الاهتمام فى عصرنا الحاضر، واستحوذت على مكانة رفيعة لدى المعنيين بالأمر فى جميع أنحاء العالم. كما حظيت الدراسات المتعلقة بتعليم الترجمة وتدريس فنونها وأساليبها ووسائلها بعناية فائقة من القائمين عليها فى الجامعات والمعاهد العليا التى تتولى هذه العملية، وذلك من أجل تعزيز قدرات المترجمين وتحسين طرق عملهم وتدريبهم ورفع كفاءتهم لكى ينهضوا بهذه المهمة عند التخرج بصورة متكاملة ومتفاعلة. فقد اتضح للجميع أن عملية الترجمة هى مصدر التفاهم والتواصل بين الحضارات والشعوب والأديان، وأنها السبيل الوحيد للوقوف على علوم الآخر ومعارفه وأفكاره لخير البشرية جمعاء.

فالترجمة لغة هى التفسير والبيان كما ذكر د. محمد الديداوى فى كتابه الجامع «الترجمة والتعريب»؛ ويقال ترجم كلام فلان إذا أوضحه وبينه، وترجم كلام غيره أى عبّر عنه بلغة غير لغة المتكلم. ولذا فهى تحتاج دائمًا إلى عملية صقل وتطوير لتصل إلى بلاغة الترجمة المرجوة. فلم تعد الترجمة مجرد ترجمة بالمعنى المعهود من نقل للألفاظ والكلمات، بل أصبحت علمًا من العلوم الإنسانية التى تتطلب الجمع بين معرفة اللغات والدقة والمهارة والإتقان. وقد اشتدت الحاجة إلى خدمات الترجمة بعد أن اتسعت ميادينها لتشمل كل أوجه الحياة المعاصرة فى جميع المجالات.

وهذا ما دفع بعدد كبير من العاملين فى هذا الحقل من أساتذة الترجمة فى الجامعات والمعاهد العليا فى العالم إلى التفكير فى إنشاء رابطة لهم تكون بمثابة المنبر الذى يستطيعون من فوقه الإعلان عن أفكارهم والإفصاح عن تطلعاتهم وطموحاتهم. وقد أصبح هذا الأمر حقيقة واقعة بعد تأسيس هؤلاء الأساتذة «للمؤتمر الدولى الدائم للمعاهد الجامعية للترجمة (سِيُوتِى... ciuti)، فى مدينة مونس فى بلجيكا. وقد وضع المؤسسون له عدة أهداف هى:

التنسيق بين أعضاء هذه الجامعات والمعاهد لتفعيل الموارد التدريبية والنهوض بعملية تبادل الأساتذة والطلاب، وضمان التعاون بين الباحثين لاستحداث أساليب تعليمية جديدة وقيام نوع من المساعدة المتبادلة فى مجال إعداد الوثائق الخاصة

---

* الأهرام الدولى ١٩/ ٥/ ٢٠٠٣.

بتدريس الترجمة، وتشجيع العلاقات مع الرابطات الأخرى والمنظمات الدولية بعد أن تعددت وتشعبت فروعها وتخصصاتها على كل المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية والقانونية والعلمية... إلخ، وبعد أن أصبحت هذه المنظمات الدولية تستوعب أكبر عدد من المترجمين. ولذا فقد قررت هذه الرابطة الدولية عقد اجتماعها السنوى لهذا العام فى مقر الأمم المتحدة بجنيف يوم الأربعاء الموافق ٢١/ ٥/ ٢٠٠٣، لمناقشة وضع هذا المؤتمر الدولى حيال سوق عمل المترجمين، بالإضافة إلى بحث عدة نقاط هامة مثل: ما هى الترجمة؟ وما هى معايير اختيار المترجم؟ وكيفية تقييم الترجمة ودور الوثائق والعامل الزمنى فى كل ذلك. ومن المقرر أن يضع المؤتمر عدة مقترحات ملموسة بشأن التدريب لكى يلبى بشكل أفضل احتياجات السوق ومتطلبات البيئة المتغيرة التى نحياها، وإقامة روابط وثيقة بين الجامعات وأسواق العمل، والوقوف على المناهج الجديدة لتعليم الترجمة (ولمزيد من المعلومات يرجى الاتصال: - hamelore. lee) jahnke @ eti. unig. ch

ويا حبذا لو انضمت الجامعات والمعاهد العليا العربية المتخصصة فى تدريس الترجمة إلى هذا المؤتمر الدولى لمجاراة التطورات الهائلة التى تحدث ولتبادل الآراء والأفكار على الصعيد العالمى فى هذا المضمار. وللعلم فإن الجهة الوحيدة من العالم العربى الممثلة فى هذا المؤتمر الدولى هى مدرسة المترجمين الفوريين والتحريريين التابعة لجامعة القديس يوسف فى بيروت - لبنان...



معالم فقه الترجمة فى ثلاثية د. الديداوى*

مازالت الترجمة من العلوم التى تندر فيها المؤلفات التى تتناولها بإسهاب وموضوعية، وربما كان مرد ذلك إلى إحجام أهل الخبرة عن الإفصاح عن أسرارها وتقنياتها، أو إلى قلة المتخصصين فى هذا العلم أو ندرة الأوفياء المخلصين له.

فالترجمة العربية لم تحظ منذ العصور الوسطى سوى باهتمام متواضع ابتداء من أوائل القرن العشرين، ولكنها أصبحت اليوم مطلبًا ملحًا بعد أن أثبتت جدارتها دوليًا وإقليميًا، وبعد أن توجهت إليها الأنظار كوسيلة لتمهيد السبيل أمام حوار الحضارات والثقافات، ونشر المعرفة والاختراعات العلمية التى تتدفق علينا من الغرب والتى لا يسعنا التغافل عنها أو إسقاطها من حسابنا بعد أن توغلت العولمة فى كل أركان العلم، وبعد أن جثمت بكل ثقلها وتداعياتها على أنفاسنا وعلى فكرنا وعملنا بل وعلى أدق تفاصيل حياتنا اليومية.

وقد تجلى كل ذلك فى الثلاثية الفريدة التى وضعها د. محمد الديداوى فى علم الترجمة، والتى صدرت على مدى العقدين الماضيين، وأسهمت بصورة جدية فى النهوض بهذا العلم ولفت الأنظار إليه، فقد اتسمت هذه الثلاثية بالأفكار الصائبة والتجارب المثابرة والتى إن دلت على شىء فإنما تدل على الإرادة القوية فى تبليغ هذه الرسالة التى كرس لها المؤلف نفسه وتفانى فى خدمتها على مدى السنين.

ولم يكن هذا العمل بالأمر السهل أو البسيط، فقد بذل د. الديداوى جهدًا خارقًا بغية الإلمام فى هذه الثلاثية بكل صغيرة وكبيرة ظهرت فى مجال الترجمة سواء فى العصور القديمة أو العصور الحديثة، وكل ذلك بلغة عربية سليمة وشائقة مشوبة بالطرافة والسهولة الممتنعة، دون جمود أو تنفير.

ويتضح من هذه الكتابات الهادفة والرصينة أن المؤلف لم يبدأ من فراغ، فقد ذكر فى مقدمة كتبه ما يدل على أنه قد اختار لنفسه هذا الطريق طواعية حبًا لهذا العلم، ومن ثم فقد سار على هذا الدرب انطلاقًا من خلفية علمية وعملية راسخة، ومن تجارب متعمقة مبنية على التآزر بين الجوهر والصميم، وهذا ما يلاحظه القارئ الدارس لهذه الثلاثية التى تطورت مادتها على مر الأيام والسنين وعالجت الترجمة العربية معالجة

---

* الأهرام الدولى ٢٠/ ١٢/ ٢٠٠٢.

علمية موضوعية فجاءت جامعة مانعة، رغم صعوبة المحاولة ذهنيًا وعمليًا، وصعوبة المزج بين فهم واقع الترجمة الحديثة وبين الموروث التراثى لها، فأضافت كل ما استجد فى هذا المضمار من أدوات ومفاهيم حديثة وتراكمات تقنية على درجة كبيرة من الأهمية للقارئ العادى والمترجم المحترف.

فقد بدأت ثلاثيته التى ظهرت أول ما ظهرت فى عام ١٩٩٢، بإصداره لكتابه الأول فى الترجمة تحت عنوان «علم الترجمة بين النظرية والتطبيق» حيث تناول فيه بطريقة متبصرة قواعد هذا العلم وأسسه، جامعًا فى كل ذلك ما بين القديم والجديد، مع الاستعانة بكنوز التراث العربى والاستفادة من مستجدات العلم فى الغرب، كل ذلك فى طابع لغوى أصيل، وقد تشعبت فصول هذا الكتاب لتشمل طرائق الترجمة والتبليغ ودراسة الجملة والمصطلح، وما يكتنف ذلك من مشكلات وعقبات خاصة من ناحية متن اللغة والتركيب والمنطق مع التركيز بوجه خاص على عمل المترجمين العاملين فى الحقل الدولى، وما يواجهونه من إشكاليات جديرة بأن تؤخذ فى الحسبان.

وجاء كتابه الثانى مصداقًا لكتابه الأول ومكملاً لبنوده وموضوعاته، حيث ضم بين طياته تحليلاً علميًا لإشكالية الترجمة، ومنهجية علم الاصطلاح بوصفهما عمد النص المترجم، ودور المترجم فى كل ذلك، كما فصل لنا مقومات الترجمة الحديثة والتعريف بالنص كوسيلة أساسية لمعايير الترجمة الصحيحة وحدودها وملامحها، كل ذلك فى خضم العولمة وثورة الحاسوب، ولم يخل الكتاب من التطبيقات العملية والمصطلحات المتخصصة التى تعتبر من الأمور الحيوية بالنسبة لعملية الترجمة، وفى كل ذلك لم يحد المؤلف عن طريقه الذى اختاره لنفسه وهو الجمع بين الأصالة والحداثة، والاعتماد على أقوال السلف من أمثال الجاحظ والتوحيدى والسيرافى وابن خلدون، وعلى أقوال المحدثين من عرب وأجانب كالفاسى الفهرى، ومحمد جابر العابدى، وشوقى ضيف وعبد السلام المسدى وبيكيه وشتولتس وغالينسكى وشومسكى وهاريس وغيره من العلماء والمفكرين.

أما كتابه الثالث الذى صدر أخيرًا تحت عنوان «الترجمة والتعريب: بين اللغة البيانية واللغة الحاسوبية» فهو كتاب لا يسع المترجم المعاصر جهله أو تجاهله فهو عصارة فكرية للخبرات والتجارب المتعددة التى مر بها علم الترجمة والتى قدمها لنا المؤلف على طبق من ذهب، ففى أقسام هذا الكتاب الأربعة تطرق بنا المؤلف إلى الحديث عن وحى التراث فى عملية الترجمة الحديثة، وهو يعنى بذلك تحديد المسائل اللغوية المستوحاة من تراثنا العربى، والتى تهم المترجم المستنير من لغة وكتابة ونص وبيان وبلاغة

وفصاحة ومصطلح وترادف مع شرح مقتضيات الترجمة وأساليبها مع عدة نصوص مترجمة ترجمة حرفية وبيانية، وختم كتابه هذا بالحديث عن الترجمة والعولمة، وفيه مقارنة فريدة بين النظرية التراثية للترجمة وأبعادها البيانية، وبين إسهامات الحوسبة، مع بيان خطر هذه الحوسبة على عملية الترجمة وعلى تعدديتها وخصوصيتها، وبذلك يكون المؤلف قد رسم الطريق الواضح أمام جموع المترجمين العلميين والمهنيين.

وخلاصة القول إن هذه الكتب الثلاثة تعد مرجعًا أساسيًا لا غنى عنه لناشئتنا من طلاب المعرفة والأساتذة والباحثين عامة، وأبناء المهنة خاصة، فقد جمعت هذه الثلاثية بين نظريات الغرب الحديثة وبين ما وصل إليه العرب قبل قرون فى هذا المجال، بحيث يشعر المرء بأن العودة إلى الماضى هى بمثابة التوجه نحو المستقبل، إنها ثلاثية جديرة بالاقتناء والدراسة!



عن الترجمة العربية وعن التواصل بين الشعوب*

قليلة جدًا - بل ونادرة - تلك المؤلفات القيمة التى تعالج عملية الترجمة وتتناول بصورة موضوعية إشكالياتها وآلياتها الحديثة. فهذا المجال يتطلب ممن يتصدى له الخبرة الطويلة والممارسة الجادة للترجمة، بل وتقتضى كذلك الحس المرهف والاستيعاب الكامل والناضج لكل صغيرة وكبيرة تتعلق بهذه العملية المعقدة والشاقة. فالدور الذى تلعبه الترجمة فى عصرنا الحاضر لا يخفى على أحد، وهو دور على درجة كبيرة من الأهمية والمسئولية. فهى سبيلنا إلى التعرف على ثقافات الآخر وحضاراته وتعريفه بثقافتنا وحضارتنا. ولن أضيف جديدًا إذا ما قلت إن الترجمة هى فعلاً همزة الوصل وحلقة التواصل بين الثقافات والحضارات.

وقد خرجت علينا أخيرًا محاولة رصينة ودراسة أكاديمية وعلمية رائعة، صدرت عن المركز الثقافى العربى، من تأليف الأستاذ محمد الديداوى. وهذا المؤلف - لمن لا يعرفه - ذو باع طويل فى مجال التأليف والبحث الدءوب عن أفضل السبل لرفع شأن الترجمة العربية، وهو يحاول دون كلل أو ملل، توصيل رسالة خلق لها وكرس حياته من أجلها رغم مشاغله العديدة والمناصب الشاقة التى تبوأها طوال حياته رئيسًا لأقسام الترجمة العربية فى مكاتب الأمم المتحدة فى فيينا وجنيف.

وهذه الدراسة الجديدة التى أتحفنا بها والتى تحمل عنوانًا معبرًا وقويًا هو: الترجمة والتواصل، وتتناول علم الاصطلاح كعماد للنص المترجم، وكذلك دور المترجم فى كل هذا. وناقش فيها - ولأول مرة - مواضيع غير مسبوقة اتسمت بالجدية والتعمق.

فهو يبدأ بذكر مقومات الترجمة والتعريف بالنص كأداة أساسية ومحك لها. ثم يعرج بنا إلى الكلام عن معايير الترجمة، وحدودها ومعالمها فى خضم العولمة وثورة الكمبيوتر، ويحدثنا أخيرًا عن التطبيقات وعن المصطلحات المتخصصة، وعن المراجعة كأداة لضبط النوعية والحفاظ على سلامة النص الأصلى من التحريف أو التشويش. وقد ناقش المؤلف كل هذه الجوانب وغيرها الكثير، بصورة متعمقة ومنهجية. وهو لم يكتف بذلك بل أورد لنا الأمثلة العملية على كل هذه الأمور التى تعتبر حيوية بالنسبة

* الأهرام الدولى ١٠/ ١١/ ٢٠٠٠.

لعملية الترجمة. كما جمع فى كتابه بين الأصالة والحداثة، واعتمد فى مادته على أقوال السلف من أمثال الجاحظ والتوحيدى والسيرفى وابن خلدون، وعلى آراء المحدثين من عرب وأجانب، كالفاسى الفهرى، ومحمد جابر العابدى، وشوقى ضيف وعبد السلام المسدى، وبيبكة وشتولتس وغالينسكى وشومسكى وهاريس وغيرهم.

فجاء الكتاب - والحق يقال - جامعًا مانعًا ومرجعًا لا غنى عنه لكل باحث عن الحقيقة والإبداع فى مجال الترجمة العربية، ولكل مترجم - مبتدئ أو مخضرم - يصبو إلى الارتقاء بمهنته وتجويدها. هذا وقد اتسمت لغة الكتاب بالأسلوب السلس وبلغة عربية أنيقة ومشوقة رغم وعورة الموضوع وتجهمه!

إن صدور هذا الكتاب فى هذا الوقت بالذات، لكفيل بأن يدعونا إلى التفكير العملى والجاد فى حاضر الترجمة ومستقبلها فى عالمنا العربى. ونحن نرى أن السبيل المقرب إلى ذلك هو إيلاء الترجمة ما تستحقه من تأييد أولى الأمر وتشجيع الأمة العربية بما يأخذ بيدها ويدفع المشتغلين بها إلى موالاة الدأب واحتمال النصب فى خدمتها وإنهاضها من كبوتها لكى نطل بها على العالم من حولنا، وما ذلك على الله بعسير!



فقه الترجمة*

نود قبل الشروع فى الحديث عن فقه الترجمة وعن أصولها وخصائصها، أن نعيد التأكيد على بديهية أولية وهى أهمية الترجمة كعلم من العلوم الإنسانية وكرافد من روافد نقل الثقافات والتقاء الحضارات عن طريق ترجمة الإبداعات العلمية والتقنية من لغة إلى أخرى، من أجل زيادة التفاهم والتعرف بين مختلف الشعوب والأجناس.

ولقد قامت الترجمة منذ العصور الأولى على ركيزتين أساسيتين هما: معرفة اللغة الأم (المنقول إليها) والإلمام الجيد بلغة الأصل (المنقول عنها)، ولذا بدأ المترجمون، وقبل ظهور الفلاسفة، مهمتهم وبذلوا جهودًا كبيرة فى الارتقاء بها. وفى البحث عن الكتب القيمة لترجمتها إلى اللغة العربية، حتى أنهم قد أقاموا لها بيت الحكمة ليعمل فيه المترجمون ولكى تحفظ بها آثارهم، وبذا استوعبت الترجمة فى العصور الإسلامية الأولى، وبخاصة فى العصر العباسى، ألوانًا شتى من الثقافات والمعارف، وحققت دفعة علمية قوية بنقلها المؤلفات من اللغات العبرية والسريانية، والفارسية والهندية، واللاتينية واليونانية.

وقد أضيفت إلى هاتين الركيزتين فى عصرنا الحديث عدة قواعد أخرى، مما أضفى على الترجمة صفة العلم، وتتمثل القاعدة الأولى فى التخصص. فالترجمة ليست كما يتبادر إلى الذهن مجرد معرفة اللغات فحسب، بل هى فى الحقيقة نوع من التخصص الدقيق، ناهيك عن أنها موهبة فردية ينبغى رعايتها وصقلها بصورة مستمرة والمترجم غير المتخصص فيما يترجمه يسىء إلى نفسه وإلى الترجمة معًا. أما القاعدة الثانية فهى معرفة علم المصطلح، أى الوقوف عند المصطلحات ومراعاتها عند الترجمة. والمصطلح كلمة أو مجموعة من الكلمات من لغة متخصصة (علمية أو تقنية.. إلخ) يوجد موروثًا أو مقترضًا، ويستخدم للتعبير بدقة عن المفاهيم وليدل على أشياء مادية محددة. ولهذا فإن وضوح المصطلح يرتبط بوضوح المفهوم الذى يدل عليه المصطلح، وهذا يتحدد فى إطار منظومة المفاهيم داخل التخصص الواحد. وقد أدى التقدم العلمى الحديث إلى اهتمام متزايد بقضية المصطلحات وضرورة توحيدها. ولا شك أن ترجمة المصطلحات نفسها قد تكون سهلة ميسورة، لكنها مع ذلك لا تخلو من مزالق وصعوبات، أهمها اختلاف المترجمين من بلد لآخر فى ترجمة هذه المصطلحات اختلافًا واسعًا يصل أحيانًا إلى حد البلبلة والتضارب بل والغموض. وهذا يقتضى منها وقفة

---

* جريدة الأهرام ١٧/ ٩/ ٢٠٠٠.

متأنية حيال الكشافات التقليدية، وضرورة إيجاد الطرق السليمة لتوحيد هذه المصطلحات وتنميتها على أدق نحو ممكن.

أما القاعدة الثالثة فهى الإملاء وعلامات الترقيم. فالإملاء فى اللغة العربية - إذا ما قيس بالإملاء فى كثير من اللغات الأجنبية - يمتاز بأنه غالب الاطراد، قليل الشذوذ، سهل الفهم، محدود الصعوبات، مضبوط القواعد. ونحن نستطيع أن ندرك منزلة الإملاء بوضوح إذا ما لاحظنا أن الخطأ الإملائى يشوه الترجمة وقد يعوق فهمها، كما أنه يدعو إلى احتقار المترجم وازدرائه، مع أنه قد يغفر له خطأ لغوى من لون آخر. فإذا ما أخطأ المترجم فى كتابة كلمة «سئل» بأن كتب الهمزة على الألف «سأل» انعكس المعنى فصار المسئول سائلاً وعلى ذلك، فإن المترجم الذى لا يمسك بزمام الإملاء هو مترجم رسالته منقوصة، فالترجمة ليست مسألة شكلية بل هى مسألة تتعلق بدلالات الإفصاح عنها. ويلى ذلك فى الأهمية علامات الترقيم التى تعتبر، ركنًا أساسيًا من أركان الكتابة العربية الحديثة، ولذا فإن الإحاطة بها وبمواضع استعمالها لها أهميتها كيما تكتمل للترجمة السليمة والجميلة عناصرها وأركانها. والترقيم فى الترجمة هو وضع رموز اصطلاحية معينة بين الجمل والكلمات لتحقيق الأغراض التى تتصل بتيسير عملية الإفهام من جانب المترجم، وعملية الفهم على قارئ الترجمة. ومن هذه الأغراض تحديد مواضع الوقف حيث ينتهى المعنى أو جزء منه، والفصل بين أجزاء الكلام، والاستفهام والتعجب وغير ذلك. وموضوع الترقيم يتصل اتصالاً وثيقًا بالرسم الإملائى، وهو أمر متبع ومعمول به فى اللغات الأجنبية.

وغنى عن البيان أن المترجم المتميز هو المترجم الذى يعرف جيدًا لغته الأصلية وما اشتملت عليه من قواعد ومصطلحات قديمة وحديثة، وأن يتمكن منها كل التمكن، وذلك بعد أن دخلت الترجمة العربية إلى الميدان الدولى وأصبحت ندا للغات الأخرى الشائعة الاستعمال، ودخلت المنظمات الدولية والوكالات المتخصصة، وشكلت بذلك مصدرًا من مصادر إثراء عملية الترجمة العربية برمتها. فأعمال الترجمة العربية فى المنظمات الدولية تتعلق أساسًا بترجمة الوثائق الرسمية، كالقرارات والاتفاقيات والمعاهدات والتوصيات إلخ، وهذا يقتضى الدقة أكثر مما تقتضيه الترجمة الأدبية. ومن ثم فإن مسألة سلاسة الأسلوب مع دقة المعنى فى ترجمة هذه الوثائق، هو أمر مطلوب بل وضرورى فى هذا الصدد حتى لا تكون هناك ترجمات أفضل من ترجمات أخرى. ولا نغالى إذا ما قلنا إن اللغة العربية قد أثبتت منذ دخولها إلى المعترك اللغوى الدولى، جدارتها ونجاحها فى تغيير نظرة الأجنبى قبل العربى حيال الترجمة العربية وترشيحها

للتمثيل والهضم والاستيعاب فى سهولة ويسر، الأمر الذى أسهم فى إبراز لغتنا وتطويع مادتها المترجمة، وتقنينها تقنينًا واضح الدلالة، مما حقق للترجمة العربية مكانًا مرموقًا مكنها من القيام على خير وجه بالدور المنوط بها والمتمثل فى نقل المحتوى والمضمون بأمانة ودقة.

ووجود اللغة العربية فى المنظمات الدولية حاليًا يدعونا إلى الإسراع بتلبية المتطلبات اللغوية المتزايدة من حيث التوحيد المعيارى للمصطلحات فى كل فروع المعرفة وإعداد المترجمين المهنيين إعدادًا كافيًا وسليمًا. هذا وقد تبوأت الترجمة العربية فى السنوات الأخيرة مركزًا تامًا ومرضيًا فى هذه المنظمات الدولية مما يلقى على كاهل المترجمين مسئولية مزدوجة.

ويسعدنا بهذه المناسبة أن نرحب بإنشاء المنظمة العربية للترجمة ومقرها بيروت، لبنان، ونتمنى لها كل النجاح والتوفيق فى النهوض بعلم الترجمة وفقهها، والعمل على رفع شأنه فى عالمنا العربى.



ملف مؤتمر القاهرة للسكان والتنمية

المؤتمر والترجمة العربية فى الأمم المتحدة*

لقد تطرق فضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوى مفتى الديار المصرية فى مقاله البليغ: قراءة فى أوراق مشروع برنامج عمل المؤتمر الدولى للسكان والتنمية (المنشور بالأهرام فى ٢٤ أغسطس ١٩٩٤) إلى نقاط هامة وحساسة، منها نقطة تتعلق بترجمة وثيقة هذا المشروع إلى اللغة العربية، وذلك من واقع ما جاء فى هذه الوثيقة من مصطلحات جديدة دعت فضيلته إلى نعت أسلوب عرضها بأنه أسلوب ركيك من حيث الصياغة العربية.

وإننا وإن كنا نتفق تمامًا فى الرأى مع فضيلته، فإننا قد نختلف معه فى أن المترجمين لهذا المشروع من لغته الأصلية وهى - اللغة الإنجليزية - إلى اللغة العربية كانت معلوماتهم ضعيفة عن اللغة العربية.

ولما كان هذا الموضوع يمس الترجمة العربية بعامة فى المنظمات الدولية، فقد أحببت أن أوضح هنا أن العبارات التى ذكرها فضيلته مثل: المستدامة (Sustainable) (والتصحاح أو الإصحاح وهو (Hygiene) والشراكة (Partnership) والإماهة الضموية والأصح الإمهاء الضموى: أى إعطاء السوائل عن طريق الفم) Oral hydra-tion، كلها عبارات دارجة ومتداولة فى وثائق الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة، وهى مصطلحات وإن كانت غريبة على القارئ العادى إلا أنها قد أصبحت الآن مقبولة ومفهومة من المتخصصين والمندوبين، وأود هنا أن أؤكد من واقع التجربة أن هذه المصطلحات لم تأت من فراغ ولكنها صيغت بعد محاولات ومناقشات واجتهادات استغرقت وقتًا طويلاً. وعلى سبيل المثال، فإن عبارة Sustainable الإنجليزية ترجمت فى البداية بعبار قابلة للاستمرار، ثم بعبارة قابلة للإدامة، واستقر الرأى أخيرًا، على إطلاق عبارة المستدامة عليها. وقد جاء فى لسان العرب لابن منظور (مادة دوم) أن أدامه واستدامة أى تأنى فيه، وقيل: طلب دوامه والمواظبة عليه، وهو المعنى المراد هنا. والأمر كذلك بالنسبة لعبارات كثيرة واجهت المترجمين فى المنظمات الدولية منذ عقدين من الزمان هما العمر الذى سلخته الترجمة العربية منذ صدور قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ٣١٩٠ فى ١٨ ديسمبر والذى شدد على الدور الهام الذى تلعبه اللغة

* جريدة الأهرام ٣١/ ٨/ ١٩٩٤.

فى المحافظة على حضارة وثقافة الإنسان ونشرهما، ولا شك أن المخلصين من العاملين فى أقسام الترجمة التى أنشئت بالهيئات والمنظمات الدولية، قد كرسوا أنفسهم لرفعة شأن لغتنا العربية وتفانوا فى النهوض بهذه العملية الصعبة والمعقدة على أحسن وجه، وذلك رغبة منهم فى الإتقان والتجويد ودرءًا للبلبلة، لاسيما وأن الحاجة كانت تدعو بإلحاح إلى مثل هذا المجهود منذ البداية حتى لا يفلت الزمام. وربما كانت مرونة المعايير فى اختيار المترجمين ومقتضيات التوزيع الجغرافى وضرورات التعجيل بتعيينهم، وراء الوضع الذى تعانى منه الترجمة العربية فى الوقت الحالى، وما يشوب أساليبها من ركاكة كما جاء على لسان فضيلة المفتى.

فلم يكن هناك أى نوع من الإعداد المنهجى السليم للمترجمين الذين كانوا يعملون من قبل فى ميادين أخرى لا تمت إلى الترجمة بأى صلة، وقد حاول هؤلاء بفضل شجاعتهم ونواياهم الطيبة أن يسبحوا مع التيار رغم عدم استعدادهم العلمى بله النفسى.

وللأسف الشديد فقد انحسرت الآن موجة الحماس التى سادت فى بداية العمل باللغة العربية كلغة رسمية فى المنظمات الدولية، بل وبدأت تحتضر فى معظم هذه المنظمات بعد أن أصبحت الترجمة العربية هى أهم بند من البنود المستهدفة إذا ما دعت الحاجة إلى تقليص الميزانيات وخفضها فى تلك المنظمات.

وربما كان هذا التعليق فرصة سانحة لمناشدة الدول العربية الغيورة على لغتنا الجميلة، العمل على توحيد كلمتها وصفوفها فى هذا المجال الحيوى للخروج بمجموعة من المصطلحات والجمل الواضحة والمستساغة لتعميمها فى جميع أنحاء عالمنا العربى، وكذلك احترام مهنة الترجمة واعتبارها من المهن العلمية ذات الأولوية العالية، مع اختيار أفضل العناصر والأطر المثقفة ثقافة عربية رفيعة للقيام بهذه المهمة النبيلة.

❖❖❖

الفصل التاسع

عن الاستشراق والمستشرقين

إدوارد سعيد وعالم الاستشراق*

دخل إدوارد سعيد عالم الاستشراق من أوسع أبوابه بعدما أصدر كتابه «الاستشراق» باللغة الإنجليزية فى سنة ١٩٧٨ ونشر فيه آراءه وأفكاره حول الاستشراق والمستشرقين. ولقد أثار هذا الكتاب ضجة ولغطًا شديدين فى أوساط المستشرقين الذين هاجموه بعنف وحاولوا الدفاع عن أنفسهم ودحض ماقاله عنهم وعن دراساتهم فى هذا المجال.

وإدوارد سعيد الذى توفى مؤخرًا بعد صراع مع المرض، ولد فى القدس عام ١٩٣٥ وأتم تعليمه الابتدائى والثانوى فيها وفى مصر. ثم ارتحل إلى أمريكا حيث نال درجتى الماجستير والدكتوراه من جامعة هارفارد. وعمل أستاذا للأدب الإنجليزى والأدب المقارن فى الجامعات الأمريكية.

وقد كتب إدوارد سعيد كتابه عن الاستشراق فى الفترة ما بين ١٩٧٥- ١٩٧٦ عندما كان زميلا فى مركز الدراسات العليا والعلوم السلوكية فى جامعة ستانفورد. كاليفورنيا، وكان فى تلك الفترة متأثرًا بعمق بأعمال ميشيل فوكو بشكل خاص. وهذا الكتاب لم يكن فى حد ذاته دراسة للاستشراق بوصفه تاريخًا وشخصيات وأحداثا. ولكن انصب مشروع إدوارد على اكتناه المعرفة والسلطة والطغيان. انطلاقًا من بنية فكرية وتصورات أساسية تشكل فى بؤرتها منظوره وتحليله فى مجال الاستشراق لا للاستشراق. فالاستشراق لدى المؤلف هو ببساطة المادة التاريخية والحيز المميز من ثقافة الغرب اللذين يتناولهما بالتحليل. لهذا جاء كتابه عن الغرب وإشكالاته الفكرية لا عن دقة تصور الغرب للشرق، وطريقة عرضه لفكر آخر مصدره الإنشاء الاستشراقى المستشكل المتصلب والذى تأسس فى إطار معطيات ومنطلقات مختلفة يمكن إيجازها فيما يلى: كيف تكتسب الأفكار السلطة، وما دور الفكر، وما هو وعى الشرق لنفسه من خلال تصور الغرب له. واحتوى كتابه على فصول عدة تناول فيها مجال الاستشراق والبنى الاستشراقية والاستشراق الكامن والظاهر ودنيوية الاستشراق. وتعرض إدوارد سعيد لهجوم عنيف من المستشرقين ومن بعض المثقفين العرب. فالواقع أنه لايمكن أن نفهم موقف إداورد سعيد إن لم تضعه ضمن إطار الصراع العربى الإسرائيلى والفلسطينى-

---

* اجريدة لأهرام ١٢/١٠/٢٠٠٣.

الإسرائيلى أيضًا، حيث تناول فى كتابه مشكلة العلاقة بين المعرفة والسلطة أو بين إرادة المعرفة وإرادة السلطة. وبما أن الاستشراق يشكل جزءًا لايتجزأ من الحضارة الغربية فإن كان الاستشراق كعلم قد واكب الاستعمار، وإذا كان الاستيطان اليهودى فى فلسطين يشكل أكبر عملية استعمار تدريجى خبيث فى التاريخ الحديث لأرض بأكملها وشعب بأسره، فإننا لانلوم إدوارد سعيد على موقفه المعادى للاستشراق كما لامه المستشرقون الأكاديميون على ضعفه المنهجى ونقص معلوماته وتطرفه الأيديولوجى وإفراطه فى النزعة الذاتية. يقول كلود كاهن، المستشرق الفرنسى عن كتاب إدوارد سعيد «لقد أحدث هذا الكتاب بعض الضجة، وهو يتضمن على هيئة النبرة الجدالية والمماحكات، بعض الأفكار المهمة عن العلاقات بين الاستشراق والاستعمار. ولكن نظرًا لأن المؤلف غير مطلع بشكل دقيق على إنتاجات كل بلد أوروبى فى مجال الاستشراق، ونظرًا لأن اطلاعه متفاوت القيمة على هذا الإنتاج، ونظرًا لأنه لايميز بالشكل الكافى بين الأدبيات الاستشراقية المبتذلة أو الصحفية، وبين بحوث العلماء الحقيقيين، فإنه يرتكب أخطاء فاحشة ويقع فى ظلم كبير».

أما ماكسيم رودنسون، المستشرق الفرنسى المعروف فهو قد نصح بقراءة كتاب إدوارد سعيد وقال «إن كتاب هذا الباحث الفلسطينى الذى أصبح أستاذًا للأدب الإنجليزى والمقارن فى جامعة كولومبيا بنيويورك، والذى يتمتع بثقافة أدبية كبيرة فى الإنجليزية والفرنسية، قد لاقى نجاحًا كبيرًا فى العالم الإنجلوساكسونى. وأثار فى الأوساط المهنية للمستشرقين شيئًا يشبه الصدمة النفسية. وقد رد المستشرقون على ذلك عن طريق انتقاد أسلوب سعيد وفرز نواقص وأخطاء هذا المؤلف الذى لاينتمى إلى القبيلة (أى قبيلة المختصين بالإسلاميات والدراسات العربية) وفى هذا الصدر كتب برنارد لويس المستشرق الإنجليزى المتعصب عن إدوارد سعيد فقال: «إن الممثل الأكبر لمناهضى الاستشراق فى الولايات المتحدة اليوم هو- إدوارد سعيد، وكتابه «الاستشراق صدر عام ١٩٧٨ واستقبل بترحاب وبسيل من المراجعات والمقالات والتصريحات العامة. والأطروحة التى يدافع عنها هى التالية: إن الاستشراق ناتج عن علاقات الحميمية الخاصة التى عاشتها بريطانيا وفرنسا مع الشرق. وشرقه هذا محصور فقط بالشرق الأوسط، والشرق الأوسط لديه محصور بجزء من العالم العربى. وهو إذ يحذف الدراسات التركية والفارسية من جهة، ثم الدراسات السامية من جهة أخرى، فإنه يعزل الدراسات العربية عن سياقها التاريخى والفيلولوجى فى آن معًا».

أما المثقف العربى صادق جلال العظم فقد انتقد إدوارد سعيد على ما أورده فى كتابه من «نقد ولوم إلى مجموع الخبراء والاختصاصيين الأمريكيين فى شؤون الشرق الأوسط والعالم العربى والإسلامى الذين يقدمون النصيحة والمشورة والتوجيه لصانعى السياسة الأمريكية لأنهم لم ينجحوا بعد فى تخليص أنفسهم من منظومة الأفكار الأيديولوجية الخيالية التى صنعها الاستشراق عبر تاريخه الطويل وأورثهم إياها».

والواقع أن القارئ لكتاب إدوارد سعيد «الاستشراق» يلاحظ أن ما درسه هو الاستشراق مأخوذًا ليس من وجهة نظر ما كتب عن الشرق، بل فقط من وجهة نظر القوى التى كانت لها مصالح استعمارية فى الشرق الأوسط مثل فرنسا وبريطانيا ثم الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية. وقد أكد إدوارد سعيد ذلك فى أحد حواراته قائلاً: «إن وجهة نظرى أنا بالذات لم تنصب على ابستمولوجيا جميع الدراسات الشرقية، بل على تلك التى ارتبطت بمشروع إمبريالى تحديدًا».

لقد كان إدوارد سعيد مثقفًا عربيًا- أمريكيا وتمكن بطريقته الخاصة وثقافته الأكاديمية من أن يحظى بالكثير من التقدير والاهتمام. وكانت حياته العملية تقوم على رفض أنظمة الآخرين مع تأثره الشديد بميشيل فوكو ودريداو وغيرهما. وقد درس إدوارد سعيد فى كلية فيكتوريا فى القاهرة وغادر مصر فى صيف عام ١٩٥١، وفى عام ١٩٥٦، وبعدما قامت الثورة فى مصر، دار أول مقال سياسى كتبه حول حرب السويس وظهر فيه «ناصريًا» فالذى شدّه إلى عبد الناصر هو أنه كان يتحدى أمريكا، ومن هنا كان تعلقه به ولكنه سرعان ما فقد أمله فيه بعد حرب عام ١٩٦٧. وفى مرحلة عمره الأخيرة أغضب السلطة الفلسطينية ووقف منها موقف الناقد والرافض لاتفاق أوسلو، وتحدث بإسهاب عن التعايش بين الشعبين الإسرائيلى والفلسطينى. والواقع أن فكره السياسى وخباياه، أمر يطول شرحه ويحتاج إلى وقفة طويلة لا محل لها فى هذه العجالة.

وخلاصة القول إن إدوارد سعيد مزيج عجيب من العناصر العربية والمسيحية والأمريكية. وقد قال عن نفسه: «إننى أكتفى بالافتراض القائل إننى ، وأى شخص آخر، هوية متناقضة وتعددية، وأنا فى الواقع لا أفكر كثيرًا بنفسى كمقدار كمى ثابت، بسبب مرض جزئيًا، ودون أن أتوقف حول سؤال من أنا».

وقد نشر إدوارد سعيد عدة كتب باللغة الإنجليزية، نذكر منها: بدايات، والاستشراق، الأدب والمجتمع، والمسألة الفلسطينية، الذى هاجم فيه طريقة معالجة منظمة التحرير الفلسطينية والدول العربية للقضية الفلسطينية. وتغطية الإسلام، وأخيرًا كتابه «خارج المكان» الذى يحتوى على سيرته الذاتية. وذلك بالإضافة إلى العديد من الدراسات والمقالات التى نشرها فى المجلات والصحف الغربية والعربية، وقد ترجم كتابه عن الاستشراق إلى العربية والفرنسية والألمانية والإسبانية والإيطالية والتركية والفارسية والماليزية واليابانية.



نهاية الاستشراق*

لقد بدأ الاستشراق أول ما بدأ على يد رجال الكنيسة المسيحية من الرهبان ورجال اللاهوت فى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وإنجلترا، فظهر منهم الراهب الفرنسى بطرس المحترم (١٠٩٢-١١٠٦) وجيرار دى كريمون (١١١٤-١١٨٧)، والدومنيكى الألمانى المولد ألبير الكبير (١١٩٣-١٢٨٠)، والاسكتلندى ميكل سكوت (١١٧٥-١٢٣٥)، والقديس الأسبانى بتروس بسكوال (١٢٢٧-١٣٥٠)، ويوحنا الأشقوبى اللاهوتى الأسبانى (١٤٥٦) الذى لعب دورًا كبيرًا فى مجمع بازل، وكان من أوائل من شاركوا فى ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية. ثم جاء بعدهم الراهب الفرنسيسكانى أنطونيو الأكويلان (١٦٥٠)، وزميله توماذو أوبتشينى (١٦٣١)، وتلميذ هذا الأخير دومنيكوس جرمانوس الساليزى (١٦٧٠)، ولكن هذا الاستشراق لم يكن يهدف إلا إلى سبر أغوار الأدبيات الشرقية والتوغل فى دراسة الإسلام واحتواء تأثيره بإيعاز من البابوات الذين كانوا يدعون إلى تحذير المسيحيين مرارًا وتكرارًا من الاتصال بالمسلمين أو الاطلاع على ديانتهم وحضارتهم. ولم يظهر الاستشراق الحقيقى إلا فى القرن السادس عشر وإن كان قد ارتبط بشكل أو آخر بالتبشير أو كانت له أسبابه الدينية أو التجارية أو السياسية الاستعمارية. ولم يتطور هذا الاستشراق إلا بتطور أوروبا ثقافيًا وحضاريًا ومحاولتها اللحاق بالعرب والتفوق عليهم. وقد اتضح ذلك جليًا فى القرن السابع عشر عندما أنشئت منابر للغة العربية فى فرنسا وإنجلترا وألمانيا وهولندا والنمسا وإيطاليا التى عرفت كذلك أول مطبعة عربية فى فلورنسا عام ١٥٣٦م. وتأثرت الدانمرك بألمانيا إلا أن الاستشراق بها كان بطيئًا فى أول أمره ثم أخذ فى التوسع بفضل توطد العلاقات بينها وبين ألمانيا، وارتحال الدانمركيين إلى ألمانيا طلبًا للآداب العربية والإسلامية فى جامعاتها. وانتقل الاستشراق إلى السويد والبرتغال وأسبانيا وبولندا وفنلندا والسويد والمجر. وقد دفعهم إلى ذلك ما لاحظوه من أن الاطلاع على الحضارة الشرقية يؤدى إلى توسيع حقل ذكائهم البشرى ويفتح أمامهم آفاقًا جديدة. فعكفوا على طبع المخطوطات الشرقية حتى يتسنى للعقل الأوروبى أن ينفذ فعلا إلى أعماق الشرق.. وأن يفهم هذا الشرق الساحر

* جريدة الأهرام ٢٠٠١/٣/٧.

والغامض.. وهكذا اندرج تطور العلوم الشرقية فى الغرب ضمن تطور مسيرة التقدم العلمى فى كل المجالات. فالنهضة الأوروبية التى قامت فى القرن السادس عشر انعكست على كل ميادين المعرفة. ولذا وجدنا أن عبارة «مستشرق» قد ظهرت لأول مرة فى اللغة الإنجليزية حوالى عام ١٧٧٩م. ودخلت كلمة «استشراق» قاموس الأكاديمية الفرنسية لأول مرة كذلك عام ١٨٣٨م. وتمثل الاستشراق فى التركيز على المعرفة المتعمقة للغات العربية والفارسية والتركية وغيرها من اللغات الشرقية. وثمة باعثان أساسيان دفعا أوروبا الغربية (دون أمريكا التى لم تنل فيها الدراسات الاستشراقية حظا موفورًا إلا فى هذا القرن الأخير) إلى تعلم اللغة العربية وفهم الإسلام، وهما أولا: الرغبة فى الفهم وحب الفضول والتشوق إلى هذه الحضارة المتفوقة أى حضارة العالم الإسلامى. ثانيًا: تنافس الدينين الإسلامى والمسيحى وما كان يشكله الأول من خطورة على الثانى، ومن ثم كان ولابد من حماية المسيحيين من التأثير الإسلامى، بل ومحاولة جعل المسلمين يعتنقون المسيحية. وكان كل ذلك يستلزم داسة اللغة العربية ثم القرآن الكريم وكذلك بقية النصوص الدينية الإسلامية من أجل دحضها فى نهاية المطاف إن أمكن ذلك. وعلى ذلك، وفى الفترة الواقعة ما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر، تركز الاهتمام بشكل أساسى على الدراسات الخاصة بالكتابات المقدسة، وانحصرت الدراسات التاريخية فى دراسة أزمنة العصور القديمة والوسطى. غير أن الأمور تغيرت وتبدلت بعد أن تحولت أوروبا إلى قوة عسكرية وسياسية كبرى، وظهور حركة الإصلاح الدينى فيها. وقد حقق القرن التاسع عشر تقدمًا كبيرًا فى مجال الدراسات العربية الإسلامية وظهر فى أوروبا علماء أفذاذ تصدوا لنشر هذه الدراسات، وأنشأوا فى سبيل ذلك المؤسسات المتخصصة من مدارس ومعاهد وكليات جامعية. وكان هذا الاهتمام وهذا التقدم حافزًا للكثيرين على شراء المخطوطات العربية بكميات ضخمة وبأسعار زهيدة وبيعها أو إهدائها إلى المكتبات العامة والخاصة فى أوروبا، وأصدروا المجلات والدوريات العلمية الشرقية. وكلوا جمعيات خاصة بهم لجمع شملهم وتنظيم جهودهم وتبادل الآراء والنظم والمنهاج والوسائل. وبدأت أوروبا تنظر إلى الدراسات العربية والإسلامية فى سياق الدراسات الإنسانية الأخرى بوصفها فرعًا من فروع هذه الدراسات ورافدًا من روافد الحضارة الإنسانية جمعاء. ومنذ ذلك التاريخ انتهى فعلا

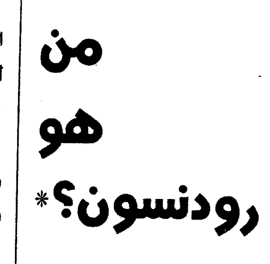
عصر الاستشراق بمعناه الضيق، واختفى علماؤه ومنظروه، وتضاءلت حركة الاستشراق بوفاة عدد كبير من عتاولة المستشرقين، ونبذهم لعبارة «الاستشراق» وصفة «المستشرق» وما فتئت هذه الدراسات العربية الإسلامية تجتذب أعدادًا كبيرة من الدارسين والباحثين فى مختلف أنحاء العالم، الذين عكفوا على الدراسات العلمية الحديثة التى تتناول العالم العربى والإسلامى فى مختلف مجالاته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية مع تطبيق المناهج والطرق البحثية المتبعة فى العلوم الإنسانية بعامة، ولكن يبدو أن هذه الدراسات قد بدأت تتعثر لدرجة أن اتجه معظم الدارسين نحو الدراسات الأفريقية والآسيوية بدلاً من الدراسات العربية والإسلامية وقد حدث هذا فى هولندا على سبيل المثال نتيجة سياسة التقشف وإلغاء كراسى الدراسات الإسلامية والعربية، وهو ما عانت منه جامعة ليدن العريقة فى الآونة الأخيرة، وذلك بعد تطبيق التعليمات الوزارية التى صدرت بشأن تخفيض النفقات.

وبانتهاء عصر الاستشراق، دخل عدد من الدارسين الناطقين بالعربية من المشرق والمغرب مجال الدراسات العربية والإسلامية، ومن ثم أصبح حقل هذه الدراسات لايقتصر على الأوروبيين والأمريكيين. ولكن أخشى ما نخشاه أن ينقلب هؤلاء الدارسين العرب، وهم من خريجى مدرسة الاستشراق القديمة، إلى مستشرقين جدد- إذا ما صح التعبير- ليس همهم سوى التقليد وصبغ الدراسات العربية والإسلامية بالصبغة الاستشراقية وتفريغها من محتواها العلمى والروحى، بدعوى إضفاء المنهجية الحديثة عليها، متناسين- عن عمد أو غير عمد- أن الاستشراق قد ولى إلى غير رجعة، وبمقولة الدخول فى عصر الحوارات ومنع صدام الحضارات، متجاهلين بذلك ما يشيع ويتردد بقوة فى الأوساط الفكرية الغربية من نظريات وأقاويل ومزاعم تجعل من الإسلام العدو الجديد للغرب بعد سقوط الشيوعية!.

والأمل معقود على العلماء فى عالمنا العربى من أجل التصدى لهذه الافتراءات بالبحوث الجدية المتعمقة التى تظهر عبقرية حضارتنا الذاتية، وتدافع عن كيانها ومقوماتها، لتقف سدًا مانعًا أمام هذه الترهات والتأويلات الخاطئة، وذلك كله بلغة العصر، أى بلغة العلم والعقل، وهى اللغة التى جاء بها الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا، والتى بشرت بالسلام والمحبة ومخاطبة الآخر بالتى هى أحسن. وهذا فى رأينا يتطلب

أن يكون الغرب على استعداد لطرح أفكاره المسبقة جانبا والتعامل معنا بنفس اللغة.
وننقل هنا بعضًا مما كتبه المستشرق الألمانى المعاصر جيرونوت روتر فى معرض حديثه عن الإسلام والغرب: «إن صورة الإسلام كعدو (للغرب) هى صورة مستترة وكامنة عند الغربيين منذ ألف سنة.. وأن الغرب سيحقق الكثير فى علاقته بالحضارة الأكثر قربًا له (أى الحضارة العربية الإسلامية) ورغم أنها مازالت غريبة عليه، إذا ما توصل إلى إجراء حوار معها يخلو من الكراهية والعنف».

❖❖❖



بدأ الاستشراق فى أوروبا على يد رجال الكنيسة من الرهبان ورجال اللاهوت بهدف سبر أغوار الإسلام واحتواء تأثيره بإيعاز من البابوات الذين كانوا يدعون إلى تحذير المسيحيين من الاتصال بالمسلمين أو الاطلاع على ديانتهم وحضارتهم، ولم يعدم الاستشراق على مر القرون وجود جماعة من المتعصبين والطاعنين فى الإسلام وفى رسوله الكريم، ممن أعماهم حقدهم عن الرؤية الواضحة، فنشروا الآراء الباطلة وأذاعوا تأويلاتهم الخاطئة. ونذكر منهم هنا على سبيل المثال لا الحصر: اريينوس فان ارين الهولندى (١٦٢٤) وهنرى لامنس الراهب اليسوعى البلجيكى (١٩٣٧) الذى يعد من أشد المتعصبين ضد الإسلام والمتحاملين عليه وعلى السيرة النبوية الشريفة دون أدنى سند علمى أو برهان عقلى. وقد فاق فى ذلك ما كتبه الإنجليزى مرجليوث (١٩٤٠) عن «محمد ونشأة الإسلام»، دون نزاهة أو أمانة. والغريب فى الأمر أن بعض المستشرقين المنصفين من أمثال إدريانوس ريلند الهولندى (١٧١٨) وجورج سيل الإنجليزى (١٧٣٦)، وهم الذين تصدوا لهؤلاء المتعصبين وحاولوا تصحيح مفترياتهم التى اخترصوها عن قصد وضغينة.

وقد أردت بهذه المقدمة أن أبين أن ماجاء فى كتاب «محمد» لمكسيم رودنسون ماهو إلا قطرة فى المحيط الاستشراقى! فهذا المهاجر اليهودى الروسى، الذى ولد فى باريس عام ١٩١٥، بدأ اهتمامه بالعالم العربى والإسلامى منذ صغره، وتحديدًا فى الثلاثينات من هذا القرن، وقد شغف بتاريخ الأديان وبما كتب عن التاريخ العربى ولاسيما تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، وبدايات الإسلام وغزواته. وكان يعرف سلالة الرسول ﷺ عن ظهر قلب؛ فدفعه ذلك إلى الاتجاه نحو مدرسة اللغات الشرقية فى بارس (١٩٣٢- ١٩٣٦) حيث تتلمذ على يد واحد من كبار المستشرقين الفرنسيين جودفروادى مومبين (١٩٥٧)، الذى كتب السيرة النبوية بموضوعية وامتياز (وهو بالمناسبة كان أستاذ الدكاترة زكى مبارك!). وفى هذه المدرسة تعلم رودنسون اللغتين التركية والأمهرية إلى جانب تعمقه فى اللغة العربية. والتحق فى الوقت نفسه بالمدرسة العملية للدراسات العليا ومدرسة اللوفر. وطوال الحرب العالمية الثانية، أقام فى الشرق حيث عمل كمجند فى بيروت، وانتقل منها إلى حمص ثم دمشق، وأخيرًا إلى صيدا (لبنان) وعمل بها

* أخبار الأدب ١٩٩٨/٦/٢٨.

مدرسًا فى ثانوية صيدا الإسلامية (كلية المقاصد الإسلامية) حتى عام ١٩٤١، واتصل هناك بالأستاذ ماسينيون وهنرى لاوست الذى كان يشغل فى ذلك الوقت منصب مدير المعهد الفرنسى فى دمشق. ثم عاد إلى بيروت للعمل مع بعثة الآثار الفرنسية الدائمة حتى عام ١٩٤٦؛ وفى عام ١٩٤٧ عمل باحثًا بالمعهد الفرنسى بدمشق. ولما عاد إلى فرنسا فى عام ١٩٤٧ أصبح أمينًا بالمكتبة الوطنية بباريس، وأصبح عضوًا بالحزب الشيوعى (١٩٤٧- ١٩٥٨). وبعد أن حصل على ليسانس الآداب فى تلك السنة، تولى التدريس بالمدرسة العملية للدراسات العليا حتى تقاعده فى عام ١٩٨٥.

ورودنسون فى الواقع شخصية غريبة الأطوار من تلك الشخصيات التى لا تهدأ أو تستقر على حال. فهو بطبيعة تكوينه وتفكيره يغالى فى الأيديولوجيات ويطبقها على كل دراساته وأبحاثه، وهو كما يقول قد انبهر بالإسماعيلية كنموذج للأممية الحديثة، وتأثر - بشكل كبير- بالبيئة الفرنسية التى نشأ فيها، وبما حدث فى أوروبا من تحول الكنيسة الكاثوليكية عن موقفها الخاص بتحريم تناول المقدسات، وكان أمله أن يحدث الأمر نفسه فى العالم الإسلامى!

وقد شرح وجهة نظره هذه فى مؤلفاته، بل وألقى محاضرة فى القاهرة حول الماركسية وتاريخ الإسلام، صاغ فيها لأول مرة مفهوم «المسلم الاجتماعى» و«العلمنة فى الإسلام» فهو أول من رأى أن هذه العلمنة قد ظهرت فى العالم الإسلامى بفضل الرسول محمد ﷺ الذى عرف كيف يجند الناس من أجل توحيد الأمة العربية وإنشاء نظام اجتماعى مثالى يتجنب مزالق الاشتراكية والشيوعية. وهو يرى أن الدين الإسلامى فى وعى المسلمين لايمكن أن يقتصر على ذكر الجنة والنار، بل الأهم هو التعبئة حول عظمة أمة الإسلام ونظام الإسلام الاجتماعى. وقد لفت هذا التطور نظره، كما لفت نظره كذلك خوف الغربيين من الكلام عن الإسلام الذى يبدو لهم كعالم مجهول ومعقد، رغم آثاره الهامة على العالم وعلى الشعوب.

وقد أصدر رودنسون عددًا من المؤلفات نذكر منها: «الجزيرة العربية قبل الإسلام» (١٩٥٧)، «الإسلام والرأسمالية» (١٩٦٦)؛ «إسرائيل والرفض العربى»؛ «الماركسية والعالم الإسلامى (١٩٧٢)؛ «الشروط الدينية الإسلامية للحياة الاقتصادية» (ليدن ١٩٧٧)؛ «الإسلام والدراسات العبرية والإسلامية فى أوربا» (باريس ١٩٨٠)؛ «الشعب اليهودى أم المشكلة اليهودية» (باريس ١٩٨١)؛ «الإسلام: السياسة والمعتقدات» (باريس ١٩٩٣). وكانت رسالته للدكتوراه فى موضوع مخالف تمامًا هو موضوع الطبخ، وهى بعنوان «أبحاث حول الوثائق العبرية المتعلقة بالطبخ» (١٩٥٠).

ولاشك أن هذه المؤلفات تعكس اتجاهات رودنسون فى البحث والنقد والتأويل، وهى اتجاهات تقبل بالمقدمات المنطقية وتتعامل مع الأيديولوجيات المشحونة بالقلق والتوتر والمغرقة فى الإبهام والمثالية. ولكن هذا ليس سببًا وجيهًا يدعونا إلى مقاطعته أو منع تداول كتبه المنشورة والمتداولة على نطاق واسع فى أنحاء العالم، بل العكس صحيح. فقد قرأنا فى شبابنا هذه الكتابات، فزادتنا إيمانًا على إيمان، وأتاحت لنا أن نضع أيدينا على مواضع الخلل فى التفكير وعلى حالات سوء الفهم والتأويلات الخاطئة المقصودة وغير المقصودة. وخلق ذلك لدينا حاسة النقد الموضوعى، وحررنا من الوساطة الفكرية وقربنا من طرق التفكير التجديدية دون تفريط فى أى من معتقداتنا الراسخة أو زحزحتها قيد أنملة.

❖❖❖

مدارس الاستشراق فى الجامعة المصرية القديمة*

جاء افتتاح الجامعة الأهلية المصرية عام ١٩٠٨ بفضل الجهود الذاتية لصفوة من أبنائها، وذلك بعد عام واحد على انتهاء عصر كرومر، وبعد عامين اثين من حادثة دنشواى. ولكن هذه الجامعة ظلت محدودة حتى تاريخ اعتلاء الملك فؤاد عرش مصر فى عام ١٩١٧ وقيام ثورة سنة ١٩١٩ وإعلان الاستقلال الذاتى لمصر عن التاج البريطانى فى عام ١٩٢٢. واستمر هذا الوضع إلى أن تولت الحكومة أمور هذه الجامعة الأهلية فى عام ١٩٢٥، وضمت إليها المدارس العليا للحقوق والطب، وأنشأت بها كلية للعلوم، وبذا أصبح لهذه المؤسسة العلمية المقومات التى جعلت منها جامعة بمعنى الكلمة. وهنا ظهرت الصعوبات جلية أمام استكمال هيئة التدريس. فاستعانت الجامعة ببعض الدارسين العصاميين من أمثال جورجى زيدان وأحمد باشا زكى والشيخ مصطفى الغاياتى. ولكن ظل العجز فى هذه الهيئة مشكلة قائمة حتى لجأت الجامعة منذ البداية إلى المستشرقين الأوروبيين الذين قاموا بدور هام فى توطيد أركان هذه الجامعة حتى أوائل الثلاثينيات. وكان الملك فؤاد أول المشجعين والمتحمسين لهذه الفكرة وأول من ساعد على تنفيذها.

المدرسة الإيطالية

كانت إيطاليا، التى تعلّم فيها الملك فؤاد، هى أول من قدمت أكبر مجموعة من المستشرقين الذين قاموا بتدريس العلوم العربية والإسلامية بلغة عربية فصيحة! وكانت إيطاليا هى التى تدفع رواتب الأساتذة المعارين فى الجامعة المصرية، وقامت بإهداء مكتبتها مجموعة ضخمة من الكتب، وأوفدت الدكتور فينشينزو فاغو للإشراف على تنظيمها. وحضر إلى مصر عدد من المستشرقين من أمثال أغناطيوس جويدى وابنه ميكل أنجلو، وكارلو نللينو ودافيد سانتيلانا.

فقد دعى اغناطيوس جويدى فى عامى ١٩٠٨/١٩٠٩ ليكون أستاذًا للأدب العربى وفقه اللغات العربية الجنوبية. وكان من أبرز تلاميذه الدكتور طه حسين الذى أشار إلى محاضراته واقتبس منها فى الفصول الأولى من كتابه «فى الأدب الجاهلى» (القاهرة ١٩٢٧) أما ابنه ميكل أنجلو فقد عين بها عام ١٩٢٢ كأستاذ للغة العربية وآدابها، وألقى

كارلو نللينو محاضراته عن علم الفلك عند العرب طوال ١٩٠٩-١٩١٠، ثم درّس تاريخ الأدب العربى فى ١٩١١/١٩١٢ وقد تأثر طلبته من المصريين بمنهجه الجديد فى دراسة الأدب العربى وفى ذلك يقول الدكتور طه حسين: «كان فى مصر مذهبان فى درس الأدب، أحدهمامذهب القدماء، والآخر مذهب الأوربيين استحدثته الجامعة المصرية بفضل الأستاذ نللينو ومن زامله وخلفه من المستشرقين أمثال جويدى وفييت، وقد عهدت إليهم بتدريس تاريخ الأدب، فدرّسوه بمناهجهم الحديثة، فعلّموا الطلاب كيف يبحثون..» وقد عُين نللينو عضوا بالمجمع اللغوى عام ١٩٣٣، وكان الأستاذ دافيد سانتيلانا يقوم فى ذلك الوقت بتدريس الفلسفة الإسلامية طوال العام الجامعى ١٩١٠-١٩١١. وقد أشار الشيخ مصطفى عبد الرازق إليهما فى كتابه «التمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية» (القاهرة، ١٩٤٤).

المدرسة الفرنسية:

على الرغم من الحضور الواسع لفرنسا فى مصر منذ الحملة الفرنسية، فإن الاحتلال البريطانى فى عام ١٨٨٢ قد حدّ من هذا الحضور بل وحل محله تدريجيًا. ولكن فرنسا عادت مرة أخرى إلى احتلال مكانة هامة فى مصر بعد إعلان الحكم الذاتى فى عام ١٩٢٢، وشغل علماؤها عدة مواقع فى الجامعة المصرية القديمة ومصلحة الآثار التى كان يرأسها جاستون ماسبيرو، وهو الفرنسى الوحيد الذى كان عضوا فى مجلس الجامعة. وكان الحضور الفرنسى عند افتتاح الجامعة محدودًا، ولم يحضر سوى الأستاذ لوى ماسنيون، وجاستون فييت للتدريس عام ١٩١٠، ولكن لعام جامعى واحد.

والجدير بالذكر أن جاستون فييت عاد إلى القاهرة لا للتدريس بالجامعة بل لرئاسة المتحف الإسلامى عام ١٩٢٦، وذلك بإلحاح شخصى من الملك فؤاد. (وقد استمر فييت فى هذا المنصب حتى عام ١٩٥١). أما ماسنيون فقد عاد لإلقاء محاضرات على طلبة الجامعة لمدة قصيرة فى الثلاثينيات، وفى عام ١٩٣٣ عيّن عضوا بالمجمع اللغوى.

وكذلك حضر المستشرق الفرنسى بول كازانوفا فى ١٩٢٥- ١٩٢٦ لتدريس أصول اللغة العربية، ثم توفى فى أواخر هذه السنة وبعد ذلك لم يكن لفرنسا أى نوع من الوجود الدائم فى الجامعة المصرية القديمة.

المدرسة الألمانية:

كان النظام الجامعي الألماني والاستشراق الألماني على وجه الخصوص، قد حازا سمعة وصيتا كبيرين في جميع أنحاء العالم، ورغم ذلك فلم يكن بالجامعة المصرية القديمة سوى مستشرق ألماني واحد هو ليتمان (١٩١٠/١٩١٢)، الذى عاد مرة أخرى مع المستشرق برجستراسر في عام ١٩٢٩. وتولى آرثر شاده التدريس في الجامعة عام ١٩٣٠ بدلا من المستشرق الإيطالي جويدى الابن الذى عاد إلى بلاده، ثم جاء بعده جوزيف شاخت عام ١٩٣٤ وحتى ١٩٣٩، وقام بول كراوس في الفترة من ١٩٣٦ إلى ١٩٤٤ بتدريس اللغات الشرقية.

وقد تمكن المستشرقون الألمان من وضع يدهم على دار الكتب المصرية لفترة طويلة. فقد تعاقب على رئاستها خمسة منهم منذ إنشائها في عام ١٧٨٠ وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤، وهم على التوالي: ستيرن، سبيتا، فوللرز، موريتز، شاده الذى حل محله الأستاذ أحمد لطفي السيد، أول رئيس مصري لدار الكتب، والذى أصبح رئيسًا للجامعة المصرية في عام ١٩٢٥.

المدرسة الإنجليزية:

باستثناء البروفسور كريزويل، أستاذ العمارة الإسلامية، فإن التمثيل الاستشراقي الإنجليزي في الجامعة كان ضعيفًا جدا. فلم يكن هناك أى مستشرق إنجليزي بها حتى عام ١٩٢٩. ثم جاء الأستاذ توماس أرنولد كأستاذ زائر في ١٩٢٩-١٩٣٠، وانضم الأستاذ أربرى إلى الجامعة في الفترة من ١٩٣٢-١٩٣٤، رئيسًا لقسم الدراسات القديمة.

- دور هذه المدارس في الجامعة المصرية القديمة

لم يكن الطلبة المصريون الذين التحقوا بالجامعة المصرية قبل الحرب العالمية الأولى يعرفون أى شيء عن الاستشراق أو المستشرقين. ولكنهم حكموا عليهم بما سمعوه منهم أثناء المحاضرات وبما جاءوا به من طرق وأدوات للبحث لم يسبق لهم أن عرفوها من قبل. وقد انبهر عدد منهم بما تلقوه من علوم ومنهجيات، وكانت هذه المحاضرات بمثابة نقطة تحول بارزة في حياتهم العلمية، وكان من بينهم عبد الرحمن عزام وطه حسين وأحمد أمين الذين حلوا بدورهم محل المستشرقين في التدريس بالجامعة إلى جانب

غيرهم من المصريين الذين كانت الجامعة قد سارعت بابتعاثهم إلى الخارج من أمثال الدكتور أحمد ضيف والدكتور منصور فهمى.

وقد عرف هؤلاء الطلبة فضل المستشرقين ولمسوا حرصهم على التدقيق وجلدهم على البحث والتفكير، لاسيما وأن تعددهم واختلاف مشاربهم كان وراء تنافسهم فهم على الإجادة حيث كانوا يتبارون فى إظهار معارفهم وامتيازهم وكان البعض مثل ماسنيون يبدأ محاضراته بعبارة «بسم الله».

وقد اختلفت الآراء حول دور هؤلاء المستشرقين فى الجامعة المصرية القديمة، فالبعض يسخط ويرى فى ذلك ضررًا وبلاء والبعض الآخر يحبذ ويرى فى ذلك خيرًا وتنويرًا.. ولكنها فى كل الأحوال صفحة هامة وناصعة فى تاريخ النهضة العلمية فى مصر فى بداية هذا القرن.



كفانا استشراقاً..!*

لقد انتهى فعلا عصر الاستشراق بمعناه الضيق واختفى علماؤه من الساحة بعد أن انقسمت الآراء حولهم بين محبذ لهم أو منكر. وتضاءلت حركة الاستشراق وخفت وطأته بوفاة عدد كبير من عتاولة المستشرقين، واتجاه العديد من الأحياء منهم إلى الطرق المنهجية فى البحث والاستقلال فى التفكير وتوخى الحقيقة والدراسة الجادة للعلوم الإسلامية ومحاولتهم فى نهاية المطاف نبذ «الاستشراق» وصفة «المستشرق» والنزوع إلى عبارات أخرى تحل محلهما. كما أن معظم المستشرقين الغربيين قد اتجه نحو الدراسات الأفريقية والآسيوية بدلا من الدراسات العربية والإسلامية.

ولايمكن إنكار جهود هؤلاء المستشرقين فى مجال تلك الدراسات العربية والإسلامية أو إهمالها، فقد أصبحت تشكل جانبا من مكتبتنا الثقافية فى عالمنا العربى.

ولكن ما يخشى منه فى الوقت الحالى هم العرب المستشرقون- إذا صح التعبير- الذين أرادوا أن يفرضوا أنفسهم على الدراسات العربية والإسلامية فى أوروبا وأمريكا، بزعم أنهم تتلمذوا على المستشرقين ونهلوا من مناهلهم، وأن من حقهم أن يورثوهم، فانتزعوا لأنفسهم مراكز لها تأثيرها وقوتها. ولوحظ للأسف الشديد أنهم يعملون بلا كلال ولا هوادة على تقليد الاستشراق، وصبغ الدراسات العربية والإسلامية بالصبغة الاستشراقية وتفريغها من محتواها العلمى والروحى بنشر سخافاتهم وتأويلاتهم الخاطئة بدعوى إضفاء المنهجية الحديثة عليها.

وربما كان هذا هو ماحدا بأساتذة عرب كبار من أمثال الدكتور عبد الرحمن بدوى والمرحوم الدكتور لويس عوض إلى القول والتصريح بأن الدراسات العربية والإسلامية فى الخارج (ولاسيما فى فرنسا!) قد أصبحت عاقرا، وأنها قد أفرغت من مضمونها بوفاة كبار المستشرقين مثل لوى ماسينيون أو بلاشير أو لاسيت أو كوربان، كما نادوا بوقف إرسال البعثات للدراسة فى هذا البلد.

وعلم الله أننى ما وددت أن أخوض فى موضوع الاستشراق والمستشرقين، فهو من الموضوعات غير المحببة إلى نفسى بعد أن عايشت تجربته عن كثب واكتويت بنارها.

---

* جريدة الأهرام ٧/١١/١٩٩٣.

ولكننى هنا أرفع راية الخطر المحدق بدراساتنا العربية والإسلامية فى الخارج من هذا الغزو الجديد وهذا الزحف الآتى من بين ظهرانينا، والذى يحاول فسخ تراثنا العربى والنيل منه وتحريفه بما يتمشى مع فكرهم الاستشراقى الذى يحاولون جهدهم إحياء طرقه ومناهجه، متجاهلين أن الإسلام من الثراء والحيوية بما يغنى عن ترهاتهم، وأن لغتنا العربية لها من عبقريتها الذاتية مايحفظ لها كيانها ومقوماتها فى كل زمان ومكان، فضلا عن أنهم تناسوا- عن عمد أو غير عمد- أن الاستشراق قد انتهى إلى غير رجعة!

وإننى أهيب بالعلماء فى العالم العربى الذى يموج فى عصرنا هذا بآلاف المفكرين والباحثين، أن يتصدوا لهذه الموجة بالبحوث الجدية والرد على هؤلاء المستشرقين الجدد.

❖❖❖

الاستشراق الجديد ومدارسه*

بلغ الاستشراق أوج تألقه وذروة انتشاره خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ثم بدأ فى الانحسار والانكسار فى أعقاب الحرب العالمية الثانية بعد أن فقد علة وجوده بانقشاع غمة الاستعمار وتلاشى العقلية الاستعمارية التى غذت نشاطه وحفزت خططه ومراميه، وبعد أن انصب البحث العلمى على الدراسات الإنسانية المنزهة عن الأغراض. وأضحت الدراسات العربية والإسلامية فرعًا من فروع هذه الدراسات. وبذلك انفض الكثير من علماء الغرب عن الدراسات الاستشراقية بمعناها الدقيق والتقليدى، وعكفوا على الدراسات العلمية الحديثة المتعلقة بالشرق فى مجال البحوث الاجتماعية والثقافية بل والاقتصادية.

ولكن يبدو أن هذه الدراسات بدأت تتعثر فى الآونة الأخيرة نتيجة السياسات والمفاهيم الغربية الحديثة، وظهور «الاستغراب» فى الشرق، واعتماد هذا الشرق على التراث الغربى الحديث فى ثقافتنا العلمية بل والوطنية، وهو الأمر الذى أصبح يهدد كياننا الحضارى واستقلالنا الثقافى.

وسنتناول هنا، وبصورة موجزة، بعض المدارس التى تعنى حاليًا بالدراسات العربية والإسلامية فى الغرب.

المدرسة الإنجليزية:

نبدأ بهذه المدرسة لأنها كانت- ومازالت- تعتبر مع المدرسة الفرنسية والألمانية، من أبرز مراكز الاستشراق سابقًا فى العالم. فهذه المدرسة هى أول من ابتدع عبارة «استشراق» و«مستشرق» حوالى عام ١٧٧٩م. كما أن الصلات بين الاستعمار الإنجليزى والشرق تعود إلى قرون بعيدة، مما أدى إلى اهتمام الإنجليز بالدراسات العربية والإسلامية لدوافع سياسية ودينية وتجارية، ومازالت الجامعات والمعاهد الإنجليزية تعنى بهذه الدراسات، وتظل تشكل مركز جذب للعديد من الطلاب من جميع أنحاء العالم. وتعتبر لندن وأكسفورد وكمبريدج، من الجامعات العريقة فى هذا الميدان. كما يحظى معهد الدراسات الشرقية والإفريقية التابع لجامعة لندن بشهرة واسعة فى مجال هذه الدراسات، وهو يتولى إصدار مجلة من أبرز المجلات التى تتناول القضايا الشرقية. وانضمت إلى هذه الجامعات مؤخرًا، جامعة درهام التى أنشأت وحدة وثائق الشرق الأوسط فى عام ١٩٧٠ لمتابعة التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى

هذه المنطقة. وتأسست فى انجلترا لجنة تسمى مكتبات الشرق الأوسط، وهى تضم مجموعة من أساتذة الجامعات والمتخصصين فى علم المكتبات، وهى تجتمع دوريًا لدراسة المشكلات الفنية التى تواجه الدراسات الشرقية والإسلامية فى بريطانيا.

المدرسة الألمانية:

مازالت المدرسة الألمانية تحتل مكانًا متميزًا فى مجال الدراسات العربية والإسلامية. وهى تعد من أعرق المدارس بما تحتويه من عناصر الجدة والخصوصية. ومن أهم الجامعات المشهورة بهذه الدراسات، نذكر على سبيل المثال جامعة توبنجن التى تضم معهدًا لهذه الدراسة يتولى الآن وضع أطلس الشرق الأوسط الذى بدأ العمل فيه منذ عام ١٩٦٩. وهناك أيضًا جامعات برلين وميونخ وفرايبورج وهيدلبرج.

ويمكن تقسيم الدراسات العربية الإسلامية المعاصرة لهذه المدرسة، على النحو التالى:

- الدراسات العربية التقليدية بكل ما تمثله من دراسة التراث والحضارة وفق المفاهيم القديمة، وينصب أكثرها على دراسة التصوف.
- الدراسات التحديثية، وهى الدراسات التى ترى فى التفسير التاريخى للفكر الإسلامى منطلقًا لإحداث رؤية جديدة للعالم الإسلامى المعاصر.
- الدراسات العربية السياسية التى تميل إلى البحوث السياسية الحديثة، وإلى تسييس علم الاجتماع والأدب.

ومازالت مجلة "Der Islam" تصدر حتى الآن حافلة بالبحوث والدراسات المتعمقة حول الشرق والإسلام، وهى قد صدرت لأول مرة عام ١٩١٠، ثم هناك أيضًا مجلة «عالم الإسلام "Die Welt des Islam" المتخصصة فى دراسات وأبحاث العالم الإسلامى المعاصر، وصدر العدد الأول منها فى عام ١٩١٣.

المدرسة الهولندية:

وهى مدرسة لها باع طويل فى حقل الدراسات العربية والإسلامية. وقد اشتهرت منذ عدة قرون بأساتذتها وعلمائها الذين أثروا المكتبة العربية بتحقيقاتهم لكتب التراث وبنشرهم لنفائس المؤلفات التاريخية والدينية والأدبية. واستحوذت جامعة ليدن- التى تأسست فى القرن السادس عشر الميلادى- على صيت واسع فى هذا المجال، ومازالت فى صدارة المؤسسات الجامعية الرائدة. وبالإضافة إلى جامعة ليدن، هناك جامعة أمستردام وأوترخت وكلها جامعات تابعة للدولة، ولذلك بدأت تتعثر فيها الدراسات العربية والإسلامية الآن نتيجة سياسة التقشف التى تتبعها الدولة، وما قامت به من إلغاء بعض كراسى هذه الدراسات، وتقليص البرامج من أجل تخفيض النفقات.

ومن المعاهد المشهورة فى هولندا «المعهد الشرقى» التابع لجامعة أوترخت، وهو يضم مكتبة متخصصة وقاعات للمحاضرات. وهناك أيضًا مركز الدراسات الأفريقية فى ليدن، وقد توقفت فيه مؤخرًا البرامج الخاصة بالدراسات العربية والإسلامية المتعلقة بإفريقيا، وذلك عقب الخلاف الذى نشب فيه بشأن سياساته، كما تقلصت فى الآونة الأخيرة أنشطة مؤسسة «دى خويه» فى ليدن نظرًا للصعوبات المالية التى تواجهها.

المدرسة الأسبانية:

على النقيض من تقليص أنشطة المدرسة الهولندية كما أسلفنا، تمر الدراسات العربية والإسلامية فى أسبانيا بفترة ازدهار منذ عودة النظام الملكى فى أسبانيا. ولاعجب فى ذلك، فأسبانيا ليست بالغريبة عن الحضارة الإسلامية التى امتدت فى ربوعها لقرون طويلة (٧١١م-/١٤٩٢م). وقد ازداد الاهتمام اليوم بهذه الدراسات واتسع نطاقها بحيث شملت دراسات فى علم الاجتماع والاقتصاد والزراعة والسياسة. وتضم جامعة مدريد وشقيقتها جامعة مدريد الحرة (أوتونوما) نخبة من الأساتذة العاملين فى ميدان الدراسات العربية والإسلامية، قامت على أيديهم هذه النهضة المباركة، وهناك عدد لابأس به من الجامعات والمعاهد الأسبانية التى تختص بتدريس اللغة العربية والحضارة الإسلامية والأداب والتاريخ، ونذكر منها هنا جامعة غرناطة وبرشلونة وقرطبة وأشبيلية وسرقسطة. وثمة معاهد تهتم بالدراسات العربية والإسلامية منها المعهد الأسبانى العربى للثقافة فى مدريد، وهو يتبع الإدارة العامة للعلاقات الثقافية فى وزارة الشئون الخارجية الأسبانية. أما معهد ميجيل آسين بلاسيوس للدراسات العربية فى مدريد، والذى أنشئ عام ١٩٤٤ على أنقاض مدرسة الدراسات العربية التى كانت قد تأسست عام ١٩٣٢، فهو يزاول نشاطه ويصدر مجلته الدورية، ويعنى معهد الدراسات العربية فى قرطبة بالدراسات الحديثة ويعقد المؤتمرات حولها، وكذلك بالتنقيب عن الآثار الإسلامية فى أسبانيا والمحافظة عليها.

المدرسة البولندية:

تطورت الدراسات العربية والإسلامية فى بولندا بعد الحرب العالمية الثانية فى مراكز «لفوف» و«كراكوف» و«وارسو» وحافظت هذه المراكز على التقاليد العلمية للاستشراق بعد تطورها على يد نخبة من العلماء البولنديين الذين دفعوا بهذه الدراسات إلى الأمام بحيث أصبحت تشمل الأدب العربى والثقافة والترجمة. فقد تمت ترجمة عدة مؤلفات عربية معاصرة إلى اللغة البولندية، منها على سبيل المثال لا الحصر كتاب الأيام لطه حسين، ومختارات من يوسف إدريس وتوفيق الحكيم وغسان كنفانى، ونجيب محفوظ (زقاق المدق فى ١٩٨٢، وبين القصرين فى ١٩٨٩) وذلك

بالإضـافـة إلى ترجـمـة القـرآن الكريم وكـتب التـراث مـثل حـى بن يقظان لابن طفـيل (١٩٥٨)، والمدينـة الفاضـلة للفـارابى (١٩٦٥)، وكتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ (١٩٧٥).

ويمثل قسم الدراسات العربية والإسلامية فى جامعة وارسو أحد المراكز الرئيسية فى بولندا، ويليه فى الأهمـية قسم الدراسات العربية فى كراكوف الذى يعنى باللغة العربية بشكل خاص وباللغات السامية بشكل عام.

المدرسة الأمريكية:

وهى حديثة عهد بالدراسات العربية والإسلامية، ولم تنل فيها هذه الدراسات حظًا موفورًا، إلا فى العقود الخمسة الماضية. فقد نشطت حركة هذه الدراسات على يد الأساتذة الذين هاجروا إلى أمريكا من أمثال فيليب حِتّى اللبنانى الأصل وسوريال عطية المصرى، اللذين جعلا من جامعة برنستون وييل مركز هامًا للدراسات العربية الإسلامية، وقد حذت الجامعة الأمريكية الأخرى حذوهما، فأنشئت بها كراسى للغات الشرقية وحضاراتها، مثل جامعات شيكاغو وميشيجن وهارفرد وكاليفورنيا وبنسلفانيا، وقد اختلفت موضوعات هذه الدراسات فيها باختلاف الظروف السياسية والاقتصادية. فبعد أن كانت معرفة الولايات المتحدة الأمريكية بالعالم العربى لا تتعدى معرفتها بحكايات على بابا وألف ليلة وليلة، تغيرت الأمور حين بدأ التوسع الاقتصادى والتجارى لأمريكا، ومن ثم بدأ اهتمامها بالبلاد العربية والآسيوية والأفريقية أكاديميًا، فأنشأت أقسامًا خاصة لدراسة اللغة العربية وجغرافية العالم العربى وتاريخه. وهكذا فإنه يمكن القول إن الدراسات العربية والإسلامية قد بدأت هناك وبشكل جاد منذ ١٩٤٥، ومرت بمراحل صعود وهبوط منذ عام ١٩٧٩ تبعًا للتطورات السياسية فى هذه المنطقة. فقد ازدهرت هذه الدراسات من عام ١٩٨٠ إلى عام ١٩٨٦ بشكل واضح وذلك إثر قيام الثورة الإسلامية فى إيران، ثم بدأت تتحسر تدريجيا عندما أخذت الجامعات فى تخفيض ميزانيات أقسام الشرق الأوسط فيها.

ويوجد الآن فى الجامعات الأمريكية العديد من الأساتذة العرب أو الذين ينحدرون من أصول عربية أو فارسية أو آسيوية، وهم يحاولون تصويب النظرة الاستشراقية التى سادت عن العرب والمسلمين، والتعامل مع الدراسات العربية والإسلامية بصورة حيادية وعقلانية، ومعالجة المشاكل التى يتعرض لها المهاجرون العرب بوجه خاص فى المجتمع الأمريكى، بنشر المعلومات المجردة عن العالم العربى والإسلامى. وبانبعاث الإسلام ونهضته فى أمريكا، تأثرت هذه الدراسات وهويتها بصدور العديد من الدوريات والمجلات التى تعالج الأحداث العالمية من منظور إسلامى، مثل مجلة Inquiry Magazine ، والمجلة الإسلامية The Islamic Review(Arabia)، التى تأسست عام ١٩٨١. وتشكل أخيرًا فى جامعة فيلنوفا فى بنسلفانيا، المجلس الأمريكى لدراسة

المجتمعات الإسلامية. كما تأسست رابطة دراسات الشرق الأوسط عام ١٩٦٦، وهى تعمل على النهوض بدراسات الشرق الأوسط، وتضم معظم العاملين بحقل الدراسات العربية والإسلامية فى الولايات المتحدة وخارجها. وهى تصدر مجلتها الدورية «مجلة دراسات الشرق الأوسط» حافلة بالمقالات والبحوث المتعمقة التى تتناول دراسات تاريخية وجغرافية وعلمية وتراثية تتعلق بالشرق الأوسط.

المدرسة الإيطالية:

كانت إيطاليا هى أولى أمم الغرب التى عرفت الاستشراق دون أن تسميه، وكانت البندقية أولى مدنها التى تكلمت العربية بوصفها المرفأ التجارى الذى ربط الشرق بالغرب، كما أن إيطاليا هى من أوائل دول الغرب التى عرفت المطابع العربية. وقد توطدت العلاقات بين العرب وإيطاليا منذ الغزو العربى لصقلية ولقسم من جنوب إيطاليا فى القرن العاشر وحتى القرن الثالث عشر الميلادى. غير أن الدراسات العربية فى إيطاليا لم تنضج وتصبح دراسات علمية بمعنى الكلمة إلا فى القرن التاسع عشر الميلادى عندما احتلت جامعة روما موقع الصدارة وأنشأت أقدم كرسى لهذه الدراسات ضمن المدرسة الشرقية التى ألحقت بكلية الآداب، ومنها تخرج عد كبير من العلماء الإيطاليين الذين يشار إليهم بالبنان مثل فرانشيسكو جبرايللى الذى كرس حياته الطويلة لهذه الدراسات العمل على رفع شأنها وكان عضوًا فى المجمع العلمى العربى فى دمشق وفى المجمع اللغوى فى القاهرة، ويتولى تلامذته الآن نشر الثقافة والحضارة العربية الإسلامية فى جميع أنحاء إيطاليا . واللافت للنظر كثرة أعداد الإيطاليات المتخصصات فى الدراسة العربية الإسلامية، وهى ظاهرة تكاد تكون فريدة فى أوروبا. وهناك أيضًا جامعة نابولى ومعهدها الشرقى الذى تأسس سنة ١٧٣٢م بهدفين: الأول هو إعداد الباحثين فى حقل اللغات الشرقية، والهدف الآخر يتمثل فى تخريج الخبراء فى هذا المجال. وهو يصدر مجلة الحوليات (Annali) التى تعنى بالموضوعات الشرقية. أما جامعة ميلانو وجامعة فينيسيا وبالرمو، فهى مراكز بحثية هامة تعنى بتعليم اللغة العربية للطلبة المبتدئين. وقد تأسس «المعهد الشرقى» (Istituto per L'Oriente) فى روما عام ١٩٢١ بفضل جهود العلامة نللينو. وهو يضم مكتبة عربية هامة وقاعة للمحاضرات، وهو يصدر مجلته «الشرق الحديث» (Oriernte Moderno)، وهى سجل حافل بالبحوث الثقافية والأدبية والاجتماعية والدينية المتعلقة بالدول العربية والإسلامية.

المدرسة الفرنسية:

تأسست هذه المدرسة العتيقة سنة ١٣٢٥م، عندما درست اللغة لأول مرة بجامعة باريس، وتلى ذلك تدريس أرسطو فيها بشرح ابن رشد سنة ١٤٧٣م بأمر لويس الحادى

عشر. وقد عنى الفرنسيون بالدين الإسلامى عناية خاصة، وظهرت ترجمات للقرآن الكريم وللسيرة النبوية. وازداد اهتمام الفرنسيين بكل ماهو عربى وإسلامى بعد استعمارهم للمغرب العربى وتغلغلهم فى مناحى الحياة فى المغرب والجزائر وتونس وسيطرتهم على مقاليد الأمور فى سوريا ولبنان، أما الآن فقد تحول الاهتمام إلى دراسة العالم العربى تاريخيًا وثقافيًا وسياسيًا واجتماعيًا. وتعتبر جامعة باريس-السربون بفروعها المتعددة معقل هذه الدراسات، وبها أقدم الأقسام الشرقية فى كل الجامعات الفرنسية، وهو يتميز بتفوق مستوى دراساته العليا التى تتسم بالمستوى النوعى والتخصصى العميق، وقد نوقشت به أبحاث ورسائل فلسفية وتاريخية وقانونية واجتماعية وسياسية تخص العالم العربى الإسلامى، وذلك تحت إشراف أساتذة لامعين يسعون الآن إلى التعامل مع هذا العالم بشكل علمى وبتحليل موضوعى للمواقف والأحداث، ورصد تحولاته الراهنة بأسلوب يعبر عن المحافظة على معالم الحضارة العربية الإسلامية بعدما اختلف منظورهم عن منظور الاستشراق القديم، وأصبح هناك كرسى خاص بمادة تاريخ الإسلام المعاصر، وهو من المنابر التى تسعى إلى التواصل مع المجتمعات العربية المعاصرة، وتحفل جامعات إكس أن بروفانس وليون وستراسبورج بدراسات متعمقة فى مجال دراسات الشرق والإسلام. وتقوم مدرسة اللغات الشرقية فى باريس بدور هام فى نشر اللغة العربية والحضارة الإسلامية للمتخصصين وللدبلوماسيين الفرنسيين.

المدرسة الروسية:

يعنى الجيل الجديد من المستعربين الروس عناية خاصة بالدراسات الشرقية وسيما التراث الإسلامى للجمهوريات التى استقلت أخيرًا عن روسيا. ومازال مركز الدراسات العربية والإسلامية فى كل من موسكو ولينجراد، يمارس كل منهما جهوده فى هذا المجال. وتأسست مراكز علمية فى جمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز حيث تنشط حركة دراسة ونشر المخطوطات الشرقية والعربية. ويرجع الفضل إلى العلماء الروس المستعربين فى الكشف عن مخطوطات عربية نادرة منها كتاب «المنازل والديار» لأسامة ابن منقذ، والذى نشر نصه الكامل بالعربية فى لينجراد سنة ١٩٦١م. كما وجه اهتمام كبير إلى دراسة وترجمة المواد الجغرافية والتاريخية لشعوب آسيا الوسطى التى تعود صلاتها الثقافية مع البلدان العربية إلى قرون قديمة، وتم تحقيق آثار من تراثها نشرها جريجورى شرباتوف الذى حقق رسالة ابن فضلان عن رحلته إلى منطقة الفولجا فى القرن العاشر الميلادى. والمعروف أن الاستشراق الروسى كمدرسة علمية لم ينتظم عمله إلا فى أوائل القرن التاسع عشر حينما أنشئت منابر لتدريس اللغة العربية فى أشهر

جامعات روسيا، مثل جامعة موسكو (١٨١١م)، وجامعة لينجراد (١٨١٨م) التى أنشئت بها الكلية الشرقية التى كانت موئلا للعلوم الإسلامية والعربية، ومستقرًا لكبار العلماء، ومنهم العلامة كراتشكوفسكى، عميد المستشرقين الروس، وصاحب المؤلفات الوفيرة التى أثرت المكتبة العربية. ويواصل تلامذته فى الوقت الحالى سيرته ويتبعون خطواته الرائدة فى مجال الدراسات العربية الإسلامية.

المدرسة الصينية:

لاعجب ولا غرابة فى أن نختم هذه الجولة السريعة مع مدارس الاستشراق الجديد بالمدرسة الصينية! فالصين، وهى من بلدان المشرق، شهدت حركة حثيثة فى مجال الدراسات الشرقية والإسلامية عقب تأسيس جمهورية الصين الشعبية فى ١٩٤٩، وبوجه خاص بعد انعقاد مؤتمر باندونج فى ١٩٥٥، حيث ظهرت حاجة الصين إلى التعرف على الشعوب العربية والإسلامية فى آسيا وإفريقيا. فقامت بإنشاء عدة معاهد بحثية خاصة للاضطلاع بالدراسات المتعلقة بالشرق الأوسط من النواحى الاجتماعية والاقتصادية. ونظمت الأكاديمية الصينية للعلوم دراسات منهجية منتظمة عن المسائل التاريخية والسياسية الخاصة بدول الشرق الأوسط وإيران، كما أصدرت بحوثًا علمية تتصل بالعقائد الدينية فى هذه المنطقة. وفى عام ١٩٦٢، تشكلت الجمعية الصينية للدراسات الآسيوية والإفريقية فى بكين، وضمت عضويتها الخبراء والدارسين والشخصيات البارزة فى مجال البحوث المعاصرة ذات الصلة بالقضايا الآسيوية والإفريقية، وتأسس فى عام ١٩٨٢ المجلس الصينى للبحوث، وكان قد سبق لجامعة «أكزيان» الشمالية الغربية فى عام ١٩٧٢، أن أعادت فتح «المعهد الإسلامى» المكرس لدراسة بلدان شمال إفريقيا وإيران، تاريخيًا ودينيًا. وأنشأت أكاديمية «نينجكسيا هوى» الحرة، معهدًا لدراسة البلدان الإسلامية فى الشرق الأوسط. كما توسعت جامعة شنغهاى فى أنشطتها المتصلة بالدراسات العربية الشرقية. وقد وصل عدد الباحثين والدارسين فى هذا المجال إلى عدة مئات، وهو تطور ملحوظ إذا ما قورن بالأرقام السابقة، وصدرت عدة مؤلفات عن البلدان العربية منها «تاريخ مصر المعاصر»، و«ملامح التطور الاقتصادى فى الشرق الأوسط» كما صدرت ترجمات باللغة الصينية لعدد كبير من الكتب والمراجع العربية الحديثة والمعاصرة.



الفهرس

الموضــــــوع | رقم الصفحة

جـ -فى بقية العالم

الفصل الثانى

فى ذكرى العلامة الراحل الدكتور جمال حمدان

الفصل الثالث

فى الدراسات الإسلامية

الفصل الرابع

فى التراث والمخطوطات

الفصل الخامس

عن الفن والأدب والفلسفة

الفصل السادس

عن التاريخ والمؤرخين

الفصل السابع

عن التصوف والمتصوفة

الفصل الثامن

عن الترجمة والمترجمين

الفصل التاسع

عن الاستشراق والمستشرقين

❖❖❖